نداء الشجاعة

الحظُّ حليف الشجاع



راين هوليداي

الكتاب الأكثر مبيعاً بحسب صحيفة نيويورك تايمز

نداءُ
الشجاعة

الحظ حليف الشجاع

راين هوليداي

ترجمة: الطيب الحسني

مراجعة: عزة الطويل



شركة رف للنشر

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

نداء الشجاعة

المؤلف

راين هوليداي

ردمك: 978-603-92010-8-3

رقم الإيداع: 2435/1444

لا يسمح بإعادة طبع أو نسخ أو نقل هذا الكتاب أو أي جزء منه
بأي وسيلة سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية أم غيرها.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر عن رأي شركة رف للنشر.

الطبعة الأولى 2022

ترجمة: الطيب الحسني مراجعة: عزة الطويل

Originally published as: Courage is calling. Copyright ©2021 by Ryan Holiday. All rights reserved including the right of reproduction in whole or in part in any form. This edition published by arrangement with Portfolio, an imprint of Penguin Publishing Group, a division of Penguin Random House LLC.

المجموعة السعودية للأبحاث والإعلام

١١٥٨٣- الرياض، المملكة العربية السعودية

تلفون: +966112128000

email: contact@raffpublishing.com

website: www.raffpublishing.com



«علينا ألّا ننتظر دعوة الآخرين لنا كي نقوم بأعمالٍ عظيمة. بل عوضاً عن ذلك فلنكن نحن الميادرين ، ولنَدعُ الآخرين إلى طريق المجد. كُن الأشجع بين الرّبابنة، وثِق بأن لك أحقيّةً في القيادة تفوق حتّى أحقيّة قادتنا الحاليين».

زينوفون

المحتويات

الفضائلُ الأربع 11

المقدّمة 17

الجزء الأول: الخوف

النداء الذي نخافُه... 27

المهمُّ ألا يصيبنا الخوف 39

نهزم الخوف بالمنطق 43

هذا هو العدوّ 46

يبدون دائماً أكثر عدداً قبل أن تَعُدَّهم 49

ماذا لو؟ 53

لا تدع الصعوبات تردعك 57

ركِّزْ على ما هو أمامك 60

لا تشكِّك أبداً في شجاعة الآخر 65

وكالَتُكَ على حياتك حقيقةٌ فعليّةٌ 69

خائفون من أن نؤمن 72

لا تدعهم يرعبونك أبداً! 76

النموّ قفزة 80

لا تَخَف من الخيارات 84

لا يمكنك إعطاء الأولوية للسلامة 87

الخوف يريك شيئاً 91

لا شيء يخيف أكثر من أن تكون نفسك 94

الحياة تحدث في العلن. اعتد على ذلك. 98

أيُّ تقليدٍ ستختار؟ 102

لا يمكنك أن تخاف من السؤال 105

عندما نرتقي إلى أعلى ... 109

الجزء الثاني: الشجاعة

النداءُ الذي نلبّيه... 115

العالمُ يريدُ أن يَعرِف 125

إن لم يكن أنت فمن إذاً؟ 127

الاستعداد يجعلك قوياً 130

ابدأ من مكانٍ ما. افعل شيئاً ما وحسب 134

انطلق! 138

قل الحقيقةَ للسلطة 141

كُنْ صاحب القرار 145

من الجيّد أن تكون «صعباً» 150

بضعُ ثوانٍ من الشجاعة فقط 154

اجعَلها عادةً 158

بادر بالهجوم 163

لا تتقهقر 167

الشجاعة مُعدية 171

عليك أنْ تتحمَّل المسؤولية 174

يمكنك دائماً أن تقاوم 178

الأقدارُ حليفةُ الشجعان 182

شجاعة الالتزام 186

أحبَّ جارك 190

الجرأة لا تعني التسرّع 195

الوكالةُ تؤخذُ ولا تُعطى 199

حين يكونُ العنفُ هو الحلّ 203

أنْ تنهضَ وتَرحَل 206

قُم بِعملك 211

يُمكِنُكَ أن تهزم الفُرَصَ الضئيلة 215

اجعلهم يفتخرون بك 221

عندما نتفوّق على أنفسنا... 224

الجزء الثالث: العمل البطوليّ

ما هو أبعدُ من النداء... 229

الهدفُ هو كلّ شيء 240

مِنَ الأشجعِ ألا تقاتِل 245

عليك أن تختبرَ حياة البرية 251

الإيثارُ في الحبّ 256

اجعل الناس من حولك عظماء 260

لا وقتَ للتردّد 265

نحن نصنع حظّنا 269

ألهِم الآخرين الشجاعةَ المطلَقة 272

ما الثمن الذي أنت مستعدّ لدفعه؟ 276

السببُ المهمّ 282

العودة إلى الوادي 285

الصمتُ عنف 289

جرأة الأمل 293

أحرِق الراية البيضاء 297

لا أحد عصيّ على الانكسار 301

الشجاعةُ فضيلة والفضيلةُ شجاعة 304

الخاتمة 309

ماذا أقرأ الآن؟ 320

شكر 323

الفضائلُ الأربع

في قديم الزمان، وصل هرقل إلى تقاطع طرق.

هناك حيث تلتقي تلال اليونان الهادئة تحت ظلِّ أشجار الصنوبر الكثيفة، هناك التقى بطل الأسطورة اليونانية بِقدَرِهِ للمرّة الأولى.

لا يعلم أحدٌ أين كان ذلك تمامًا أو متى. إنّنا نقرأ عن هذه اللحظة في كتابات سقراط، ونراها متجسِّدة بأبهى صورة في فنون عصر النهضة. ونشعر بطاقته الفتيِّة المتدفِّقة وعضلاته القويّة في الكانتاتا التي كتبها باخ. ولو أنّ جون آدامز نجح في إقناع الآباء المؤسّسين في عام 1776 لكانت صورة «هرقل عند تقاطع الطرق» على الختم الرسمي للولايات المتحدة.

وسبب ذلك أنّه في تلك اللحظة التي سبقت شهرة هرقل، أي قبل أعماله الاثني عشر، وقبل أن يغيِّر هرقل العالم... في تلك اللحظة، واجه مصيبةً حقيقيةً تقلب الحياة رأسًا على عقب كمثل المصائب التي نواجِهُها جميعًا.

أين كان ذاهبًا؟ إلى أين حاول الوصول؟ تلك هي عبرة القصة. كان هرقل وحيداً، وغير معروفٍ تعوزه الثقة. ومثله في ذلك مثل الكثيرين غيره، لم يكن هرقل يعرف غايته.

وحيث تفرَّعت الطريقُ جلست إلهةٌ جميلةٌ تعرضُ عليه كلّ إغراءٍ يمكن أن يتخيّله. كانت ترتدي ثيابًا بديعةً، وعرضت عليه حياةً سهلةً، فأقسمت أنّه لن

يعرف الحاجة أو التعاسة أو يخاف من ألم. «اتبعني»... قالت له «وكلّ رغباتك ستتحقّق».

وفي الطريق الثاني وقفت إلهةٌ تبدو أكثرَ حزمًا، ترتدي ثوبًا أبيضَ نقيًّا. وكانت دعوتها أكثر هدوءًا: لم تَعِدهْ بأيّ مكافأةٍ سوى المكافآت التي تأتي نتيجةً للجَهد الصعب. قالت له إنّها ستكون رحلةً طويلةً، وسوف تكون هناك تضحياتٌ، ولحظاتٌ مرعبةٌ، إلا أنّها رحلةٌ تليق بإله، وإنّها ستجعله الشخص الذي أراده أجدادهُ أن يكون.

أهذا حقيقيٌّ؟ هل حدث حقًا؟

إن كانت أسطورةً، فهل يهمُّ ذلك؟

أجل لأنّ هذه الحكايةَ حكايتُنا.

حكايةُ المعضلة التي نعاني منها، وتقاطعات الطرق التي تواجهنا كلّنا.

كان خيار هرقل بين الفضيلة والرذيلة، بين الطريق السهلة والطريق الصعبة، بين الدرب المطروق المعروف والدرب المتروك. وكلّنا نواجه هذا الخيار.

لم يتردّد هرقل إلا ثانيةً واحدة، ومن ثَمَّ اختار الطريق التي صنعت كلَّ الفرق.

لقد اختار الفضيلة.

قد تبدو «الفضيلة» شيئاً عفى عليه الزمان، ولكن معنى الفضيلة (arete) بسيطٌ ومفيدٌ عبر الأزمان: إن معناها الامتياز، الأخلاقيّ، والفيزيائيّ، والعقليّ.

في العالم القديم، تألّفت الفضيلةُ من أربعة مكوّنات أساسيّة.

الشجاعة.

الاعتدال.

العدل.

الحكمة.

الملك الفيلسوف ماركوس أوريليوس أسماها «محكّات الخير»[1]. ويعرفها الملايين باسم الفضائل الكبرى، وهي أربع فضائل تكاد تكون مشتركةً بين كل البشر، فتبنَّتها المسيحيّةُ ومعظم الفلسفة الغربيّة، ولكنها ذات أهمية مساوية أيضاً في البوذيّة والهندوسيّة وكلِّ الفلسفات الأخرى التي قد تخطر في بالك. وتسمّى هذه الفضائل بـ «الكبرى» (cardinal) -كما أشار سي. إس. لويس- ليس لأنّها تتحدّر من سلطة الكنيسة، بل لأنّ أصلها من الكلمة اللاتينية (cardo) التي تعني «المفصل».

إنّها أمورٌ محوريّة. إنّها الأشياء التي يَستندُ إليها بابُ الحياة الجيدة.

وهي أيضاً موضوع هذا الكتاب، وهذه السلسلة.

أربعة كتب لأربع فضائل[2].

الهدفُ واحدٌ: مساعدتك في أن تختار...

الشجاعة، الإقدام، البأس، الشرف، التضحية....

الاعتدال، التحكُّم في النفس، التوسّط، رباطة الجأش، الاتّزان...

العدل، الإنصاف، الخدمة، الرفقة، الخير، الإحسان...

الحكمة، المعرفة، التعليم، الحقيقة، تأمُّل النفس، السلام...

هذه أمورٌ تشرّع لك الباب الذي يؤدّي إلى حياةٍ مشرّفةٍ ومجيدةٍ، وإلى حياةٍ من الامتياز على جميع الصعد. إنها الصفاتُ التي أبدع في وصفها جون شتاينبك قائلاً إنّها الخصائص «الجذّابة لصاحبها والمرغوبة، وتجعله يقوم بأفعالٍ يستطيع أن يكون فخوراً وسعيداً بها». لكن علينا اعتبار أن كلمة «صاحبها» تشير إلى البشرية كلِّها، إذ ليس هنالك صيغةٌ مؤنثةٌ من كلمة virtus أي «فضيلة» في لاتينيّة روما. الفضيلة لم تكن أنثى أو ذكراً، ولكنها كانت موجودة.

ولما تزل كذلك. لا يهمُّ إن كنت رجلاً أو امرأة. لا يهمُّ إن كنت قويّاً جسديّاً، أو شخصاً خجولاً جداً، عبقريّاً أو ذا ذكاء متوسّط.. إن الفضيلة ضرورةٌ كونيّة.

تتشابك الفضائل ولا تنفصل بعضها عن بعض، إلا أنّ كلّ فضيلةٍ تتميّز عن الفضائل الأخرى. فعلُ الشيء الصحيح يتطلّب الشجاعةَ دائماً تقريباً، كما أنّ

ضبط النفس مستحيلٌ من دون الحكمة التي تُعلَمنا الاختيارَ الصحيح. ما نفع الشجاعة إذا لم نطبِّقها في سبيل العدل؟ ما نفع الحكمة إن لم تجعلنا أكثرَ تواضعاً؟

شمالاً، جنوباً، شرقاً، غرباً. الفضائل الأربع تشبه البوصلة (هنالك سببٌ لتسمية الاتجاهات الأربعة على البوصلة بالاتجاهات الأساسية «cardinal directions»). إنها تدلّنا إلى الطريق، وتوضِّح لنا أين نحن وما هو الصحيح.

وَصفَ أرسطو الفضيلةَ بأنها نوعٌ من الصنعة، شيءٌ نمارسه كما نمارس أيَّ مهنة أو مهارة. يكتب: «نصبحُ بنَّائين عبر ممارسة البناء، وعازفي قيثارة عبر العزف على القيثارة. على نحوٍ شبيه إذاً، نصبح عادلين بممارسة الأفعال العادلة، ومعتدلين بممارسة الأفعال المعتدلة، وشجعاناً بممارسة الأفعال الشجاعة».

إن الفضيلة شيءٌ نفعله.

إنها شيءٌ نختاره.

ولا يحدث ذلك مرةً واحدة، لأن مفترق الطرق الذي واجهه هرقل ليس حدثاً فردياً، بل هو تحدٍ يوميّ متكرِّر نضطرُّ إلى مواجهته. هل سنكون أنانيّين أم غَيريّين؟ شجعاناً أم خائفين؟ حكماء أم أغبياء؟ هل سننمّي عادةً جيّدةً أو سيّئة؟ هل سنختار الشجاعة أم الجبن؟ السعادة في الجهل أم مواجهةُ فكرةٍ جديدة؟

هل نبقى كما نحن... أم ننمو؟

الطريق السهلة أم الطريق الصحيحة؟

المقدّمة

«ليس في هذه الحياة عملٌ مستحيلٌ بحيث إنّك لا تستطيع القيام به. يجب أن تعيش حياتك كلَّها كعملٍ بطوليّ».

ليو تولتسوي

إنّنا لا نُثمِّنُ شيئاً كما نُثمِّنُ الشجاعة، وعلى الرغم من ذلك إنّها أندرُ ما نجده حولنا.

أهكذا حالُ الدنيا؟ أننا نُثمِّنُ الأشياء حسب ندرتها؟

ربما.

ولكن الشجاعة -أولى الفضائل الرئيسيّة- ليست حجراً كريماً. وليست ألماسةً تشكّلت عبر مليارات السنين، ولا نفطاً نستخرجه من باطن الأرض. كما أنها ليست مواردَ قابلةً لأن تنضب، يُنعمُ علينا بها القدرُ ولا يحصل عليها إلا بعض المحظوظين.

لا. بل إنّها شيء أبسطُ بكثير، فهي متجدِّدةٌ. ومن ثم فهي موجودةٌ في كلٍّ منّا، وفي كلّ مكان. إنّها شيء في متناولنا مباشرةً ونلجأ إليه في خضمّ اللحظة. في المسائل الكبرى والصغرى، الفيزيائيّة منها والأخلاقيّة.

ثمة فرصٌ غير محدودة، بل يومية حتى، يمكننا أن نتحلّى خلالها بالشجاعة، في العمل وفي المنزل، وفي كلّ مكان.

وعلى الرغم من ذلك تبقى الشجاعة نادرة.

لماذا؟

لأنّنا خائفون. لأنّه من الأسهل ألا نتورَّط... لأنّ لدينا شيئاً آخرَ نعملُ عليه، والآن ليس وقتاً ملائماً. نقول لأنفسنا «أنا لست جنديّاً»، كما لو أنَّ القتالَ في ساحة المعركة هو الشكلُ الوحيد من الشجاعة التي يحتاج العالم إليها.

إنّنا نفضّل الالتزام بما هو آمنٌ. أنا؟ بطوليٌّ؟ يبدو ذلك أنانيّاً، بل أخرقَ. فنتركُ الأمرَ لأحدٍ غيرنا، لشخصٍ ما مؤهّلٍ أكثر منّا، وأكثر تدريباً منّا، وليس عنده ما يخسره مثلنا.

إن هذا مفهومٌ، بل إنه منطقيٌّ حتى.

ولكن لو فكّر الجميع بهذه الطريقة، فأين سنجد أنفسنا؟

كتب المؤلف والمعارض السوفييتيّ ألكسندر سولجنيتسين: «أيحتاج المرء حقّاً إلى أن يذكّر بأن انحدار الشجاعة لطالما اعتُبِر -منذ التاريخ القديم- المؤشّر الأول إلى النهاية؟

وفي مقابل ذلك، فإن اللحظات العظمى في التاريخ البشريّ، من الهبوط على القمر، إلى الصراع من أجل الحقوق المدنيّة، أو الوقفة الأخيرة في مضيق ثيرموبيلاي[3] أو فنون عصر النهضة، تشترك جميعاً في شيءٍ واحد هو: شجاعة الرجال والنساء العاديين والعاديات؛ أناسٌ فعلوا ما يلزمُ فعله. أناسٌ قالوا: «إنْ لم يَكُنْ أنا، فمَنْ؟».

الشجاعةُ هي الشجاعةُ هي الشجاعةُ

لطالما ساد الاعتقاد بأن الشجاعة نوعان: الجسديّ والأخلاقيّ.

الشجاعة الجسديّة فارسٌ يمتطي جواده نحو المعركة. إنها رجلُ إطفاءٍ يهرعُ نحو مبنىً محترقٍ. إنها مستكشفٌ ينطلقُ في رحلةٍ بعيدةٍ نحو القطب المتجمِّد متحدّياً عوامل الطبيعة.

الشجاعة الأخلاقيّة هي إنسانٌ دفعه ضميره إلى التبليغ عن حدثٍ ما فواجه بذلك قوىً شرسة. إنها قائلُ الحقيقة الذي ينطقُ بما لا يجرؤ آخرُ على قوله. إنّها رُوَّادُ الأعمال الذين يغامرون في إطلاق أعمالٍ خاصّةٍ بهم تعنيهم شخصياً على الرغم من كل المحاذير.

الشجاعة العسكريّة للجنديّ والشجاعة العقليّة للعالِم.

ولكنّنا لا نحتاج إلى أن نكون فلاسفةً كي نلاحظ أنّ الشجاعة واحدة.

لا يوجد نوعان من الشجاعة، بل نوعٌ واحدٌ وحسب، وهو النوع الذي يجعلك تُخَاطرُ بنفسك في سبيل ما تفعل. وفي بعض الحالات يكون الخطرُ جسدياً، وربما قاتلاً، وفي حالات أخرى يكون معنويّاً وحسب، أو ماليّاً.

الشجاعةُ هي المخاطرة.

إنها التضحية...

... الالتزام

... المثابرة

... الحقيقة

... العزيمة

عندما تُقدِمُ على ما لا يقدر أو لا يجرؤ عليه الآخرون. عندما تفعل الشيء الذي يرى الآخرون أنّك لا يصحُّ أن تفعله، أو لا تقدر. وإلا فلا تكون شجاعة. لا بد من أن تغامر في سبيل شيءٍ أو أحدٍ.

على الرغم من ذلك، تبقى الشجاعة شيئاً عصيّاً على التعريف، فإنّنا ندركها عندما نراها، ولكن يصعب علينا أن نعبّر عنها بالكلمات. وبالتالي، فإن هدف هذا الكتاب ليس التعريف. إن الشجاعة أندر من أندر حجرٍ كريم، ولذلك لا بدّ من أن نقلّبها ونتفحَّصها من كل الزوايا الممكنة، متأمّلين كافّة أجزائها ومقاطعها، وكمالاتها وعيوبها. عندها نستطيع التوصُّل إلى فهمٍ لقيمتها الكليّة. كلُّ منظورٍ يقدِّم لنا المزيد من التعمّق.

ولكن الهدفَ ليس فهم الفضيلة بشكلٍ مجرَّدٍ طبعاً. إذْ كلٌّ منّا يواجه تقاطع الطرق الهرقليّ: ربما نشغلُ مناصب رسميّةً. ربما شاهدنا شيئاً غيرَ أخلاقيٍّ في العمل. ربما نحن أهلٌ نحاولُ تربية أبنائنا في عالم مرعبٍ ومغوٍ. قد يكون الواحد منّا عالِماً يُطاردُ فكرةً جدليّةً أو غير تقليديّةٍ. ربما لدينا حلمٌ بعملٍ جديدٍ.

ربما نحن جنديٌ في فيلق المشاة عشيّةَ المعركة. أو رياضيٌّ على وشك أن يدفع بالقدرات الإنسانيّة إلى حيثُ لم تصل من قبل.

ما تتطلّبه هذه الحالات هي الشجاعة. بمعانيها الحقيقيّة. والآن. هل سنمتلكها؟ هل سنجيب الهاتف عندما يرنّ؟

كان ونستون تشرشل يقول «تأتي لحظةٌ خاصةٌ في حياة كل إنسان يربِّتُ خلالها أحدهم مجازيّاً على كتفه ويعرضُ عليه فرصةَ فعل شيءٍ خاصٍ جداً، شيءٍ مميَّزٍ وملائمٍ لمواهبه. أيّ مأساةٍ تلك إنْ جاءت اللحظةُ فلم يكن مستعدّاً أو مؤهلاً لما كان سيشكّل ربما مجده الأكبر».

ومن الأدقّ القولُ: إنّ الحياة تحتوي على الكثير من هذه اللحظات، وعلى الكثير من هذا التربيت على الكتف.

لقد عانى تشرشل من طفولةٍ صعبة بين أهلٍ غيرِ محبّين، لقد تطلّب الأمرُ منه شجاعةً كي يتجاهل المُعلّمين الذين اعتبروه غبيّاً. وأيضاً، كي ينطلق مسافراً ليصبح مراسلَ حربٍ في شبابه، ومن ثم يُعتقل فيصبح سجيناً، وينفِّذُ عمليةَ هروبٍ عصيبةً بعدها. إنَّ الترشُّحَ لمنصبٍ عامّ يتطلب قدراً كبيراً من الجسارة. كما لزمته الشجاعةُ في كل مرّة نشرَ فيها شيئاً من كتابته. وفي قرار تغيير حزبه السياسيّ، والتطوّع في الحرب العالميّة الأولى، والسنوات الفظيعة في العراء السياسيّ عندما انقلبت الآراء ضدَّه. ومن ثم جاءَ صعودُ هتلر، والوقوف في وجه النازيّة في أعتى لحظات قوّتها. كان لا بدّ من الشجاعة أيضاً للاستمرار عندما أُلقِيَ بتشرشل إلى خارج الحياة السياسيّة مجدَّداً. والشجاعة هي التي أرجعته من كلِّ ذلك مرّة أخرى. شجاعةُ البدء بتعلُّم الرسم في عمرٍ متقدِّمٍ وعرض أعماله على الملأ أمام كلّ الناس. وشجاعة الوقوفُ في وجه ستالين والستار الحديديّ، وغيرها وغيرها وغيرها...

هل مرّت تلك الشجاعة بإخفاقاتٍ على طول ذاك الطريق؟ بأخطاء؟ بفرص لم تُستَغلّ؟ لا شكّ في ذلك. ولكن دعونا ننظر إلى اللحظات الشجاعة ونتعلّم منها بدلاً من أن نركّزَ على أخطاء الآخرين لنستعملها ذريعةً لتبرير أخطائنا.

في حياة كلّ العظماء، نجدُ الثيمات نفسها. نجدُ لحظةً مفصليةً من الشجاعة، ولكننا نجدُ لحظاتٍ أخرى كثيرةً أصغر منها. عندما رفضت روزا باركس التخلّي عن مقعدها للبيض في تلك السابقة التاريخيّة: كانت هذه شجاعةً حقيقيّة... ولكن الشجاعةَ موجودةٌ أيضاً في الاثنين والأربعين عاماً من حياتها التي قضتها في الجنوب الأمريكيّ امرأةً سوداءَ لم تفقد الأمل، ولم تسمحْ للمرارة بأن تسيطر عليها.

إن شجاعتها في متابعة القضيّة القانونيّة ضدَّ الفصل العنصريّ هي امتدادٌ للشجاعة التي دفعتها إلى الانضمام إلى الجمعيّة الأمريكيّة للنهوض بحقوق الملوَّنين في عام 1943، وأن تعمل فيها على الملأ كسكرتيرة، بل دفعتها الشجاعةُ إلى ما هو أكثر من ذلك في عام 1945، عندما استطاعت التسجيل قانونيّاً للتصويت في ولاية ألاباما.

يُكتَب التاريخ بالدم والعرق والدموع، وتنقشهُ في الأبدية المثابرةُ الهادئة لدى أناس شجعان.

أناس قرّروا الوقوف (أو الجلوس ورفض مغادرة مقعدهم)...

أناس حاربوا...

أناس خاطروا...

أناس تحدّثوا...

أناس جرّبوا...

أناس قهروا مخاوفهم وتصرّفوا بشجاعة، وفي بعض الحالات، تمكّنوا من بلوغ المستوى الأرقى من الوجود، فدخلوا قاعة أبطال التاريخ.

الشجاعة تنادي كلّاً منّا بشكلٍ مختلف، وفي أوقاتٍ متباينة، وبأشكالٍ مختلفةٍ. ولكنها في كلِّ حالةٍ من الحالات تنبعُ من الداخل.

نطالَب أوّلاً بأن نترفّع فوق الخوف والجُبن. من ثَمَّ، نُدفع نحو الإقدام، بغضّ النظر عن الظروف وعن العقبات، وعلى الرغم من محدوديّة إمكانيتنا. وأخيراً، فإننا نُدعى إلى البطولة، فنُمنح لحظةً بديعةً فريدةً واحدةً وحسب، وذلك عندما نُدعى لفعل شيءٍ لغيرنا.

أياً كان النداء الذي تسمعه الآن، فمن المهم أن تجيب. ما يهمُّ هو أن تَهِمَّ بالفعل.

في عالمٍ قبيحٍ... الشجاعةُ جميلةٌ، فهي تسمحُ للأشياء الجميلة بالوجود.

من قال إنها يجب أن تكون نادرة؟

لقد اخترت هذا الكتاب لعلمك بأنّها يجب ألا تكون كذلك.

الجزء الأول
الخوف

«وراءَ مكمن الغضب والدموع هذا

لا يلوحُ سوى رُعب الظلّ

ومع ذلك فإن شرّ السنين

يجدني غيرَ خائفٍ، وسيظلّ».

ويليام إيرنست هينلي

ما هي القوى التي تكبح الشجاعة؟ ما الذي يجعل شيئاً ما ثميناً أو نادراً إلى هذا الحدّ؟ ما الذي يمنعنا من فعل ما نستطيعه، بل ما هو واجب علينا؟ ما هو مصدر الجُبن؟ الخوف. Phobos. من المستحيل هزيمةُ عدوٍّ لا تفهمه، والخوفُ -بكل أشكاله، من الذعر إلى اللامبالاة إلى الكراهية إلى استصغار النفس- هو عدوُّ الشجاعة. إنّنا في معركة ضدّ الخوف. ولذلك

فإنّ علينا أن ندرُسَ الخوفَ، ونفهمه جيّداً، ونتعاملَ مع أسبابه وأعراضه. إنّ هذا هو السبب الذي دفع بالإسبرطيين إلى بناء معابد للخوف. كي يبقوه قريباً. كي يروا قوّته. كي يصدّوه. ليس الشجعان بلا خوفٍ (فلا إنسان بلا خوف) بل إنّها قدرتهم على الارتقاء فوق الخوف والسيطرة عليه تجعلهم عظيمين إلى هذه الدرجة. وفي الحقيقة، لا بد أن نقول: إنّ العَظَمة مستحيلةٌ من دون هذا الارتقاء. أما عن الجبناء، فلا شيء مكتوبٌ. لا شيء يُحفظ في الذاكرة. لا شيء يحظى بالإعجاب. اذكر لي شيئاً جيّداً واحداً فقط لم يتطلّب على الأقلِّ بضعَ

ثوان عصيبةٍ من الشجاعة. فإذا شئنا أن نكون عظيمين فإنّ علينا أولاً أن نتعلّم كيفية قهر الخوف، أو على الأقل الارتقاء فوقه في اللحظات المهمّة.

النداء الذي نخافُه...

لم تكن فلورنس نايتينجيل تشعر بالخوف في طفولتها، إذْ لم تكن قد تعلَّمته بعدُ. توجدُ لوحةٌ صغيرة من طفولتها المبكّرة، رسمتها عمّتها، وتظهر فيها فلورنس تمشي مع أمّها وأختها حين كانت في عمر الرابعة ربّما.

أختها الكبرى ممسِكة بيد أمّها، بينما تمشي فلورنس «بخطى مستقلّةٍ وحدَها»، كما يفعل بعض الأطفال من ذوي الثقة البريئة الرائعة. ما كان عندها حاجةٌ للأمان. لم تكترث بما يفكر فيه أيُّ أحدٍ آخر. حولها الكثير لتراه. الكثيرُ الكثيرُ لتكتشفه.

ولكن يا للأسف، لم يَدُمْ هذا الاستقلالُ كثيراً.

لعلَّ أحداً ما قال لها إن العالم مكانٌ خطير. أو لعلّه كان التأثير الخفيُّ والساحقُ في آنٍ للعصر الذي عاشت فيه، والذي شاء أن تتصرّف الفتيات بطريقةٍ معيّنة. ولربّما كانت الرفاهية الثريّة التي عاشت في كنفها هي التي أضعفت عزيمتها.

كلٌّ منّا شارك في حوارٍ شبيه، مارس خلاله شخصٌ بالغٌ ذلك الظلمَ القاسي (بصرف النظر عن نوايا ذاك الشخص) ففقأ فقاعتنا. يعتقد الراشدون أنهم يحضّروننا للمستقبل، بينما هم في الواقع يزرعون فينا مخاوفهم الخاصّة، ومحدوديّتَهم الخاصّة.

أيّ ثمنٍ باهظٍ ندفعه ثمناً لذلك. وأيّ شجاعة نحرمُ العالمَ منها.

كاد أن يحدث ذلك مع فلورنس نايتينجيل.

في السابع من فبراير عام 1837، تلقّت فلورنس ما سمَّتْهُ لاحقاً في حياتها «النداء»، وكانت حينها في السادسة عشرة من عمرها.

أيّ نداء؟ إلى أين؟ وكيف؟

كلّ ما شعرت به كان كلمةً غامضة جاءت من العلياء وبثّتْ فيها حسّاً بأنّ شيئاً ما مُتَوقَّعٌ منها، وبأن لديها ما تقدّمه خدمةً الآخرين. شعرت بأن عليها أنْ تلتزم

بشيءٍ مختلفٍ عن حياة عائلتها الثريّة والمُرفّهة، وبدورٍ مختلفٍ عن الأدوار المُقيّدة والمخيبة للآمال المتوفّرة للنساء في عصرها.

قال بات تيلمان عندما قرّر اعتزالَ كرة القدم المحترفة والانضمام إلى الجيش: «في مكان ما داخلنا، نسمع صوتاً... يقودنا صوتنا في اتجاه الشخص الذي نتمنّى أن نكونه، ولكن الأمر يرجع إلينا في اتّباع الصوت أو عدمه. في الكثير من المرّات يوجّهنا صوتنا في اتجاهٍ متوقّعٍ وواضحٍ يبدو إيجابيّاً. ولكنّنا في الواقع ننقادُ نزولاً في دربٍ مختلفٍ تماماً أحياناً».

قد يذهب بك الظنُّ إلى أن فتاةً شجاعةً مثل فلورنس نايتينجيل ستكون مهيّأةً للاستماع إلى ذلك الصوت، ولكن مثلها كمثلنا جميعاً: جعلتْ فلورنس معتقدات عصرها جزءاً من مكوّنات شخصيّتها الداخليّة، فأصبحت مراهقةً ورعةً لا تجرؤ على تخيُّل طريقٍ تختلف عن طريق أهلها.

كتب ليتون ستراتشي في كتابه الكلاسيكيّ (حيوات عظماء العصر الفيكتوريّ)[4]: «كان ثمة بيتٌ ريفيٌّ كبيرٌ في ديربيشاير، وواحدٌ آخر في نيوفوريست، وكانت هنالك أيضاً غرفٌ في منطقة مايفير لزيارتها في موسم لندن وكل حفلاته الفخمة. كانت هناك جولاتٌ في أوروبا وعددٌ فائض عن العادة من زيارات الأوبرا الإيطاليّة ومصادفة المشاهير في باريس. ولمّا نشأت فلورنس في ظل هذه المزايا، فقد كان من الطبيعيّ وحسب أنّها سوف تظهر تقديراً كبيراً لهذه التوجّهات، وذلك عبر أداء واجبها في الحياة الدنيا والذي أراده اللّه لها، أي بكلماتٍ أخرى: أن تتزوّج -بعد عددٍ ملائم من الرقصات الرسميّة وحفلات العشاء- رجلاً مؤهّلاً، وأن تعيش معه الحياة الزوجيّة السعيدة إلى آخر الزمان».

ثمانية أعوامٍ كاملة، جلس ذلك النداء خلالها في خبايا عقل فلورنس كما يختبئ الفيلُ في الغرفة من دون أن يشير إليه أحد. وفي خضمّ كل ذلك، باتت واعيةً إلى حدٍّ ما أن الأمور في العالم الفيكتوريّ ليست كلّها على ما يرام؛ فمتوسط العمر المتوقع بالكاد يبلغ الأربعين عاماً، وفي الكثير من المدن كان معدّل وفيات المرضى الذين يتعالجون داخل المستشفيات أعلى ممن يبقون خارجها. في حرب القرم -حيث تميّزت نايتينجيل لاحقاً- لم يمت إلا ألفٌ وثمانمئة جنديّ بسبب جروح المعارك، بينما الوفيات الكليّة قاربت مئة ألف جنديّ. مات أكثر من ستة عشر ألفاً من المرض، وثلاثون ألفاً آخرون منعتهم إصاباتهم من إكمال الخدمة. وكانت الظروف فظيعةً حتى في زمن السلم، فالتطوّع بحدِّ ذاته كان خطراً على الحياة. قالت فلورنس مرة للمسؤولين:

«من الأجدى أن تأخذوا 1100 رجلٍ كلّ عام إلى سهل ساليزبيري وتطلقوا النار عليهم».

ولكن على الرغم من فداحة الأزمة، وسرعة تراكم جثث القتلى... إلا أن الخوف كان أكبر.

كان عليها العناية بالأواني الخزفيّة، كما يقول ستراتشي، وكان والدها يتوقّع منها أن تقرأ له. ومن ثم فهي بحاجة إلى العثور على شخصٍ تتزوّجه. وكانت هنالك نميمة يجب مناقشتها. لم يكن هنالك شيءٌ بالإمكان فعله، وهذا بالضبط كلُّ ما كان مسموحاً لامرأةٍ ميسورةٍ أن تفعله: لا شيء.

وتحت هذه الضغوط اليوميّة التافهة تجاهلت فلورنس النداء، إذْ خافت من تركه يتطفَّل على متطلّبات المجتمع الراقي. صحيحٌ أنها كانت تساعد الجارَ إذا مرض أحياناً، وأنها قرأت كتباً، والتقت أناساً مثيرين للاهتمام مثل د. إليزابيث بلاكويل، وهي أول امرأة طبيبة. ولكنها حين عُرضت عليها في عمر الخامسة والعشرين، فرصة التطوّع في مستشفى ساليزبيري سمحت لأمها أن تقمع الفكرة. عملٌ في مستشفى؟! من الأهون أن تعمل في الدعارة!

وبعد ثماني سنوات من الإنكار أتاها نداءٌ آخر. وسأل الصوت بنبرةٍ أقوى هذه المرة: هل سوف تسمحين للسمعة بأن تمنعك من الخدمة؟ كان هذا خوفها بالضبط: ما الذي سيظنّه الناس؟ أستتمكّن من أن تقطع إرث العائلة التي تريدُ إبقاءها قريبةً منها؟ أن تنتقل من سيّدةٍ ثريّة إلى مُمرِّضة؟ هل تستطيع أن تعمل في مهنةٍ تكاد لا تعلم شيئاً عنها، بل هي مهنةٌ بالكاد كانت موجودةً في القرن التاسع عشر؟ هل تقدر أن تفعل ما لا يفترض بالنساء أن يفعلنه؟ أتقدر أن تنجح في ذلك؟

كان ذلك خوفاً قويّاً، وهو ذاته الذي يصيب كلَّ إنسانٍ يتفكّر في اجتياز مساحاتٍ جديدةٍ في تجربته: عندما يتأمّل المرء في إمكانية قلب حياته رأساً على عقب ليفعل شيئاً جديداً أو مختلفاً. عندما يقول لك الجميع إنّك ستخفق، وإنّك على خطأ... كيف لك ألا تنصت إليهم؟ إنه تناقضٌ رهيبٌ: لا بدَّ أن تكون مجنوناً كي ترفض الاستماع إليهم عندما يخبرونك بأنك مجنون.

وماذا عندما يحاولون إشعارك بالذنب؟ عندما يحاولون معاقبتك؟ عندما تخشى من تخييب آمال الناس فيك؟ هذا هو الذي واجهته نايتينجيل: أهلٌ يعتبرون طموحها حكماً بالإدانة على قلّة طموحهم هم. أخذت أمها تبكي قائلة: إنّها تخطّط لـ«جلب العار على نفسها»، بينما ثار أبوها غضباً قائلاً إنها مدللةٌ وعديمة الامتنان.

صارت هذه الكذباتُ المؤلمةُ قناعاتٍ داخليّةً لدى فلورنس. في مرّة من المرَّات تجرَّأت فلورنس على سؤال الدكتور صامويل جيردلي هاوي، وهو طبيبٌ، وزوج جوليا وارد هاوي، وهي مؤلفة قصيدة «Battle Hymn of the Republic»... تجرأت فسألته: دكتور هاوي، أتظنّ أنّه غير ملائم وغير لائق لسيدة إنجليزية أن تكرّس نفسها للأعمال الخيريّة في المستشفيات؟ أتظنّه شيئاً فظيعاً؟ لقد كان سؤالها محمّلاً بالكثير من الافتراضات: «غير ملائم. غير لائق. فظيع».

كانت فلورنس ممزقةً بين الأمرين: هل تودُّ الحصول على الإذن لملاحقة حلمها أم الإذن للتخلّي عنه وتركه؟ أجابها هاوي: «آنستي العزيزة، سيكون ذلك غير معتادٍ، وفي إنجلترا كلّ ما يعتبر غير معتاد يعتبر في العادة أيضاً غير ملائم. ولكنني أقول لك انطلقي نحو الأمام. إذا كانت عندك قناعةٌ بأسلوب الحياة هذا، فاتّبعي إلهامك وسوف تجدين أنّ أداء واجبك نحو خير البشر لا يحمل أيّ وجهٍ غير لائقٍ أو عديم الأنوثة».

ولكن ذلك الخوف ممّا هو غير معتادٍ، من المزيد من الإحساس بالذنب، والمزيد من التهديدات، بقي مرافقاً لها. وكلّه مُصمّمٌ كي يبقيها في المنزل، كي يبقيها ضمن الحدود. وكما العادة في مثل هذه الحالات، فقد نجح الأمر، على الرغم من أنها تلقّت تشجيعاً من شخص تحترمه وتقدِّره.

كتبت فلورنس في مذكراتها «أيُّ قاتلةٍ أكون إذا أقلقتُ سعادتهم، ومن أنا حتى لا تكون حياتُهم جيّدةً كفايةً بالنسبة إليّ؟». أما عائلتها فصارت بالكاد تتحدّث إليها، فتروي: «عاملوني وكأنني عدت بعد ارتكاب جريمة». وطوال سنواتٍ وسنواتٍ، نجحت هذه التكتيكات. كتبت مؤلفة سيرتها الذاتية سيسيل وودهام-سميث: «لقد امتلكت القدرة على فرض نفسها، ولكنها لم تفرضها. تلك الأغلال التي قيّدتها لم تكن إلا قشّاً، ولكنها لم تستطع أن تكسرها».

ليست نايتينجيل استثناءً، لا في أربعينيات القرن التاسع عشر ولا اليوم. ما الذي يتبع غالباً ما يُطلق عليه رحلة البطل، أو «نداء المغامرة»؟ رفضُ النداء. لأن الأمر صعبٌ جدّاً ومخيفٌ جدّاً، ولأنّ الإنسان يشعر بأنّهم لا بدَّ «قد اختاروا الشخص الخطأ». تلك هي الحوارية التي عاشتها نايتينجيل مع نفسها، طوال ستة عشر عاماً.

الخوف يفعل هذا. إنه يحجبنا عن قدرنا. يجمّدنا. ويقدم لنا مليون سبب للرفض. أو للقبول.

«ما أقلّ ما يمكن فعله تحت تأثير الخوف»، كذلك كتبت نايتينجيل لاحقاً، والقسم الأكبر من العقود الثلاثة الأولى من حياتها دليلٌ على ذلك. ولكنها كانت تعلم أيضاً أنها شهدت زمناً قصيراً لم تكن خلاله خائفةً، وهي الآن بحاجة مجدّداً لأن تستغلَّ تلك القوّةَ في داخلها، وأن تتحرّر وتنطلق بمفردها، وأن تقبل النداء الذي وصل إلى مسمعها.

لقد كانت قفزةً مرعبةً. أن تمضي بعيداً عن حياة سهلة. وأن تخالف الأعراف علناً. وجوقة الشكوك والمطالبات. من المؤكّد أن ذلك عوّقها، إنه يعوّق أكثرنا. لكن نايتينجيل لم تتوقّف عند هذا الحدّ. وبعد أسبوعين قفزت إلى المبادرة.

«يجب ألا أتوقّع أيّ تعاطفٍ أو مساعدة منهم»، كذلك كتبت عن قرارها في التحرُّر، وأكملت: «يجب أن آخذ بعض الأشياء القليلة كي أتمكّن من الحياة. لا بدَّ من أن آخذها، فهي لن تُعطى لي».

في غضون عام، كانت منخرطةً في تأسيس مستشفى ميدانيّ للجنود الجرحى في القرم. كانت الظروف مريعةً: الرجال يموتون في صالات المباني وعلى أرضيات السفن بسبب قلّة الأسرّة. الجرذان تسرق الطعام من صحونهم. ويتجمّع المرضى متعانقين في غرفٍ متجمّدة من دون ملابس، فيقضي بعضهم آخر لحظاته على الأرض عارياً تماماً. لم تكن حصصهم الغذائيّة لائقةً. والأطباء الذين يعالجونهم تعوزهم الكفاءة. هذه الظروف تمثّل كلَّ شيءٍ حاول والداها أن يمنعاها من تلطيخ حياتها بها. وهي ظروفٌ تكفي لجعل أشجع العاملين في الدفاع المدنيّ يهربون خوفاً.

تقول شارحةً: «لقد تعرّفت سابقاً، وعن كثب، على المساكن الموجودة في أسوأ أحياء مدن أوروبا الكبرى، إلا أنّني لم أشهد أيّ جوٍّ يُقارن بمستشفى باراك في الليل». كان الخوف قد زال حينها، وحلّت محلّه عزيمةٌ فولاذيّةٌ، فأقدمتْ فلورنس على تمويل الإصلاحات من مالها الخاص وانطلقت في العمل.

عبَّر هنري وادزورث لونغفيلو عن صورتها البطوليّة بشكلٍ مثاليٍّ في إحدى قصائده، مقارناً بين الدهاليز المتهالكة الحزينة في المستشفى وصورة فلورنس نايتينجيل متنقّلةً من غرفة إلى غرفة، حاملةً مصباحاً وابتسامتها المتفائلة.

فوق سجلّات إنجلترا، وعلى الامتداد الواسع

لما تلا خطابها ونشيدها،

سيلقي ذاك النور بأشعّته

عبر بوّابات الماضي.

ستقف سيدةٌ وفي يدها مصباحٌ

في تاريخ البلاد العظيم،

نوعٌ نبيلٌ من الخير،

أنوثةٌ بطوليّة.

بطوليَّة. نقطة انتهى. ولعلّ ذلك ما كان ممكناً إلا لأنّها تحلّت بما يكفي من الشجاعة للتغلّب على مخاوفها القويّة رغم ابتذالها.

هذا العمل الذي أدّته في القرم تحت القصف والخطر الشديد (حيث أصيبت بحمّى القرم «داء البروسيلات»، الذي عذَّبها طوال سنوات عمرها)، هو ما ألْهَمَ تأسيس الصليب الأحمر. وابتكاراتُها المجدّدة، وعملُها الرائد لاحقاً في مَنْهَجَة العناية بالمرضى والضعفاء ما زالت جميعها تقدّم الفائدة لكلّ من دخل أيّ مستشفى في الأعوام المئة والثمانين الأخيرة منذ أن خرجت عن الطريق الذي حاول الكثيرون أن يرعبوها كي تبقى فيه.

بكت أمها حين أكّدت ابنتها على موقفها، وقالت: «إننا بطاتٌ وُلدت لنا بجعةٌ متوحّشة». تخيّل أن تبكي لأن ابنتك شخصٌ مميّزٌ. تخيّل أن تكبر في بيت يحدث فيه ذلك. وكما كتب ستراتشي، فإن والدة نايتينجيل كانت على خطأ، فابنتها ليست بجعةً، بل وُلِدت نسراً، وقد قضت وقتاً طويلاً في العشّ تنمو وتكبر، ولكن ما إن حلّقت خارجه حتى أصبحت بلا أيِّ خوف.

ما علينا فعله في هذه الحياة يأتي من مكان أبعد منّا، أكبر منّا. كلّنا نتلقّى نداءً كي نصبح شيئاً. ونُنتقى. يتمّ اختيارنا... ولكن هل سنختار قبول النداء؟ أم أننا سنهرب؟

هذا نداؤنا.

يمكننا أن ننظر إلى قصة نايتينجيل من منظورٍ أنها قضت سنواتٍ تتجاهل نداءها. لكن يمكننا أيضاً أن نرى أنها كانت تُحضِّر نفسها لمهمّتها في الحياة. لقد تطلّبَ الأمرُ منها زمناً كي تبصر عبر الضباب والضوضاء في عائلتها ومجتمعها، حيث كلّ شيءٍ يحاول ثنيها عن فعل ما يلزم فعله. تطلَّبَ الأمرُ وقتاً كي تتمكّن من المهارات التي احتاجت إليها لتطوير مهنة التمريض.

وبصرف النظر عن الزاوية التي ننظر منها، فإن الخوف -والانتصار عليه- هو المعركة الحاسمة في وجودها. وكذلك الأمر تماماً في حياة أي إنسان غيَّر العالم. لا يوجد شيءٌ جديرٌ بالفعل وغير مخيفٍ. لا يوجد أحدٌ وصل إلى العَظَمَة من دون أن يصارعَ شكوكَه وقلقه ومحدوديّته وشياطينه.

وكما تبيّن لاحقاً، كانت هذه التجربة تكوينيّة في حياة نايتينجيل. وعندما ألقت بنفسها أخيراً في معمعان إنشاء المستشفيات وإصلاح أنظمة الصحّة البريطانيّة العسكريّة والمدنيّة، واجهتْ معارضةً لا تُصدَّق، فمن البيروقراطية إلى الموارد والمناخ، إلى القوى السياسيّة. لقد اضطُرت لأن تكون أكثر من مجرد ملاك رحمة في عنبر للمرضى: فصارت أمينة صندوق، ووزيرةً في حكومة الظلّ، وناشطةً في الضغط على صُنّاع القرار، وفاضحةً للممارسات غير العادلة، وإداريةً. لم يكن عملها ممكناً لولا قدرتها على الوقوف بإصرارٍ في وجه هذه المعارضة المرعبة التي لا تكلُّ ولا تملُّ، وعلى خوض معركةٍ صبورةٍ ومثابرة ضد أولئك الذين أرادوا منعها.

ما عاد أحدٌ قادرٌ على إخافتها، أو على التنمّر عليها.

تقول في رسالة تتحدّى فيها وزير الحرب في بريطانيا: «رسالتك مكتوبةٌ في ’بيلجراف سكوير‘، وأنا أكتب من كوخٍ في القرم. إنّا نرى الأمور من مواقعَ مختلفةٍ». هذا كلام المرأة ذاتها التي كانت قبل بضعة أشهر وحسب خائفةً من أن تُخيِّبَ آمال أمِّها الهيستيريّة. غدت تجيب بحزمٍ وهدوء إذا قال لها طبيبٌ (أو أيُّ أحدٍ) إن شيئاً ما لا يمكن فعله: «لكن لا بدّ من فعله». أما إذا لم يتحقّق ما أرادت، كما حدث مرّةً على سبيل المثال في مستشفى عملت فيه حيثُ رفض المستشفى قبول المرضى الكاثوليك واليهود، كانت تهدّد بالاستقالة. فتصل الرسالة.

ساعدتها تجربتها مع الخوف في أن تتعاطف وتحبّ آلاف المرضى الجرحى، ومن هم على فراش الموت أيضاً، ممّن اعتنت بهم. كتبت نايتينجيل: «التخوُّف، وانعدامُ اليقين، والانتظارِ، والتوقُّع، والخوف من المفاجأة، كلّها تؤذي المريضَ

أكثر من أي إجهاد. تَذكّرْ أنه يقف باستمرار وجهاً إلى وجه مع عدوّ، ويتصارع معه داخليّاً، ويعيش جدالاتٍ عقليةً خياليةً طويلةً مع هذا العدوّ». إن هذه معركةٌ تعرفها نايتينجيل عن تجربة، وهي معركةٌ تستطيع أن تساعد المرضى في الانتصار فيها.

اليوم كلٌّ منّا يتلقّى نداءه الخاصّ.

إلى الخدمة.

إلى المخاطرة.

إلى تحدّي الأعراف القائمة.

أن نسعى إلى الشيء بدلاً من أن نسعى بعيداً عنه.

أن نرتقي فوق المُتوقَّعِ منّا.

أن نفعل ما يقول الناس إنّه مستحيلٌ.

وسوف نجد الكثير من الأسباب التي تجعلنا نشعر أن هذا شيءٌ خطأٌ. وسنتعرض لضغطٍ عملاقٍ كي نتخلّى عن هذه الأفكار والأحلام، عن هذه الحاجة، ونخرجها من عقلنا. وعلى حسب موقعنا وما نسعى إلى فعله، فإن المعارضة التي سنواجهها ستراوح بين التحفيز البسيط... وبين العنف المباشر.

الخوف سيشعرك بنفسه. تلك عادته دوماً.

هل سنسمح له بأن يمنعنا من إجابة النداء؟ هل سنترك الهاتف يرنّ؟

أم هل سوف نقترب شيئاً فشيئاً، كما فعلت نايتينجيل، ونَتحصَّنُ بالشجاعة، ونحضِّرُ أنفسنا حتى نصير جاهزين لفعل الشيء الذي وجدنا لفعله؟

المهمُّ ألا يصيبنا الخوف

أصبح من السهل أن نخاف. خصوصاً مؤخّرا.

فالأحداث قد تتصاعد في أيّ لحظة. ونعيش في انعدام يقين. قد تخسر عملك، ومن ثَمَّ تخسر منزلك وسيارتك، بل قد يحدث شيءٌ ما لأطفالك.

طبعاً سنشعر بشيءٍ ما عندما تكون الأمور مهتزَّةً هكذا، وكيف لا؟

حتى الرواقيّين القدامى الذين يفترض أنهم تمكّنوا من السيطرة على كلّ المشاعر يعترفون بأنّ ردّات الفعلِ غيرَ الطوعية أمرٌ محتّم الحدوث، تجاه الأصوات العالية مثلاً، أو انعدام اليقين، أو عندما نُهاجَم.

وقد استعملوا كلمةً خاصّةً لهذه الانطباعات المباشرة غير الفكريّة عن الأشياء: phantasiai. واعتبروها أشياء لا يمكن الوثوق بها.

أتعلم ما هي العبارة الأكثر تكراراً في الكتاب المقدّس؟ إنها «لا تخف». تتكرّر هذه العبارة مجدّداً ومجدّداً، وهي بمثابة تحذيرٍ من السماء بأن لا ندع الـphantasiai تسيطر علينا.

نقرأ في سفر يشوع: «تشدّدْ وتَشجّعْ» و«لاَ تَرْهَبْ وَلاَ تَرْتَعِبْ». وفي سفر التثنية نقرأ: «إِذَا خَرَجْتَ لِلْحَرْبِ عَلَى عَدُوِّكَ وَرَأَيْتَ خَيْلًا وَمَرَاكِبَ، قَوْمًا أَكْثَرَ مِنْكَ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُمْ». وفي سفر الأمثال: «لاَ تَخْشَ مِنْ خَوْفٍ بَاغِتٍ، وَلاَ مِنْ خَرَابِ الأَشْرَارِ إِذَا جَاءَ». وفي التثنية مجدداً يتكرّر المعنى الموجود في سفر يشوع عندما ينادي موسى على يشوع ليرسله إلى إسرائيل، فيقول له: «تَشَدَّدْ وَتَشَجَّعْ، لأَنَّكَ أَنْتَ تَدْخُلُ مَعَ هذَا الشَّعْبِ الأَرْضَ الَّتِي أَقْسَمَ الرَّبُّ لآبَائِهِمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا، وَأَنْتَ تَقْسِمُهَا لَهُمْ... لاَ تَخَفْ وَلاَ تَرْتَعِبْ»[5].

لم يَلُمْ الرواقيّون أو المسيحيّون الناسَ على ردّات فعلهم العاطفيّة، بل اهتمّوا وحسب بما يفعله المرء بعد أن يزول عنك وهجُ ذلك الشعور.

كما عبّر وليام فولكنر: «ارتعبْ، ليس ذلك بيدك، ولكن لا تكن خائفاً».

إنه تمييزٌ جوهريٌّ، فالرعب اندفاعٌ مؤقّتٌ في المشاعر، وذاك شيءٌ يُغتفر، أما الخوفُ فهو حالة من الوجود، والسماح له بأن يتمكّن منّا شيءٌ مشين.

الأولُ يساعدك، يجعلك متنبِّهاً، يوقظك من الغفلة، يُعْلِمُكَ بالخطر، بينما الثاني يجرُّكَ نحو الأسفل، ويُضعِفك، بل يَشلُّك.

في عالَمٍ منعدم اليقين، في زمن المشكلات المعقّدة المربكة... الخوفُ يعوّقك. الخوف يقيدّك.

من المقبول أن نرتعب، ومن لا يحدث له ذلك؟ ولكن ليس من المقبول أن نترك الرعب يوقفنا.

إحدى الصلوات باللغة العبريّة تعود إلى أوائل القرن التاسع عشر وتقول: «العالم جسرٌ ضيّقٌ، والشيء المهم ألا تكون خائفاً».

כל העולם כולו גשר צר מאוד והעיקר לא לפחד כלל

الحكمة في هذا التعبير مَكَّنَت الشعب اليهوديَّ من الاستمرار عبر صعوبات جمّة وتراجيديات فظيعة، حتى إنّ الصلاة تحوّلت إلى أغنية شعبيّة جرى بثّها للجنود والمواطنين سوياً خلال حرب 1973. إنها تذكيرٌ: أجل الأمور صعبةٌ وخطرةٌ، ومن السهل أن تخاف إذا نظرت إلى الأسفل بدلاً من الأمام. الخوف لن يساعدك.

لم يساعد أحداً يوماً.

عندما انهارت الأسواق في أكتوبر من عام 1929، واجهت أميركا أزمةً اقتصاديّةً كارثيّةً دامت عشر سنوات. انهارت البنوك. أفلس المستثمرون. ووصلت نسبة البطالة إلى 20%.

وجاء فرانكلين ديلانو روزفيلت خلفاً لرئيسٍ جرّب أن يخفّف من المشكلة وأخفق على مدى ثلاثة أعوام ونصف العام. هل ارتعب؟ هذا مؤكّد. وكيف لا؟ الجميع كان يعيش في رعب.

ولكن مشورته التي قدّمها في خطاب تسلّمِه الرئاسة عام 1933 (والذي صار خطاباً أسطوريّاً) كانت: إن الخوف خيار. الخوف هو العدوُّ الحقيقيُّ. لأنّه لن يجعلَ الحالَ إلا أسوأ. سوف يدمِّرُ ما تبقّى من البنوك، وسوف يؤلّبُ الناس بعضهم على بعض، وسوف يمنعُ تطبيق الحلول التعاونيّة.

من ذا الذي يؤدي عملاً جيداً وهو خائف؟ من يستطيع أن يرى بوضوح وهو خائف؟ من يستطيع مساعدة الآخرين؟ كيف تقدر أن تحبَّ إذا كنت خائفاً؟ بل كيف تستطيع فعل أيِّ شيءٍ إذا كنت خائفاً؟

إن اللاعب لا يستطيع أن يتلقَّفَ الكرة إذا كان سيرتعد متوقِّعاً صدمتها. الفنّان لا يقدر أن يقدّم أداءه إذا كان يرتجف أمام أقلام النقّاد الحادّة. نادراً ما يختارُ السياسيُّ القرارَ الصحيح إذا كان قلقاً من عواقب استطلاعات الرأي. ولا يمكن لأيّ عائلةٍ أن تنشأ إذا كان المُحبَّان لا يفكران إلا في صعوبة العقبات أمامهما.

لا مكان للخوف. لا متّسع له مع ما نريد فعله.

هذه الحياة التي نعيشها -هذا العالَمُ الذي نسكنه- مكانٌ مرعبٌ. وإذا أخذت تحدِّقُ من جانب الجسر الضيّق نحو الأسفل فإنك ستفقدُ عزيمة الاستمرار. سوف تتجمّد. سوف تجلس. لن تختار قراراتٍ جيدةً. لن ترى أو تفكر بوضوح.

الشيء المهم ألا تكون خائفاً.

نهزم الخوف بالمنطق

في يوم من الأيام، وجد السياسيُّ الأثينيُّ بيركليز جنوده وقد شلَّهم الخوف من عاصفة، فهي في تقاليدهم نذيرُ شؤمٍ. قد يبدو ذلك سخيفاً، ولكن كيف ستشعر أنتَ لو كنتَ تعيشُ في زمنٍ لا يعرف فيه الناسُ أيَّ شيءٍ عن الرَّعد وأسباب حدوثه؟

لم يكن بيركليز قادراً على شرح ما يحدث بالحقائق العلميّة الكاملة، ولكنه اقترب من فهم الموضوع: أمسك بحجرين كبيرين، وجمع جنوده حوله، وبدأ يطرق الحجرين أحدهما بالآخر. بوم! بوم! بوم!

ثم قال لهم: ما ظنُّكُم بالرعد؟ إنه ليس إلا غيوماً ترتطم بعضها ببعض هكذا؟

يُقالُ إن القادة باعةُ أملٍ، ولكنهم بمعنى عمليٍّ أكثر: قَتَلةُ الخوف.

«الأدلة الخاطئة التي تبدو حقيقيّةً» (False Evidence Appearing Real): في حلقات دعم المدمنين، وعندما يحاولون تهدئة المخاوف التي تتربَّص بالمدمن وتمنعه من تغيير حياته أو تجريب أشياء جديدةٍ، يطلقون على هذه المخاوف تسمية (F.E.A.R): الأدلة الخاطئة التي تبدو لنا حقيقيّةً.

وما نحتاجه نحن هو أن نستكشف انطباعاتنا، ونكشفها للآخرين. علينا أن نفكّكها منطقيّاً كما فعل بيركليز، فنتوجّه إلى جذرها، ونفهمه، ونفسّره.

في حادثةٍ أخرى، عصفَ الوباءُ بأثينا، وتجهَّزَ بيركليز مع البحريّة كي يتّجه إلى حرب العدوّ، ولكن فجأةً، وفي أثناء مغادرة جنوده وصعوده على سفينته، حصل كسوفٌ حَجَبَ الشمس.

سرعان ما استشرى الخوفُ بين الرجال الذين اعتبروا هذه المفاجأة نذير شؤمٍ خطيرٍ. لم يحْتجْ بيركليز إلى خطابٍ عظيم كي يُلهمَ رجالَه توحيدَ

الصفوف، بل استعملَ القليل من المنطق. مشى نحو الرجل الذي يتولّى دفّة السفينة، ورمى بعباءةٍ على الرجل فغطَّتُه.

ثم قال: «ما الفرق بين ما حدث وبين هذا سوى أن شيئاً أكبر من العباءة هو الذي تسبّب بالظلام؟».

الحياة ما زالت عسيرة على التوقّع، وهنالك الكثير مما لا نعرفه، ولذلك فإننا طبعاً نقلق بسهولة، ولا غرابة في أنّنا تحت رحمة مخاوفنا وشكوكنا.

والطريق الوحيد للعبور هو مهاجمة الخوف. منطقيّاً. بشكلٍ واضح، وبقدرٍ من التعاطف.

والشجاعةُ -كما قال بيركليز لمواطنيه الأثينيين عندما تراكمت الخسارات من الحرب والوباء- هي القدرةُ على فعل ذلك. لا بدّ أن يكونوا هادئين وعقلانيّين وواضحين، ولا بدّ من تفكيك ما يمثلُ أمامنا. كما قال لهم: تعلَّموا «معنى ما هو حلوٌ في الحياة وما هو فظيعٌ، ومن ثَمَّ انطلقوا، بلا تردُّد، وواجهوا ما يقف في طريقكم».

إن الجزء من دماغك الذي يرى الأسوأ، الذي يستخلص السيناريو الأكثر جنوناً، ودوماً ما يشعرك بعجزك عن التعامل معه.... هذا ليس بصديقٍ لك، وليس هو الحقيقة. ذلك الصوت الذي يراهن ضدّك؟ ذلك الميل إلى المبالغة في كارثيّة كلِّ شيء؟ ليس هذا بمفيد، فهو لا يقدِّم لك صورةً دقيقةً عن العالم، ومن المؤكّد أنّه لا يجعلك أشجع!

قُلْ لنفسك: إنه مجردُ مالٍ. إنها مجردُ مقالةٍ سيّئةٍ. إنه مجردُ لقاءٍ مع أناسٍ يصرخون في وجه بعضهم بعضاً. هل ذلك حقّاً شيءٌ يستأهل الخوف منه؟

قم بتفكيكه وانظر إلى الوقائع، وتحقَّقْ.

عندها فقط تستطيع أن ترى.

هذا ما عبّر عنه ماركوس أوريليوس عندما قال: «عندها لن ترى ما يراه عدوُّك ويريدك أن تراه، بل سترى ما هو موجودٌ في الحقيقة».

هذا هو العدوّ

إن جذر معظم الخوف هو ما يظنّه الناس فينا. إنّه يشلُّنا. يلوينا. يشوهّ نسيجَ واقعنا في حدِّ ذاته، يجعلنا نتصرَّف بطرق بالغة الجنون والجبن بحيث يصعب حتى وصفها.

قال سيريل كولوني مازحاً: «كثيرٌ من الناس لا يجرؤون على قتل أنفسهم خوفاً مما سيقوله الجيران». إنّنا نكترث بما يظنّه الآخرون حدَّ أنّنا نخشاهم حتى عندما لا نكون قادرين على سماع ما سيقولونه عنّا.

والتناقض هنا طبعاً هو أنّ كلَّ جديدٍ، وكلّ أمرٍ مدهش، وكلّ شيءٍ صحيحٍ، تمّ على الرغم من الاعتراضات الشديدة اللهجة لأنصار الوضع الراهن. معظم ما هو محبوبٌ الآن كان يُنظر إليه شزراً وقت تشكُّله أو تبنّيه، وذلك من قِبل أناسٍ يدّعون الآن أنّ ذلك لم يحدث قط... كثيراً ما تنقصنا القدرة أو الإرادة على رؤية أن اعتراضاتهم ليست إلا «مطبّاً» علينا أن نعبر فوقه.

عندما فضح فرانك سيربيكو فساد شرطة نيويورك في السبعينات، قام شرطيٌّ صادقٌ آخر بتهنئته. ولكن سيربيكو سأله: لماذا لم تقف إلى جانبي؟ لماذا لم ترفع صوتك عندما احتجت إلى المساعدة؟ فأجابه الرجل: «ماذا؟! هل تريدني أن أصبح منبوذاً مثلك؟».

أجل طبعاً! إذْ ما هو البديل؟ أن تسمح لزملائك بابتزاز الناس ذاتهم الذين يُفترضُ أنهم يحمونهم؟ أن تسمح لهم بالتآمر مع المجرمين الذين يُفترضُ أن يحموا الناس منهم؟

يفضّل الناس التواطؤ مع الجريمة على رفع صوتهم بفضحها. يفضّلون الموت في وباء بدلاً من أن يكونوا الشخص الوحيد الذي يضع كمامةً على وجهه. يفضّل الناس متابعة عملٍ يكرهونه على شرح أسباب استقالتهم منه لفعل شيءٍ أقلّ يقيناً. يفضّلون اتّباع موضةٍ سخيفة بدلاً من التشكيك في فائدتها؛ خسارة مدّخرات حياتهم في فقاعةٍ اقتصاديّة على وشك الانفجار أقلُّ ألماً بشكلٍ ما من ظهورهم بمظهر الغبيّ الجالس جانباً بينما تتضخَّم الفقاعة. إنهم يفضّلون التماشي مع شيء سيلوِّثُ إرثهم بدلاً من أن يرفعوا صوتهم ولو قليلاً ويغامروا في اتّخاذ موقفٍ وحيدٍ أو مختلفٍ ولو حتى لمدّة عشر دقائق.

كم يجدر بنا أن نتذكّر التقريع الذي لاقاه سيسيرو، الذي كان محطّ سخريةٍ لكونه محدثَ نعمةٍ، ولسعيه الصادق وحبّه للغة المنمّقة، بحيث بات الناس دائماً يتحدثون عنه في غيابه وينظرون إليه دونيّاً. قال: «دع الآخرين يقلقون بخصوص ما يقولونه عنك، فهم من سيقولونه على أي حال»[6].

لا يمكنك السماح للخوف بأن يسيطر، لأنّه لم يوجد في يوم من الأيام شخص ذو قيمةٍ لم يُثِر حنق الناس. لم يحدث أيّ تغيير من دون أن يلاقي شكوكاً. لا توجد في التاريخ حركةٌ لم تلقَ سخرية. لم تنطلق أيّ تجارةٍ مبتكرةٍ من دون توقّعات شديدة اللهجة بإخفاقها.

ولمّا يأتِ زمنٌ، حتى اليوم، توجّب فيه إعطاء رأي الغرباء الذين لا نألف وجوههم، أولئك الذين لا يمكن مساءلتهم، قيمةً أكبر من حكمنا المتأنّي الخاص.

يبدون دائماً أكثر عدداً قبل أن تَعُدَّهم

في وقت مبكِّر من مسيرته العسكريّة، كان يوليسيس إس. جرانت في رحلةٍ طويلةٍ عبر شرق تكساس حين بدأت المؤن والذخائر تنفد، ومرض أحد رجاله، ومات أحد الأحصنة.

هناك، في الأرض الخطرة، تحت رحمة الهنود والخارجين عن القانون وعوامل الطقس، احتاج إلى قطع مسافة سبعين ميلاً نحو مدينة كوربوس كريستي كي يتجنَّب إعلانَ غيابه من دون إذن، فانطلق جرانت ورجل آخر وحدهما، على عجلة وتحت جناح الخطر، وأمامهما عددٌ هائلٌ من الجداول والأنهار لا مفرَّ من قطعها في منطقة معادية تعجُّ بالنباتات الكثيفة والأفاعي المجلجلة.

أجل، نسيت، كان هناك ذئابٌ أيضاً، فقد سمع الرجلان «عواء ذئاب فظيعاً وكأنه من عالَمٍ آخر». ما كان بالإمكان رؤية أيِّ شيءٍ عبر عشب البراري الطويل، إلا أنّ قطيع الذئاب كان قريباً من دون شك. قريباً، ولئيماً، ومستعدّاً، على حدّ تعبير جرانت، «لالتهامنا وأحصنتنا جميعاً في وجبةٍ واحدةٍ». أراد أن يعود أدراجه، بل في الحقيقة كان يتمنّى بينه وبين نفسه أن يقترح عليه زميله ذلك، ولم يكن يرغب في أيِّ شيءٍ أكثر من العودة إلى الأمان.

أما الضابط الآخر، وهو أكثر تمرُّساً وخبرةً من جرانت بعضَ الشيء، فقد ابتسم وتابع نحو الأمام، وسأله: «يا جرانت، كم ذئباً تظن في ذلك القطيع؟» لم يرغب جرانت بأن يبدو غبيّاً أو جباناً، فحاول أن يُقلِّلَ من الخطر الذي يُرعبُهما متحدِّثاً بشكلٍ عاديٍّ: «أوه، ربما عشرون»، كذلك قال بلا اكتراث بينما قلبه المتسارع مرسومٌ على وجهه.

وفجأة، وجد جرانت والضابط الآخر مصدر الصوت أمامهما. هناك أمامهما، كان يجلس... ذئبان فقط، بارتياح كامل وعليهما معالمُ الثقة العابثة. لقد أربكه الخطر الغريب عنه إلى درجة أنه لم يخطر له أن يشكّك في تسارع دقّات قلبه الخائف أو تقلّبات عقله.

بعد أربعة عقودٍ من الزمن، وبعد حياة طويلة في الخدمة والسياسة، يحكي جرانت كيف أنَّه بات يتذكَّرُ تلك الحادثة عندما يسمع بأن مجموعة ما تُغيِّرُ مسارها لأنها تتعرَّضُ للنقد، أو عندما يفكّر أحدهم في الاستسلام بسبب

الفرص غير المتكافئة أو عدوّ غير مرئيّ. والدرس في مثل هذه الحالات، كما استخلص جرانت، هو التالي: «إنهم دائماً أكثر عدداً قبل أن تعدّهم».

ليس عدد العقبات والأعداء والنقّاد كبيراً كما تحسب، بل هذا وهمٌ يريدونك أن تُصدِّقه.

وهنالك درسٌ آخرُ أيضاً: ماذا فعل الذئبان برأيك عندما تابع جرانت وزميله طريقهما ولم يلتفتا خوفاً؟ هرب الذئبان.

في عام 1861، كان جرانت مُقَدَّماً في جيش الاتّحاد، ووصلته الأوامر بالتحرُّك ضدَّ جيش الكونفيدرالية الذي يقوده الكولونيل توماس هاريس في ميزوري. وعلى الرغم من أن جرانت قد خاض المعارك من قبل، على الرغم من أنه قد تعلّم شيئاً من الذئبين، إلا أنّه كان خائفاً مرّة أخرى.

كان الريف هادئاً مسافةَ خمسة وعشرين ميلاً. لم يكن هنالك إنسانٌ واحدٌ، وكأن عاصفةً على وشك الهبوب ولا أحد يريد الوقوعَ في مهبّها.

مرّة أخرى، خفق قلب جرانت سريعاً، وارتفع في صدره نحو الأعلى، كما يقول، حتى وصل إلى حلقه. كتب: «كنت مستعدّاً لتقديم أيِّ شيءٍ مقابل أن أجد نفسي قد عدت إلى إلينوي، ولكنّني لم أملك الشجاعة الأخلاقيّة للتوقُّف والتأمّل في اللازم فعله».

في اللحظة ذاتها التي كان فيها أكثر رعباً، عندما شعر أنه لا سبيل على الإطلاق إلى تحمُّلِ الهجوم والقتال وتعريض نفسه لخطر المعركة وذعرها، وَصَلَ إلى قمة تلّةٍ متوقّعاً الاصطدامَ مع العدو.

إلا أنّ العدو قد رحل. لقد هربوا عندما سمعوا أن جرانت وجنوده قادمون لمحاربتهم.

كتب جرانت لاحقاً: «خطر لي فوراً أن هاريس خائفٌ منّي بقدر خوفي منه، وهذه وجهة نظرٍ في المسألة لم تخطر لي من قبل، ولكنّها وجهة نظرٍ لم أنسها بعد ذلك إطلاقاً. ومنذ تلك الحادثة وحتى نهاية الحرب، لم أختبر تخوُّفاً عند مواجهة عدوّ، على الرغم من أنّني كنت أشعر دوماً ببعض القلق. لم أنسَ بعدها إطلاقاً أنّ لدى العدوّ أسباباً تجعله يَهابُ قوَّاتي توازي أسبابي. كان هذا درساً قيّماً».

الليل مظلمٌ ويعجُّ بالأخطار. كما أننا نواجه الكثير من الأعداء في الحياة.

ولكن لا بدّ لك أن تفهم: إنهم ليسوا منيعين كما تتخيّلهم في عقلك.

سواء أكان الخوف الذي تشعر به عندما تتحدث إلى شخصٍ مشهورٍ في حفلة، أو عندما تتحدث مع أطفالك بخصوص الجنس، أو عندما تطلب زيادةً في المرتّب من ربّ عملك: الواقع هو أن الطرفين غير مرتاحين، هذا إن لم يكونا خائفين. التخوُّف مشترك.

إنّك تبالغ في تقديرهم... وإنّهم يبالغون في تقديرك.

أتظنّ أن الذي يُجري مقابلة العمل معك يريد أن يكون في ذاك المكان؟ أو أنَّه يستمتع بسؤالك تلك الأسئلة؟ لا، إنه خائف من الخطأ أيضاً. المديرُ الصارمُ في يومك الأول من العمل، ورقيبُ التدريب الذي يتعامل مع دفعةٍ جديدةٍ من المتطوعين الأغرار، والموظف التنفيذي الذي يفاوض عقد عملك: هالةُ اليقين تلك التي تحيط بهم محضُ وهمٍ. إنّهم متوتّرون بقدر الجميع، وهم أيضاً يدَّعون الثقة.

وعندما تقترب منهم، ستجد أن الفرق بينكما ليس عملاقاً كما كنت تتصوّر.

قليلٌ من الوعي، وقليلٌ من التعاطف... لن يجعلاك إنساناً رخواً، بل سيمنحانك الثقة.

والآن نرى ما هو فعلاً أمامنا. الآن الآخرون كلّهم أكثر خوفاً منّا.

ماذا لو؟

ما نخافه لا نعرفه.

أو لا نعرفه بشكلٍ دقيق، على أيّ حال.

ما نخافه يَلُوحُ لنا عملاقاً يظهر بعيداً في المستقبل. أو يجلس في معدتنا متلوّياً ومتقلّباً، ولكنّه على الرغم من ذلك غامضٌ وبلا تعريف.

إنّنا نخاف من احتمال حدوث شيءٍ سيّئ. نخاف عدم نجاح مخططاتنا. نخاف العواقب. نخاف مما قد يظنّه الناس.

ولكن ماذا، أين، متى، كيف، من؟ تلك أسئلةٌ لا يمكننا الإجابة عنها، لأننا لم نبحث في الأمر حقّاً. إنّنا لم نعرف فعلاً ما هو الشيء الذي يقلقنا. مخاوفنا ليست واضحة المعالم، بل هي ضلالٌ وأوهامٌ وانعكاساتٌ مرّت على ناظرنا في مكانٍ ما بشكل خاطف.

حسنٌ، هذا يجب أن ينتهي. هنا. الآن.

لقد تحدّث رائد الأعمال والكاتب تيم فيريس عن «تحديد الخوف»، أي تعريف الكوابيس والمقلقات والشكوك التي تقيّدنا وتوضيحها. في الحقيقة، ترجع جذور هذه الممارسة في التاريخ إلى الرواقيّين على الأقل. وكتب سينيكا عن premeditatio malorum: التأمُّلُ المتعمّد في الشرور التي قد تواجهنا.

يقول: «النفيُ، الحربُ، التعذيبُ، تحطّمُ السفينة، كلُّ أشكال التجربة الإنسانية قابلةٌ للمرور في تفكيرنا». ليس على هيئة خوف، بل على هيئة معرفةٍ وإلمامٍ. ما هي احتمالية هذه الأشياء؟ ما الذي قد يسبّبها؟ كيف نستطيع أن نحضِّرَ أنفسنا للتعامل معها؟ كما يرى سينيكا، إن الضربات غير المتوقّعة هي الأقوى والأكثر إيلاماً، ولذلك فإننا عبر توقُّعِهَا، عبر تعريفها، عبر التصارع مع ما يمكن أن يحدث، فإننا نجعلها أقلَّ رُعباً وأقلَّ خطورةً في الوقت ذاته.

«افترِضْ أن حقول النفط جفَّت؟» هكذا كان جون دي. روكفيلر يقول لنفسه، وذلك من باب التدريب الذي يقيه من الوقوع في الرضى الخَمول. وهكذا بنى ثروته بالسلوك الجريء خلال فترات الذعر الاقتصاديّ المتكرِّرة في القرن التاسع عشر.

وكان نابوليون يرى أن على القائد أن يسأل نفسه مرّات عدّة في اليوم: «ماذا لو ظهر العدوُّ الآن أمامي أو إلى يميني أو إلى يساري؟». ولنا أنْ نتخيَّل أنَّ الغرض من هذا التدريب ليس جعل الجنرالات أناساً قلقين مُرتبكين، لا، بل هدفه أن يبقوا جاهزين ومتحضّرين.

إلّا أنّنا قلقون زيادة عن اللزوم من «تجربة القدر» أو «ممارسة الطاقة السلبيّة» بحيث إنّنا لا نمارس هذا النوع من القيادة المستعدّة، وذلك على الرغم من أن عمل القائد، في الواقع، هو أنْ يُفكِّرَ في ما لا يخطرُ في البال. منذ أكثر من ألفي عام والقادةُ العسكريّون يستعملون نسخةً ما من الحكمة ذاتها: الإساءةُ الوحيدة التي لا يمكن غفرانها للضابط هي أن يتفاجأ. أن يقول: لم أتوقّع أن ذلك قد يحدث.

كلّنا نحتاج إلى تنمية الشجاعة اللازمة للنظر إلى ما نخاف منه. إنّنا نخاف من التوجّه إلى الغريب الجميل في الغرفة والتحدّث معه. ولكن لماذا؟ ما هي النتائج الممكنة؟ أن نصير مثاراً للضحك؟ أن نُرفَض؟ لا نريدُ أنْ نُعبِّرَ عما في خاطرنا، ولكن لماذا؟ لأننا قد نتعرض للانتقاد؟ لأنّنا -في السيناريو الأسوأ على الإطلاق- ربما نضطر إلى البحث عن عملٍ جديدٍ؟ ولكن ألم نكنْ نُفكِّرُ في ذلك أصلاً؟ لأننا قد نموت أو نُقتَل؟ وهو ذات الشيء الوارد حدوثه كلّما صعدنا على متن طائرةٍ أو عَبَرنا شارعاً؟ وفي كلّ صباحٍ نستيقظُ فيه على هيئة كائن فانٍ هشّ؟

نحتاج أيضاً إلى تنمية الشجاعة اللازمة للتفكير في كل الأشياء القابلة للحدوث، وفي الأشياء التي يزعجنا التفكير فيها، وفي ما هو غير معتادٍ، وغير متوقَّعٍ، وغير مرجَّحٍ. ليس الهدف مجرد تقليل قلقنا بخصوص شكوكٍ مبالغٍ فيها، بل يتعلّق الأمر أيضاً بالعثور على اليقين بين الأشياء غير المعروفة: عوامل الخطر، وصوت الارتطام الغريب في الليل، ومخططات العدوّ، والأشياء السيّئة التي قد تحدث وسوف تحدث.

لا شيء من طبيعة الإنسان يجب أن يكون مستغرَباً لدينا. الشيءُ الممكنُ، أياً كان، ينبغي ألّا يكون غريباً.

لقد لخّص دوجلاس ماكآرثر كلّ إخفاقات الحرب والحياة في كلمتي «متأخرٌ جداً». متأخرٌ في التحضير، متأخرٌ في فهم نوايا العدو، متأخرٌ في تأمين الحلفاء، متأخرٌ في تبادل بطاقات التعريف مع الآخرين، متأخرٌ في الإسراع إلى مساعدة المحتاجين. متأخرٌ جداً في عدم الوصول إلى أيّ شيءٍ محدّدٍ، في عدم العدِّ كما تعلّمنا من جرانت، أو في عدم التحضير لظهور العدوّ كما قال نابوليون.

أتجد ذلك مُحبطاً؟ ربما يكون كذلك. ولكن من الأفضل أن تكون متشائماً ومستعدّاً من العكس. أرسطو نفسه قال إن المتفائلين هم الأكثر عرضة للخطر ، لأنهم «عندما لا تأتي النتائج كما توقّعوا، يهربون».

تبصّر بالأسوأ كي تؤدي الأفضل.

حين يكون الخوف مُعرَّفاً، يمكننا هزيمته. عندما نفهم تفاصيل الجانب السيّئ فإننا نستطيع أن نُقيِّمَهُ مقابلَ الجانب الجيد. حين نعدُّ الذئاب فإنّنا نجدها أقلَّ عدداً. ما نظنّها جبالاً يتبيّن أنّها تلال، والوحوش يتبيّن أنها مجرّد رجال.

عندما نُؤنْسِنُ أعداءنا فإننا نقدرُ على فهمهم بشكلٍ أفضل. ما كنا نحسبه تكلفةً مجنونة يتبيَّنُ أنه مجرّدُ حساباتٍ واضحة، حساباتٍ تستحقّ أن نجربها ونَعْرِفها. يتبيَّنُ لنا أن المخاطر أبعدُ بكثيرٍ من الغنائم. تظهر البجعات السود أمامنا ونستطيع التحضير لها. الهجمات التي نتوقّعها نستطيع التصدّي لها. طيف الاحتمالات يصغر، ومجال قانون مورفي يتضاءل.

الخوف الغامض قادرٌ على ردعنا، فكلما استكشفناه نقصت سلطته علينا. ولذلك لا بد لنا من مهاجمة هذه المنطلقات الخاطئة واقتلاعها من جذورها، فهي كالسرطانات.

كنا خائفين لأننا لم نكن نعلم. وكنا معرَّضين للخطر لأننا لم نكن نعلم.

ولكننا الآن نعلم.

وبذلك الوعي نستطيع الاستمرار.

لا تدع الصعوبات تردعك

جهَّزَ سينيكا نفسه لكلِّ الإمكانيات والصعوبات في الحياة، ولكن من المؤكّد أنه لم يعتبر أنها ستحدث كلّها له.

الحربُ. تحطّمُ السفينة. التعذيبُ. المنفى. كلُّ ذلك... إضافة إلى مرض السلّ. وخسارة طفله. وجنونُ نيرو. وافتراءُ النقّاد.

من جهةٍ، لا بدَّ أنّه شعر بتعاسة تلك الأمور ، ومن الجهة الأخرى: علم سينيكا أن هذه الأشياء هي التي جعلته إنساناً مميّزاً.

يكتبُ: «قد فازَ بلا مجدٍ من فازَ بلا خطرٍ. موكيوس امتُحِن بالنار، فبريكيوس بالفقد، روتيليوس بالمنفى، ريجولوس بالتعذيب، سقراط بالسمِّ، كاتو بالموت. لا يجد المرء مثالاً عظيماً إلا وقد أصابه الابتلاء».

لا تقلق من أن الأمور ستكون صعبةً. لأنها ستكون كذلك.

وبدلاً من القلق، ركِّزْ على حقيقة أنَّ هذه الأشياء سوف تساعدك، ولذلك يجبُ ألّا تخاف منها.

كدماتنا وندوبنا تُصبح درعاً. معاناتنا تصبح خبرة. تجعلنا أناساً أفضلَ. إنها تُحضِّرنا لهذه اللحظة، كما أن هذه اللحظة تُحضِّرنا لتلك التي تأتي في المستقبل. إنها التوابلُ التي تجعل النصر لذيذَ المذاق.

لو كان الأمر سهلاً لفعله الجميع، ولو تمكّن الجميع من فعله، فما قيمته حقاً؟

إن النقطة كلَّها تكمنُ في أنّه صعبٌ. إنَّ الخطر يكمن في ميزات الحياة، وليس في عيوبها.

Nec aspera terrent. لا تتهيّبْ الصعوبات.

كن كالرياضيّ الذي يعرف فائدةَ الجهد المُتعِب: تنمية عضلاتٍ أقوى.

يقولُ مالكوم إكس: «لا يوجد ما هو أفضل من الشِّدة، فكلّ هزيمةٍ، وكلّ انكسارٍ في القلب، وكلُّ خسارةٍ، تحتوي على بذرتها الخاصّة، على درسِها الخاصِّ الذي يعلِّمك تحسينَ أدائك في المرة القادمة».

كيف يمكنُ لك أن تثق بنفسك لولا أنّك مررت بأشياء أصعب من قبل؟ كيف لك أن تأملَ بالقدرة على النجاة من هذه المحنة لولا أنك نجوت من أشياء أخرى قبلها؟

هذه هي الحقيقة الأكثر جنوناً بخصوص المصارعين في حلبةِ الكولوسيوم. أتصدِّقُ أنَّ كثيراً منهم كانوا متطوّعين؟ لقد أرادوا أنْ يروا إن كانوا يملكون ما يلزمُ. كلّنا نحتاج إلى الخصوم والشدائد. يقول شكسبير: «الوفرة والسلام يُولِّدان الجبناء، والصلابة دوماً أمٌ للصلابة».

ليس حدوث ذلك أمراً سيّئاً، بل إنَّهُ تدريبٌ جيّدٌ. وعلاوةً على ذلك، لا يمتلك كل الناس ما يكفي من العزيمةِ لرؤية الأمور بهذه الطريقة.

إنّنا لا نسمّي أزمان «المِحنة» بهذا الاسم من دون سببٍ، فهذه اللحظات تمتحنك.

من الجيّد أنّ ما يحدث معك يحدث الآنَ وليس لاحقاً، لأنّك ستكون قد تحسّنت لاحقاً، بنتيجة ما مررت به اليوم. هل فهمت؟

تظنُّ أنَّ من الأفضل أن تبقى الأمورُ سهلةً، وتتمّنى لو أنّك لا تحتاجُ إلى المخاطرة، ولو أنَّ القفزةَ لا تبدو خطيرةً جدّاً؛ كل ذلك ليس إلا كلام الخوف.

من الجيّد أن تمرَّ بشِدَّة. فالشدائد تردعُ الجبناء وتجتذِبُ الشجعان.

أليس كذلك؟

ركِّزْ على ما هو أمامك

استيقظَ الجنرال ديموستيني في يومٍ من الأيام فوجدَ العدوَّ على وشك مهاجمته من البحر والبرّ معاً.

كان ذلك مربكاً ومخيفاً. لا بدّ أن مشاعر الخوف قد انتابته، هو ورجاله. ولذلك فعلَ الشيءَ الوحيدَ الممكن فعله: انشغلَ في محاولة الدفاع عن نفسه ضدَّ الهجوم.

عندما قادَ رجالَه نحو الماء، ألقى خطاباً يُفيدنا جميعاً عندما نواجه مشكلةً عملاقةً، أو حتى مستحيلةً:

«أيها الجنود والرفاق في هذه المغامرة، أتمنّى ألا يحاول أحدكم في محنتنا الحاليّة أن يُظهر ذكاءه عبر حساب كلِّ الأخطار التي تحيط بنا حساباً دقيقاً، بل تعجّلوا إلى ملاقاة العدوّ من دون التوقّف لاحتساب الفرص، لأن هذه المواجهة تشكّل فرصتكم الأكبر في السلامة. في الحالات الطارئة كحالتنا، لا مكان للحسابات، وكلّما واجهنا الخطر أسرع كان ذلك أفضل».

من الممكن القول إن الخوف هو الشيء الوحيد المشترك بيننا جميعاً. كلُّنا نشعرُ بالقلق والشكِّ والتوتر. الأطفالُ والملوكُ والجنودُ، وحتى الأهل المتفرّغون للاهتمام بأطفالهم، كلُّنا نشعرُ بالخوف الصريح في لحظات بغضّ النظر عن أسباب هذا الخوف، صغيرةً كانت أم كبيرة.

هل يساعدُنا القلق؟ أنْ نُصنِّفَ كل الأخطار والمشكلات؟ أنْ ندع خوفنا يجثم فوقنا؟ لا!

كتب روبرت لويس ستيفنسون: «الحياة بحدِّ ذاتها عملٌ أكثرُ خطورةً بكثير من أن نمنح كل حالة جديدةٍ من الخطر اعتباراً إضافياً». من الأفضل أن تبدأ بالعمل، أن تواجه ما عليك مواجهته عاجلاً قبل آجلٍ.

يقول ماركوس أوريليوس: «لا تدع تأمُّلك لمجال الحياة ككلٍّ يسحقك. لا تملأ عقلك بكل الأشياء السيّئة التي قد تحدث. حافظْ على تركيزك في حالته الرّاهنة واسألْ نفسك لماذا هي غير قابلة للاحتمال أو لا يمكن النجاة منها».

ولكن لمن قال ماركوس أوريليوس ذلك؟

قال ذلك لنفسه. الرجلُ الأقوى والأكثر سلطة في العالم، الذي يحكم امبراطوريةً ضخمةً، ويأمرُ الجيش المرهوبَ في أصقاع الأرض... هو نفسه كان قلقاً وخائفاً.

طبعاً كان خائفاً! وباءٌ. تهديدٌ على الحدود. انقلابٌ في القصر. ابنٌ عنيد. إنها الحياة يعيشها.

بصرف النظر عمّن أنت، فمِنَ المرجَّح أنَّ لديك ما يقلقك، ولكن القلق لا يساعدنا، بل يشتِّتُنا ويجعلنا مهووسين. يقودنا في متاهاتٍ ملتويةٍ من الشكّ وانعدام الأمان، عبر خيالات استنتاجية وتوقّعات بالدمار والقيامة. وكلُّ هذه تكاليفُ إدراكيّةٌ تشغلنا عن المهمَّة الحقيقية أمامنا.

عبّر الشاعر ويلفريد أوين عن ذلك بشكلٍ رائعٍ، فكتبَ من خنادق فرنسا في الحرب العالمية الأولى عام 1916:

يا لسعادة من يخسرون المخيّلةَ:

إذْ يملكون ما يكفي لحمل الذّخيرة.

عندما نحاول تخيُّلَ كلِّ شيءٍ، ونجعل كلَّ تفكيرنا كارثيّاً: نعيش حالتنا الأتعس وخوفنا الأكبر. وعندما نركّزُ على ما نحتاج إلى حملِه وفعلِه؟ ننشغل به بحيث لا نقدرُ على القلق... فنحن مشغولون بالعمل.

أمامك الكثيرُ هنا والآن، ولذلك تحدّث الرواقيون عن الالتزام بما أسموه «الانطباعات الأولى». ما تراهُ وحسب. ما هو هنا. وليس كلّ شيءٍ قد يؤثّرُ في الأمر في يومٍ ما أو قد لا يؤثّرُ.

هذا الاتصالُ الذي عليك القيام به. هذا الإيصالُ الذي عليك توقيعه. هذه المشكلة التي عليك مواجهتها، وهذا التجمّع الكبير من المهمّات التي عليك

استجماع قوّتك لأدائها.

يكفي ذلك. بل يزيد أحياناً على ما نستطيعُ التعاملَ معه.

عندما خرجَ رائدُ الفضاء الكندي كريس هادفيلد من المركبة أولَ مرّة مُرتدياً سترة الفضاء، أُصيبتْ عينُه اليسرى بالعمى. وغرقَتْ عينه اليمنى بالدموع وتجمّدت أيضاً. سقطَ في عَتمةٍ كاملةٍ متدلّياً على حافّة هاويةٍ أكثر عتمةً. في وقتٍ لاحق، علّق كريس قائلاً إنَّ من الجوهريّ في مثل هذه الحالات أن يُذكّر المرء نفسه: «لديَّ ستةُ أشياء يمكنني أنْ أفعلها الآن، وكلٌّ منها يساعدُ في تحسين الأمور». لكنه أضاف أيضاً أنه على الرغم من ذلك: «لا توجد مشكلةٌ سيئة بحيث إنّك لا تستطيعُ جعلها أسوأ». علينا أن نتذكَّرَ أنَّ كلَّ الطاقة التي نُنفقها في الخوف من جعل المشكلة أسوأ هي طاقةٌ لا ننفقها في إيجاد الحلول.

سواءٌ أكانت الأشياء التي يمكنُ فعلها ستةً أم خمسةً... أم ستةً وخمسين... فإن المعنى واحدٌ: ما هو أمامك مباشرةً هو المهمُّ، وكلّما قارَبْتَه أبكرَ كان ذلك أفضلَ، كما قال ديموستيني.

كيف لك أنْ تفعل ذلك إذا كان عقلك في مكانٍ آخر؟ إذا كنت مشغولاً بتأمُّل عواقبِ كذا وكذا؟ إذا كان نصف تفكيرك يُحضِّرُكَ للإخفاق قبل أنْ تبدأ؟ إذا كنت قد ألصقتَ عقلك بكل الأسباب التي تجعل العملَ فكرةً سيئةً؟

الجواب البسيط هو أنك لا تستطيع.

كيف توفِّق بينَ «لا تضع الغد في تفكيرك» وبينَ التحضيرِ عقليّاً لكلّ ما قد يحدث، لكلِّ «ماذا لو؟». يقول سينيكا، وهو الذي ألهَمَ تمرين تحديد الخوف الذي ابتكره تيم فيريس، إننا نفعل ذلك لسببٍ، وإن ذلك السبب ليس القلق.

اجتهد في التفكير في سبل عبور الصعوبات. أوقاتُ الشدِّة يُمكنُ تهوينها، وظروف الضّيقُ يمكن توسيعها والأحمالُ الثقيلةُ يمكنُ تخفيفها... من قِبَل أولئك الذين يجيدون الدفع بالضغط بشكلٍ متوازن.

إنّه توازنٌ صعبٌ، ولكنّك قادرٌ عليه.

لا تشكِّك أبداً في شجاعة الآخر

عندما اضطرَّ جيمس بالدوين إلى تأمُّل موت والده، وهو رجلٌ يحبُّه ويَكرهه في آن، خَطَرَ له أنّه لم يرَ إلا ما أظهره الرجل من الخارج، وأنَّ تحت إخفاقاته كوالدٍ ثمة صراعاً داخليّاً فريداً لا يمكن لأيّ إنسانٍ آخر أن يفهمه على نحوٍ كاملٍ. ولذلك فقد أثَّر فيه قول الواعظ في جنازة والده:

إنّك تعرف سقوط هذا الرجل، ولكنّك لا تعرف صراعه.

من السهل جداً أن نحكم.

من الصعب جداً أن نعلم.

معرفة ما يمرُّ به شخصٌ آخرُ. معرفةُ ما هي أسبابه. أيُّ أخطارٍ متشابكةٍ يحاولُ التعامل معها. من -وماذا- يحاولُ أن يحمي؟

تُحكى قصة عن نيكيتا خروتشوف بعد أن أصبح رئيساً للاتحاد السوفييتي: عندما وقفَ ليخطب مُتحدِّثاً إلى المكتب السياسيّ، واستنكرَ جرائمَ نظام ستالين. فقام أحد أفراد الجمهور بتمرير ملاحظةٍ على ورقةٍ غير موقّعةٍ نحو الأمام تقول: «أجل، ولكنْ أين كنت أنتَ وقتها؟»

لم يستطعْ خروتشوف الإجابةَ بسهولة، فتمهَّلَ قليلاً، ومن ثم أجاب: «لقد كُنتُ حيث أنتَ الآن».

وقد قصد بذلك أنه كان في صفوف الجمهور، شخصاً مجهولَ الاسم، لا يجرؤ على توقيع أفكاره باسمه. لا يفعلُ شيئاً. مثله مثل أيِّ شخصٍ آخر.

لا نعلم ما الذي جعلَ شخصاً ما يَجْبُنُ، وما الذي جعلهُ يُواربُ، أو لماذا عجزَ عن الوصول إلى هدفه. يصعبُ على الناس فهم الأسباب. لسنا على درايةٍ بكامل

جوانب الصِّراع والعبء اللذين أثقلا الآخر فكسرا ظهره. علينا أن نحاول ألا نلوم الناس، لأنّنا غير قادرين بتاتاً على استيعاب تجاربهم بشكلٍ كاملٍ وفعليّ.

ما نعلَمه وندركه هو أنّ الخوفُ يقيّدنا في الكثير من مجالات حياتنا، ويُعمِينا، ويُحطِّمُنا.

والأمرُ معقّدٌ بعض الشيء: فالناس أحياناً يكونون جريئين وجسورين في أحد جوانب حياتهم، ولكنّهم يُظْهِرون جبناً بالغاً (وأخلاقيّاً في العادة) في جانبٍ آخر من حياتهم. وذلك لأن البشر قادرون على تقسيم تفكيرهم إلى مساحاتٍ مختلفة. فنحن نُعَقْلِنُ الأمور.

هذه المعركة ضدَّ الخوف عملٌ بدوامٍ كامل. ولم يتقنها أحدٌ بعد، بشكلٍ يتيح له رفاهيةَ التفرّغ لمراقبة الآخرين وأدائهم في المعركة في لحظةٍ ما أو أخرى. أفضل ما في وسعنا هو أنْ نتعلّم من أقراننا، ماضياً وحاضراً، وأن نُطبِّق دروسهم في حياتنا.

لو أنّك عشتَ في زمن العبوديّة، أو في عصر الإمبرياليّة، أو أنّك شاهدت صعودَ معاداة الساميّة في أوروبا، أو ولدت في روسيا السوفييتيّة أو في الصين الماويّة، فما الذي كنت ستفعله؟ هل كنت ستقدر على التوجُّه عكس تيارات العصر؟ هل كنت لتتحلّى بما يكفي من الشجاعة لتُفكِّر بشكلٍ مستقلٍّ؟ أكُنت ستقاوم كل الحوافز والأعراف الثقافيّة في اللحظة التاريخيّة فتعتق كلَّ عبيدك أو تتقبّل ابنك الشاذ جنسيّاً أو تدعم حقوق النساء؟

الخوفُ هو الصوت الحاسم في إجاباتك عن هذه الأسئلة.

لا أحدَ يفهم حقّاً ماهيّة الحياة في زمانٍ ومكانٍ مختلفين، ومع افتراضاتٍ مختلفةٍ، وهي افتراضاتٌ يشترك فيها كل من تلتقي بهم، وكل ما تقرؤه. ولكنَّ الأمرَ واضحٌ أيضاً: ماذا كنت ستفعلُ في زمنٍ آخر؟ كما قال خروتشوف: كنت ستفعلُ الشيء ذاته الذي تفعله اليوم.

لا تزعج نفسك بالتفكير في أشياءٍ مثل: «ما الذي كُنت سأفعله مكانهم؟ بل اسألْ: ما الذي أفعله الآن؟».

في حياتك الخاصّة. في تعاملك مع مخاوفك الخاصّة.

ينهار البشر تحت الضغط، وهذا شيءٌ لا بدّ لك من فهمه. هم يعانون في صراعهم مع واقعهم. كما يقول إبكتيتوس الذي عُرف بتعاطفِه الناتج عن ثلاثين

سنة من العبوديّة: قبل أن نعرف دوافع الأشخاص لا يمكننا أن نفترض معرفة ما إن كان سلوكهم خاطئاً.

لا فكرة لدينا عن الخوف الذي اعترى الشجعان. يقول لويس زامبريني مستعيداً الوقت الذي قضاه سجين حربٍ في معتقل ناوتسو اليابانيّ: «وحدهَ الغسيلُ كانَ يَعلمُ كم كُنت خائفاً». لحسن الحظّ أن هذا الخوف لم يكسره، ليس بشكلٍ كاملٍ على أي حال، وليس في العلن، إلا أنّه كاد يكسره. لا تَحكمنَّ على الناس فيحكَمون عليك.

هل يعني ذلك أنّنا يجب ألا نُحمِّل أيَّ شخصٍ مسؤوليّةَ فعله؟ أو مسؤوليّة عدم فعله؟ طبعاً لا. كلُّ ما يعنيه ذلك هو أنّ لدينا الكثير من الأمور الخاصّة التي نحتاجُ إلى التركيز فيها. فلنهتمَّ بشأننا الخاصّ، ولنضع الجَهدَ حيث يلزم: في العمل، وليس في الإدانة أو التحقيقات.

المشرّدون في واشنطن... البيروقراطيون في بروكسل... المخادعون في الشركات الكبرى. نعم، إنهم جبناء، ولكن ماذا عنك؟ ما الذي تفعله أنت؟

إذا كنا سنُدين أحداً بجبنه، فليكن ذلك بصمت، وعبر أن نُقدِّم مثالاً يُحتذى به.

لا تُهدِر لحظةً في التشكيك في شجاعة الآخر. مارس هذا التمحيصَ على نفسك فقط.

وكالَتُكَ على حياتك حقيقةٌ فعليّةٌ

في عام 2007 نشر موقع جاوكر (Gawker) مقالةً مستهزئةً ومتنمِّرَةً تسخرُ من حياة بيتر ثيل الشخصيّة، وتكشف عن ممارساته الشاذة. ليس من المفاجئ أن ثيل اعتبر تسليط الأضواء عليه أمراً بغيضاً، ذلك أنه يحتفظ بقدرٍ كبيرٍ من الخصوصيّة في حياته. و«سيليكون فالي»، في اعتقاده، مكانٌ تكمنُ عظمَتُه في قدرته على استيعاب الناس الغريبين والذين تتّسم حياتهم بالتعقيد. كيف سيبدو العالم إذا كان الجميع فيه قساة لا يفترضون حُسنَ النيّة في أحدٍ؟ إذا كانت ميول الإنسان الجنسيّة تُنشر للاستهلاك الصحفيّ؟ حيث كلّ فكرةٍ جديدةٍ تتعرَّضُ للاستهزاء قبل أن تحصل على آذان صاغية؟

أخذ يسأل أصدقاءه هذه الأسئلةَ على طاولة العشاء، فقالوا جميعاً لثيل -ومن ضمنهم أشخاصٌ ذوو سلطةٍ كبيرةٍ- لا شيءَ في الإمكان. إذ بصرف النظر عن أنَّ ما حدث معه غير عادلٍ ومقيت، لكنّه لا يخرق القانون، وبالتالي فمِنَ المستحيل إيقافه. وعلاوةً على ذلك، سبق لموقع جاوكر أن راوغَ وهزمَ مئة دعوى قضائيّةٍ من قبل. لقد جعلوا خصومهم يبكون ويتوسّلون الرحمة.

لا يمكنك أن تفعل شيئاً في هذا الشأن.

وقد سمعتَ أنت الكلام ذاته، وللسبب ذاته الذي قيل له: إنها طريقةٌ لبقةٌ نستعملها لندفع أحداً ما إلى الكفّ عن مسعاه.

ولأنَّ ثيل قبِلَ هذه الأحكام، كالكثيرين غيره، فقد أصبحت حقيقيةً. بات يعتقد أنّه لا يستطيع فعل شيءٍ، وفعلاً لم يحدث شيءٌ على مرّ سنين، وذلك على الرغم من ذكائه، وثروته بصفته المستثمرَ الخارجيَّ الأولَ في موقع فيسبوك. إن قبولَه فكرةَ عدم تمتّعه بأيّ وكالةٍ، أي بأيّ قدرةٍ أو تأثير، أصبح «حقيقةً فعليّةً»، وهو مصطلحٌ أستعيرهُ من ثيل نفسه.

شرَح ثيل الأمر كالتالي: سواءٌ أكنتَ ملياردياً أو شخصاً عاديّاً، وبصرف النظر عن قوّتك البدنيّة وذكائك، فإن الخوف يحدِّدُ ما هو ممكنٌ وما هو غير ممكن. إذا ظننتَ أنَّ شيئاً ما مرعبٌ بحيث لا يمكن فعله، فهو مرعبٌ بحيث لا يمكنك

فعلَه حقّاَ. إذا ظننتَ أنّك بلا أيِّ قوّةٍ أو قدرة... فأنت كذلك. إن لم تكن قبطانَ قَدَرِك... فقَدَرُكَ إذاً هو قبطانُك.

إننا نعيش الحياة بطريقتين. نختار بين الحقائق الفعليّة: إمّا أنّنا نَملكُ القدرة على تغيير وضعنا، وإمّا أنّنا تحت رحمة أوضاعٍ وجدنا أنفسنا فيها. نستطيعُ أن نعتمد على الحظِّ... أو على الأسباب والنتائج.

لن تقدِرَ بالطبع على فعل شيءٍ لمجرّد ظنّك بأنك قادرٌ عليه. ولكنّك إذا اعتقدت بعدم قدرتك على فعل شيءٍ، إذا كنت خائفاً، فمن غير المرجَّح أنّك ستقدر على فعله. سواءٌ أكان ذلك محاولةَ المشي مجدّداً أو اختراع شيءٍ، إذا قررت أنه غير ممكن، فلن يحصل... لن يحصل معك على أقلِّ تقدير.

زينوفون، قائد الخيّالة الأثينيّ العظيم، وجد نفسه ذات مرّة محاصراً في وسط بلاد فارس، وهو واحدٌ من عشرة آلاف جنديٍّ يونانيٍ بلا قائد. أخذ يحاولُ حشدَ رجاله وقد بدؤوا ييأسون، وتجمَّدوا من الخوف والإحباط، وباتوا ينتظرون الحدث السيّئ التالي، فشرح لهم زينوفون الثنائيّة نفسها، قائلاً لهم إنهم قادرون على الاختيار بين موقفين، واحد منهما:

«ما الذي سيحدث لي؟»

أما الثاني:

«ما الفعلُ الذي سأقوم به؟»

بعد بضعة آلاف من الأعوام، وفي الأراضي البعيدة نفسها، ذكَّر الجنرال جيمس ماتيس جنودهَ بالشيء نفسه: «لا تحسب أبداً أنك عاجزٌ. اختر كيف تستجيب».

كتب ثيل ذات مرّة: «الشجاعة أقلُّ توفّراً من العبقريّة». وفي الواقع، فإن الخوف وعدم اليقين والنصائح السيّئة كتمت عبقريّته. على الرغم من كلِّ أمواله، وكلِّ علاقاته، وكلِّ مهاراته وموارده، اقتنع بأنه عاجزٌ.

ولذلك كان عاجزاً فعلاً.

وكذلك حالك، في المشكلات الصعبة التي تُحيِّرُك وترعبك.

هذه هي قوّة وكالتنا على حياتنا، وقوّة إيماننا بها.

خائفون من أن نؤمن

بعد أن نجا عالم السيكولوجيا فيكتور فرانكل من مخيّمات الموت النازيّة، تحدّث متعجِّباً مما أسماه «الفراغ الوجوديّ» الذي غطّى أوروبا والنصفَ الغربيَّ من العالم. لقد انتصر الخير على الشرّ، وانتصرت التكنولوجيا على الصراع مع الطبيعة والحاجة. وعلى الرغم من ذلك لم يكن أحد سعيداً، وكان الأمل غائباً عن الجميع. تعرّض العالم، بكلمات فرانكل، للقصف الروحيّ.

ولكن تجارب فرانكل في الهولوكست هي التي جعلته غيرَ مستعدٍّ لليأس. لقد طرح سؤالاً حرجاً لكل الأجيال القادمة: لماذا تحمَّلنا عناءَ البقاء أحياء والصعوبات الجهنميّة إنْ كانَ كلُّ ذلك بلا معنى؟ ما الذي يمنحك الحقَّ بأن تكون تشاؤميّاً إلى هذا الحدّ؟

لكنّ هذه الظاهرةَ الحديثةَ الخبيثةَ لمّا تزل حيّةً. فالناس لا يعتقدون بأهميّة أيِّ شيءٍ.

الفراغُ الوجوديُّ الذي بدأ في القرن العشرين مستمرٌّ في سحبنا نحو الهاوية المظلمة. مع كلّ يومٍ يمرُّ، يضعف الإيمان بركائز الإنسانية، كالدين، والوطنيّة، والصناعة. ليس عليكَ إلا أن تتأمّل في نظرتنا إلى التاريخ. هل نعتبر أننا الجيل الأخير المتحدّر من سلالةٍ طويلةٍ من الأسلاف الذين صارعوا التحدّيات ببسالةٍ فمنحونا عالماً أفضل؟ أم أننا الأبناء غير الشرعيين لآباء عنصريين ومحتالين متوحّشين لا أمل أخلاقيّاً فيهم؟ هل نجسّد نحن البشر مستقبلَ الإنسانية وتطوّرها؟ أم أننا آفّة تعيث في الأرض فسادا؟

ببطءٍ وثبات، تجرَّدنا من الأشياء التي كانت تقوّي عزيمتنا، تلك التي كانت تنادينا لنسمو. ليس ثمّة جنّة. الدولة شريرة. الناس شنيعون. التاريخ ليس إلا سلسلة من الجرائم الكبرى. ثم يضاف إلى كلّ هذا الاعتقادُ الفعليّ بأن الأفراد عاجزون عن إحداث تغيير؟ إنهم تحت رحمة قوى أكبر منهم، قوى لا أمل لهم بمواجهتها أو التحكّم فيها؟

الكلمة التي تصف كلَّ ذلك هي العدميّةُ.

ومن ثَمَّ نتساءلُ لماذا لا يتحلّى أحدٌ بالشجاعة. ما فائدة الشجاعة إذا كانت لديك مثل هذه المعتقدات؟

وعلى الرغم من أنَّ هذا التوجّه محزنٌ، إلا أنّه آمنٌ، لأنّه مبنيٌ على «حقائق». إنه يقلّل من المخاطر، ويُلغي الأحكام والضغوطات الناتجة عن احتماليّة أن نخذلَ أنفسنا أو الآخر. إنّه يمنحنا عذراً لإبقاء الأمور على ما هي عليه، من دون أيِّ مخاطرةٍ، ومن دون أيِّ محاولةٍ، بعيداً عن أيّ خطر.

يُذكّرنا الدارسون بأنّ نقيض «الشجاعة» (أي andreia باليونانية) ليس «الجبن»، بل هو «السوداويّة» (melancholia). الشجاعةُ التزامٌ صادقٌ بالمُثل النبيلة، ونقيضُ الشجاعة ليس الخوف كما يقول البعض، بل هو عدم الاكتراث. هو فقدان الاهتمام. هو اليأس. هو أن ترمي ذراعيك في الهواء وتقول: «وما الفائدة أساساً؟».

إذا كنّا لا نؤمن بأيِّ شيءٍ، سيصعب علينا جداً أن نعتبر أن ثمة ما يستحقّ الإيمان به. وبهذا، نحوّل عدميّتنا إلى أمرٍ واقع، تماماً كما نفعل حين نُصدّقُ الكذبة القائلة إننا لا نملك أيَّ وكالةٍ على حياتنا، أو بعبارةٍ أخرى، إننا لا نسيطر على ما يحدث معنا، لكننا نسيطر على طريقة تجاوبنا معه. إذا كنت تخشى من أنّك لا تستطيع فعلَ شيءٍ، فمن المرجّح أنّك لن تفعل شيئاً.

من المرجّح أيضاً أنك لن تكون شيئاً. سوف تكون «لا شيئاً»، محميّاً بأفكاره ويبرِّر نفسه.

كتب الروائي نيكولاس موسلي: «لقد صار هذا الحديث شيئاً محظوراً في أيامنا -كما كان الحديث عن الميول الجنسيّة محظوراً في يومٍ من الأيام- أقصد الحديثَ عن الحياة كما لو أنَّ لها أيَّ معنى».

إننا نريد أن نعيش في عالم من الأشخاص الشجعان، ونريد أن نكون شجعاناً... ونخاف الحديث عن ذلك لأنّنا قد نبدو أغبياء!

الشجعان لا ييأسون. هم يؤمنون. كما أنهم لا يتعاملون مع الأمور بسخريةٍ سوداويةٍ، بل يكترثون. يعتقدون بوجود ما يستحقُّ الموتَ من أجله، وبأن الخير والشرّ موجودان. يعلمون أن الحياة فيها مشكلاتها، ولكنهم يفضّلون أن يكونوا جزءاً من الحلّ بدلاً من الاكتفاء بدور المشاهِد.

كما كتب الشاعر هنري لونجفيلو في قصيدته المشهورة «ترنيمةٌ مقدّسةٌ للحياة» (A Psalm of Life):

«الحياة حقيقيّة! الحياة صادقة!».

ولكن حتّى قول ذلك -دعك من الإيمان به- يتطلَّب نوعاً من الشجاعة.

إن الصدق أو الإخلاص ليسا بالأمر السهل. ليسا بسهولة الخوف والشكّ على أقلّ تقدير. علينا أن نصرَّ على وجود معنىً في كلّ ذلك: معنىً لحياتنا، ومعنىً لقراراتنا، ومعنى لمن نحن. ما هو ذلك المعنى؟ إنّه ما نفعله. إنّه القرارات التي نتّخذها. إنّه التأثير الذي نسعى إليه.

هذا ما نؤمن به على الرغم من كلّ الشكّاكين وكلّ الأدلّة على العكس. لأنّنا نعلم أن مهمَّتَنا جعلُ الأمر حقيقة.

لا تدعهم يرعبونك أبداً!

أمر الإمبراطور الروماني فيسباسيان السيناتورَ الروماني هيلفيديوس بريسكوس بألا يظهر في مجلس الشيوخ. وهذا أمرٌ يُوجَّه إلى الكثير من الناس، كتحذيرٍ للتوقّف عن طرح الأسئلة، والامتناع عن فتح المواضيع غير المرغوب فيها، ولإرغام الشخص على توخّي الحذر الشديد... وإلّا وجد نفسه في خِضمّ مشكلة.

ماذا كان قصد الإمبراطور من ذلك؟ لسنا نعلم. لربما أراد أن يمرِّرَ تشريعاً يغطّي به إحدى جرائمه، أو ربما أراد وحسب أن يرتاح من صداع الجدل. وكان يعلم ببساطة أن التهديد والتخويف يردعان الجميع في روما.

أجابه هيلفيديوس: «إن من ضمن سلطاتك ألا تسمح لي بأن أكون عضواً في مجلس الشيوخ، ولكن ما دمتُ عضواً فيه، فلا بدّ لي من أن أحضر».

«حسنٌ»... قال الإمبراطور متفاجئاً، «ولكن من الأفضل لك ألا تقول شيئاً».

فقال له هيلفيديوس: «إن لم تسألني عن رأيي، سأبقى صامتاً».

ردّ الإمبراطور بينما أخذ غضبه يتصاعد: «ولكن لا بدّ لي من أن أطلبَ رأيَ مجلس الشيوخ».

فأجاب هيلفيديوس: «وأنا لا بدَّ لي من قول ما أراهُ صواباً». وهكذا وصلَ الأمر في آخر المطاف إلى التهديد بالقتل: «إنْ لم تتوقفْ، إنْ قلت ما طلبتُ إليك عدم قوله، فإنني سأقتلك»، وقال الإمبراطور هذه الجملة الأخيرة ملوِّحاً بمعصمه إلى الحرس الإمبراطوري بالوقوف خلف هيلفيديوس.

على الرغم من أن معظمنا لن يواجه في حياته خياراً حاسماً كهذا، فإن ديناميكيته شيءٌ نعيشه جميعاً بالطريقة ذاتها: إنهم يريدوننا أن نُحلِّقَ ضمن

السرب، وألا نخرجَ عن المسار المرسوم لنا، وأن نترك الأشياء على حالها... وإلا!

هل سينجح ذلك ضدّنا؟ وعمّ سنتخلّى أو نغضّ النظر؟

إن ذلك ينجح، بل حتى مع الناس الأكثر سلطة وقوّة للأسف. كان هيلفيديوس ينتمي إلى نخبةٍ ذات امتيازات، لكنها نخبة قرّرت بغالبيّتها أنْ تنصاع للتهديد. وما زالت الحال كذلك حتى يومنا هذا، فأعضاءُ مجلس الشيوخ ما زالوا يخشون فقدان حظوتهم لدى السلطة. والملياردیرات يخشون الدخولَ في الشؤون الجَدَلية كي لا يُستبعَدوا من منتدى دافوس الاقتصادي أو النادي الراقي الذي ينتمون إليه. والفنانونَ، الذين كانوا يوماً ما فاعلين وهجوميين، صاروا الآن يلطّفون نبرتهم لإرضاء مُموّليهم ونقّادهم.

وحتى الناسُ الأكثر سلطةً يستسهلون أحياناً التماشي مع الأمر للانسجام في الوسط. في مسرحية يوليوس قيصر لشكسبير، يسألُ أحدُ الرجال قيصرَ أيّ سببٍ مهذبٍ يودُّ إرساله كي لا يهين نخبة روما؟ فيقولُ قيصر مفكّراً في صيغة الشخص الثالث: «أيرسلُ قيصر كذبة؟ هل مددت ذراعي أطول من اللازم في فتوحاتي بحيث صرتُ خائفاً من أن أقول الحقيقة لرجال شابت ذقونهم؟».

إننا لا نرغبُ في إهانة الناس. ولا نرغبُ في إثارة المشكلات.

لا نودُّ أن نخسر قدرتنا على الوصول إلى أناس معيّنين أو أشياء معينة. أو نخسرَ سلطتنا، أو معاشنا التقاعدي، أو امتيازاتنا. نقول لأنفسنا إننا نستطيع أن نتدبَّرَ ذلك التوازن الخطر.

ولذلك فإننا نكذب، ونساوم، أو أسوأ: نجبنُ ونتراجعُ عن مواقفنا.

هو الخوفُ الذي يفعل ذلك، هو الذي يحوّلنا إلى ما أسماه تشرشل في وصفه لأحد خصومه السياسيين: رجلٌ أعجوبةٌ لا عظام له (Boneless Wonder).

لا أحد يرغبُ في أن يُرمى به في الخارج. لا أحد يريدُ أن يكون في مرمى نار الآخرين. لقد تعبتَ في صعود هذا الجبل الذي وصلت إلى قمّته، وقد أصبحتَ الآن تواجهُ فكرةَ خسارته؟ أو التراجع خطوة؟ أليست قدرتُنا على الوصول مهمة؟ كيف لنا أن نساعد الناسَ إذا أغضبنا القوى الموجودة النافذة؟ ألنْ نكونَ في موقع أفضل بعد أنْ نحصل على ترقيتنا؟

أجل، هذه الأشياءُ مهمةٌ، ولكن دو بويز كان على حقٍّ إذْ قالَ إنه من الأفضل أن تقفَ مرفوعَ الرأس في بركة طينٍ من أنْ تلعق الأحذية في متجرٍ محترم.

حاول القائم على تسويق مباراة الملاكم محمد علي كلاي الأولى أن يُقنعَ الرياضي الشاب بأن يُنكرَ مُعتقده الإسلامي تحت وطأة التهديد بإلغاء المباراة. قال له محمد علي: «ديني أهمُّ من ملاكمتي». كلُّ آماله الاحترافية كانت مُعرَّضةً للتهديد أمام عينيه. تَخيَّلْ كمّ الرعب في ذلك. وعلى الرغم من كل شيء، فإنه لم يجفلْ ولم يترددْ.

«ولكن أيُّ فائدةٍ أُحقِّقُها أنا من ذلك؟» أو «ما الذي سيحصل لقدرتي على الوصول/لوساطاتي إذا رفعتُ صوتي؟» ليس هذا النوع الصحيح من الأسئلة. بدلاً من ذلك، علينا التحلّي بما يكفي من القوّة لنسأل: «ولكن ماذا لو تصرَّفَ الجميعُ بهذه الطريقة؟»، «ماذا لو وضعَ الجميعُ مصالحَهم قبل كل شيء آخر؟»...، «ماذا لو عاش الجميع في خوف؟».

أي عالمٍ يكونُ هذا؟

ليس عالماً جيداً. ومن المؤكد أنه لن يكون عالماً آمناً.

ولذلك فقد نظرَ هيلفيديوس بجسارةٍ في عينيّ الإمبراطور فيسباسيان وأجابَه: «سوف تقومُ بدورك وأقومُ بدوري: دورُكَ أنْ تقتل، دوري أنْ أموت، ولكنني لا أموت خائفاً: دورك أنْ تنفيني، ودوري أنْ أغادِرَ غيرَ حزين».

وقد أُبعِد فعلاً في آخر المطاف، إذ طُرِدَ من المتجر... وأعدموه لاحقاً.

خسرَ عمله. وخسرَ حياته. وهما الشيئان اللذان نخافُ خسارتهما أكثر من أيّ شيء آخر.

ولكنَّه عندما امتلكهما، مارسهما فعلاً.

النموّ قفزة

مرَّتْ ثلاثة عقودٍ ونصف العقد، وما زال شعور بينجامين راش عند توقيع إعلان الاستقلال مطبوعاً في عقله. لم يستطعْ أحدٌ ممن كانوا في الغرفة نسيانَه.

يكتبُ بينجامين راش إلى جون آدامز بعد أنْ كَبُر به العمر: «أتذْكُرُ الصمتَ المترقِّبَ والرهيب الذي ساد المجلس عندما دُعينا، واحداً تلو الآخر، إلى طاولة رئيس الكونجرس كي نوقِّعَ على ما اعتبر الكثيرون في وقتها أنه أشبه بشهادة وفاتنا؟»

عندما توقّعُ باسمك فإنك تخاطرُ بنفسك.

ما كان لهم يومها أن يعرفوا بنجاحهم القادم، بل كان هذا تفكيراً راجعاً بعد مرور الزمن. وفي التفكير الراجع ذاك وحده قد يبدو عليهم أنهم عارفون بالمستقبل وشجعان وأقوياء. ولكنْ، في ذلك الوقت، كان راش بالكاد استهلّ ثلاثيناته. ورمى بنفسه في أخطر تجربة في حياته كلها.

ولكنّه اجتاز التجربة.

في حكاية «المفتاح الذهبي»، يُرِيْ الرجلُ العجوزُ حقيقةَ العالم للطفل: لا تَقَدُّم من دون مخاطرة. يحرِّكُ حجراً ضخماً من أرضية الكهف ليُظْهِرَ للولد حفرةً يبدو ألا نهاية لها.

«هذه هي الطريق» يقول العجوز.

فيجيب الولدُ: «ولكن لا توجد درجات».

يقول العجوز: «لا بدَّ من أنْ ترمي بنفسك فيها، ليس هنالك طريق أخرى».

إنه شيءٌ مخيفٌ، ولكن لا سبيل للالتفاف حوله.

لا بدَّ أنَّ أسطورة الجولف، تايجر وودز، كان يتمنّى الاحتفاظ بضربته القديمة عندما أعادَ ابتكارَ أسلوبه في اللعب بشكلٍ كاملٍ معتمداً نوعاً جديداً من

الضربات، ولكن الأمرَ لا يتمُّ بهذه الطريقة. وقد خافَ في المرّة الأولى التي نفّذ فيها الضربة الجديدة، وفي الثانية وفي الثالثة وفي الرابعة.

النموّ قفزةٌ في الظلام. إذا أصابك ذلك بالرعب، فلن تفعل شيئاً ذا شأنٍ أبداً. وإذا استمعت إلى مخاوفك، فاعلم أنك لن تقوم بتلك الخطوة الأولى على الإطلاق: لن تقفز.

المرّاتُ التي كنا نستطيع أن نقولَ فيها شيئاً. الرهاناتُ التي كان يجبُ أن نعوِّلَ عليها. الناسُ الذين كان من الممكن أن نلتقيهم. الدروسُ التي كنا نقدرُ على تعلُّمها. المعاركُ التي لم ننتصرْ فيها قطّ.

ماذا لو كنا نملكُ اليقين، ولو أن الطريقَ محدّدةٌ جيداً ومُنارةٌ بشكلٍ ممتاز؟ لو كانت الأمور على هذه الحال... لما لزمتْ الشجاعة.

لا بدَّ أنَّ ريد هيستنجز تمنَّى لو أن أحدهم أشار إليه بأن مستقبل التلفاز والأفلام الأكيد هو خدمة البثّ على الإنترنت، ولكن ذلك لم يكن في مقدور أحد. كان عنده إحساسٌ، طبعاً، بأن الأمور تتّجه في هذا الاتجاه. وكان عنده أيضاً تجارةٌ تُقدَّر بمليارات الدولارات قائمةٌ على توصيل نُسخ الأفلام والمسلسلات (DVD) عبر البريد. وكي يغتنم الفرصة التي تتيحها خدمة البثّ عبر الإنترنت في وقتها الملائم، كان لا بدَّ له من المخاطرة بتجارته: وهكذا اضطُّرَ ريد إلى القفز في الظلام، متجاسراً على المحلّلين والنقّاد، وعلى شكوكه الخاصة أيضاً، مثله في ذلك مثلُ كلِّ قائدٍ ناجحٍ أو رجل أعمالٍ أقْدَمَ في يومٍ ما على فعلٍ ناجح.

لا أحد يقدرُ أنْ يقول لك إن خطتك ستنجح. لا أحد يقدرُ أن يقول لك كيف سيأتي الجوابُ عن سؤالك. لا أحدَ يستطيعُ أنْ يضمنَ لك عودتك إلى المنزل حيّاً. بل لا يستطيع أحد حتى أن يُخبرك بمدى عمقِ الحفرة.

ولو كان ذلك ممكناً، ولو لم تكن الحفرة مخيفة... لقفز الجميع. ولما كان لزاماً أن تقفز أنت، أليس كذلك؟

ينتظرُ الجبانُ درجات السلّم الذي لن يحضر. يريد معرفة الاحتمالات. يريدُ بعض الوقت كي يُحضّر نفسه. يسعى وراء التأكيدات، ويتمنّى إرجاء الأمر. وهو مستعدٌ لأنْ يتخلّى عن أيّ شيء للحصول على هذه الأشياء، ومن ضمن ما يتخلّى عنه: الفرصة التي لن تتكرّر أبداً.

تُذكّرنا فلورنس نايتينجيل بأن: «الموتُ بين الأمواج المتلاطمة في الطريقِ إلى عالمٍ جديدٍ، أفضل بعشر مرّاتٍ من الوقوف دون حراكٍ على الشاطئ».

وقد عثرتْ على عالمها الجديد فعلاً. تخيَّلْ عدد الوفيات التي كانت ستقع لولا أن نايتينجيل فعلتْ ما فعلتْ. تخيَّلْ لو أنها لم تتجرأ قطّ على القفز؟

أنت هنا لوقتٍ قصيرٍ جداً. على هذا الكوكب. في هذه الوظيفة. كشخص يافعٍ غير متزوّج... مهما كان ما تفعله ليس أمامك الكثير من الوقت. كيف تريدُ أنْ تنفقَ ذلك الوقت؟ بِجُبنٍ؟

إذا كان الخوفُ قوةً دافعةً في حياتك لا مفرَّ منها، فمن الأفضل لك أنْ تخافَ من إضاعة الفرص. أنْ تخافَ مما سيحدث إنْ لم تتصرّف. أنْ تخافَ مما سيظنّه الناس بك لاحقاً لأنك لم تغامرْ إلا قليلاً جداً. فكّرْ في الفُرَصِ التي تتركها على الطاولة عندما تغادر. فكّرْ في التكاليفِ المرعبة للعبِ بشكلٍ آمنٍ ودون طُموح.

للخوف الذي تشعر به في حياتك دلالةٌ. إن لم تكن الشجاعةَ لازمة في حياتك... إن لم تكن لها أيّ ضرورة على الإطلاق: فمعنى ذلك أنك تعيش حياةً مملّة.

ضَعْ نفسَكَ في موقفٍ يتطلَّبُ منك أنْ تقفز.

لا تَخَف من الخيارات

كان دين أتشيسون حاضراً، كما يقول وعيناه تلمعان، عند إنشاء العالم الجديد، أو إعادة إنشائه، من أنقاض الحرب العالمية الثانية. كان حينها يشغل منصب نائبَ وزير الخارجية جورج مارشال، في حكومة الرئيس الأمريكي هاري ترومان. لاحقاً قضى دين سنوات تقاعده مستشاراً لدى الرئيسين جون كينيدي وليندون جونسون.

وهناك جلس في المقعد الأمامي خلال الأحداث الأكثر أهمية وتوتراً في التاريخ الأمريكي. خطة مارشال. جسر برلين الجوي. أزمة الصواريخ الكوبية. حرب فيتنام. وهي كلّها مواقف ضاغطة للغاية، يبهتُ فيها الضعيف ويَلمعُ القوي، ويصبح معها العالم على شفير الفوضى والدمار، لا يفصله عنهما سوى شجاعة القيادة الحسنة. مواقف لا يعود الجبن مُحرجاً ومعيباً فقط بل يهدّد حياة الملايين.

يلاحظ أتشيسون: «من الموقع المرتفع، لا توجد اختياراتٌ سهلةٌ. فهي كلها اختياراتٌ بين شرور، ومن الصعب التكهّن بعواقبها».

ولكن هذا هو ما يرعبنا. اتّخاذنا القرار الخاطئ. إفساد الأمور والعواقب المحتملة وغير المقصودة لذلك.

ماذا سأفعل بشأن هذا؟

وماذا بشأن ذاك؟

ماذا إذا أخطأت؟ إذا خالفني الناس الرأي؟ إذا حدث شيء آخر؟

هل يجب أن أبقى؟

أم الأصح أن أغادر؟

أأقولُ شيئاً؟ أأحاولُ بهذه الطريقة أم تلك؟

ولكن ماذا إنْ لم ينفع ذلك؟

خياراتٌ كثيرة جداً: القليلُ منها سهل، ولا واحد منها واضح.

خياراتٌ مرعبة، تعذّبك، كما قال شكسبير: «كمثل فانتازما، أو حلم قبيح».

نقول لأنفسنا إننا نفكّر، إننا نفاضل بين اختياراتنا، وإننا بفعل ذلك نحرز تقدّماً.

والحقيقةُ أننا مشلولونَ بالخوف. ومصدومون أمام الاختيارات، والتشكيك المتكرّر، وكُرهِنا للوقوع في الأخطاء. ولذلك فإن ما نفعله حقاً ليس إلا الدفع بأنفسنا نحو البؤس.

نقول لأنفسنا إنها كثرة الاحتمالات... في الواقع إنه شللٌ تحليليّ.

وأثناء كل ذلك ثمة من يحرز تقدّماً حقيقياً.

نسمعُ حكايةً عن ملكٍ إسبرطي زحف بجيشه عبرَ اليونان. وكلما دخل بلداً جديداً، أرسل مبعوثاً يسألُ إذا ما كان عليه التحضيرُ لمعاملة أبناء البلد كأصدقاء أو أعداء.

معظمُ الدول قررت موقفها سريعاً، ومعظمها اختارَ الصداقة. ولكن ملكاً أراد تأمُّلَ خياراته، لأنه كان خائفاً من الالتزام بهذه أو تلك، ففكّر، وفكّر، وفكّر... حتى قام الإسبرطيّون بالاختيار بدلاً منه.

قال الجنرال الأسبرطي عابساً بعد أن ملَّ: «دعوهُ يتفكَّر في الأمر إذاً بينما جيشنا يزحف نحو الأمام».

كما تقول الأغنية، حتى إذا اخترتَ ألّا تختار (حتى لو أجّلت الأمور) فإنك قد اخترتَ فعلاً. اخترتَ الحالة القائمة. اخترتَ تَركهم يقرّرون عنك. صوّتَّ على التخلّي عن وكالتك.

قال سورين كيركاجارد: «ما يخافُه الجبنُ أكثرَ من أيّ شيء، هو التوصّل إلى قرار، لأن القرارَ يبدِّدُ الضبابَ فوراً».

العواقبُ هي ما تخشى منه، ولذلك تستمر بالتفكّر، آملاً تأجيلها.

أتظن أنك إنْ لم تخترْ لنْ تخسرْ؟ من الجائز جداً أن تخسر: تخسر اللحظة.
تخسر الزخم الذي كان قابلاً للاستغلال. تخسر قدرتَك على النظر في المرآة.

لا يمكنك إعطاء الأولوية للسلامة

إبّان محاولةِ يوليوس قيصر الإطاحةَ بالجمهورية الرومانية، لأن مؤسساتها وقفت عائقاً في طريقه، بدا سيسيرو -وهو منافسه القديم- وكأنَّه يُفكِّرُ في نفسه بشكل رئيسي. سيقول سيسيرو لاحقاً إنه في الحياة والحرب «على المرء أن يختار الجانب الأقوى وأن يعتبر أن المسار الأكثر أماناً هو الأفضل».

بدلاً من المحاربة للحفاظ على الأمُّةِ التي خدَمَها طويلاً، آثر الانتظار ليرى ما ستؤولُ إليه الأمور. ولما انتصر قيصر، حضَّرَ سيسيرو لمديحه، حتى إنّهُ قد خفّف الذكر التأبيني لأصدقائه الذين سقطوا في صراعهم مع قيصر كي لا يهين الديكتاتور الجديد. وعندما اغتالوا قيصر وسقطت روما في حربٍ أهليةٍ من جديد، رفعَ سيسيرو إصبعَه ليرى اتجاه الرياح بدلاً من أن يتبع صوت الحقّ.

قد تحسب أن سيسيرو حفظ حياته بهذه الطريقة، ولكن المفارقةَ الساخرةَ تكمن في أن مارك أنثوني سرعان ما قتلهُ من بعدها. وحتى إذا افترضنا أنه تمكّن من النجاة، كانت حياته المهنية ستنتهي في أيّ حال لأنه خسر كلّ مصداقيته. موت سيسيرو مثيرٌ للشفقة، إذْ لم يخسر حياته وحسب، بل خسر فرصاً متكرّرة لأن يصبح بطلاً.

طبعاً، من الممكن أنْ تتريَّثَ وتنتظرَ لترى ما ستؤول إليه الأحداث. تستطيعُ أنْ تنتظرَ لتختار الاصطفاف إلى جانب المنتصر. وقد يثمر ذلك، ولعلَّ التاريخ لا يلومك.

ربما.

ولكنك، عميقاً في داخلك سوف تعلم. فالخوف يترك وصمة.

يُذكِّرنا ثيودور روزفيلت: «لم يحدث بعد أن حظي رجلٌ وضع سلامته الشخصية أولاً بمغامرةٍ جديرةٍ بالذكر».

ثمة في هذا العالم ما هو أسوأ من الموت، من مثل أن نتعايش مع ما اضطُررنا لفعله للبقاء على قيد الحياة. أو الندم على ضياع فرصة البطولة. وجودنا في عالمٍ جحيميّ يحكمه الجبناء.

مَثَلَ القسُّ ورائدُ الحقوق المدنية فيرنون جونز أمام قاضٍ أبيضَ ليجيب عن عظةٍ مثيرةٍ للجدل ألقاها، وكان بمقدوره الاعتذار والتراجُع. كان بمقدوره أن يحمي نفسه وأن يَعِدَ بألا ينتقد العنصرية أو الفصل العنصري مجدداً. كان ذاك الخيارَ الآمن... وحسب منطق سيسيرو، فإنه أيضاً الخيار الصحيح. بدلاً من ذلك، نظر جونز في عيني القاضي وقال: «أينما ذهبتُ في الجنوب أجد الزنجي مرغماً على الاختيار بين الحفاظ على رقبته وبين الحفاظ على روحه. فيختارُ رقبته في معظم الأوقات. لكنني أؤكّد له أن رقبته ليست ما يستحقّ العناء».

ينطق الخوفُ بمنطق المصلحة الذاتية المُقنِع. لكنه أيضاً كذابٌ سفيهٌ.

هذه الحماية الذي يعدنا به، وتلك الراحة التي يدّعي أنه سيحفظها لنا. هل هذا صحيحٌ أساساً؟ أيُّ أمنٍ هو ذاك الذي سيمنحك إياه؟

نحن مخلوقات هشةٌ. لا شيء في الدنيا قادرٌ على تغيير ذلك. أحمق من يظنّ أنه باستمالة الأشخاص السيئين قد اختار الرهان الآمن. مستقبلُكَ الذي يبدو أنك مستعدٌ لكلّ شيءٍ بهدف المحافظة عليه؟ لا شيء يقدر على ضمانه. هذه اللحظةُ، الحاضرُ الذي تُهمِلهُ -سواء أكان فرصةً لمغامرةٍ مثيرةٍ، أم نداءً لفعل شيءٍ مرعبٍ ولكنه محقّ- هو كل ما تملك.

نميل إلى الاعتقاد بأننا قادرون على عيش حياةٍ فريدةٍ عبر اتخاذ قرارات عادية، ولكن ذلك غير صحيح. في الواقع، تلك القراراتُ العاديةُ، الآمنةُ، التي يوصي بها كل خبير، ولا ينتقدها أحد، هي التي تجعلنا ضعفاء في أوقات الفوضى والأزمات.

يجدر بنا تذكُّر أنَّ معظمَ الناس يموتون في أسرّتهم. لذا فالنهوض والحركة أكثر أمناً!

تُعَدُّ محاولة استشراف المستقبل خطرةً في التجارة، كما كتب الاستراتيجيّ بيتر دراكار، لكنّ عدم المحاولة يشكّل خطراً أكبر. ذلك أن ما يلي مؤكّد الحدوث: أحدٌ ما سيحاولُ، لتجد نفسك حينها على الجانب الخاطئ من العواقب، أو متأخراً عن الباقين في أقل تقدير. وعندها سوف تخسر مبادرتك.

الحياة خطرة. كما قال الشاعر ديلان توماس، كلُّ يومٍ هو حالةٌ لا بدّ لنا من التعامل معها مباشرةً، بحيث «نتلمّس الطريق ونتقدّم» (touch-and-go). ولا يمكن لأيّ مقدارٍ من التحفُّظ الاستباقيّ أن يحمينا من الاحتمالات[7]. مهما

اختبأنا لن نتمكّن من تفادي الأشياء المخيفة. نحن أصلاً هاربون من قانون متوسّط الاحتمالات، إننا موعودون بالموت منذ ولدنا. وعندما تستوعبُ ذلك، ستتوقَّف عن التحفّظ والتخوّف من كل خطر وكلِّ إخفاقٍ ممكن.

من يكترث؟ إنها مجرد قطرةٍ في بحر، مجردُ نقطةٍ على تقريرِ تقييم الأخطارِ الذي هو أصلاً أكبرُ من قدرات البشر الفانين.

كل اليقين لا يقينيٌّ. لستَ آمناً. لنْ تكونَ كذلك أبداً. لا أحد آمنٌ. وعندما نضعُ السلامة فوق كل اعتبارٍ آخرَ فإننا في الواقع نضعُ أنفسنا في الخطر: خطرِ أن نُنسى. ألّا نقتربَ من أهدافنا. أنْ نصبحَ شركاءَ في الجُرمِ الواقع.

كيف ستتعاملُ مع ذلك الخطر؟

«ما الذي سيحدث لي؟» لا أحد قادرٌ على أن يخبرك بذلك. ولكنك متى تحلّيتَ بالشجاعة تواجه قائلاً: «لستُ واثقاً، ولكنني سأجتاز ذلك بروحٍ سليمةٍ من الخدوش. سوف أعيش التجربة بأفضل شكلٍ ممكن. ولن أكونَ خائفاً».

الخوف يريك شيئاً

تردَّدَ ثيودور روزفيلت قبل أن يدعو بوكر تي. واشنطن إلى عشاءٍ في البيت الأبيض عام 1901. وكانت تلك المرَّة الأولى في التاريخ الأمريكي التي يتعشَّى فيها رجلٌ أسود ضيفاً على طاولة الرئيس.

تردَّدَ لأنَّهُ كان خائفاً. خائفاً مما سيظنّه أقرباؤه الجنوبيّون، مما ستقوله الصحف، من أصوات العنصريين التي قد تتخلّى عنه وتصوّت ضده، من أنه سوف يفقد دعمه في الجنوب الأمريكي، وأن ذلك قد يُكلِّفُه الانتخابات...

رئيسٌ كاملُ الصلاحيات، وهو الذي قاد وحدة «الفرسان القساة» (Rough Riders) في هجوم انتحاري ، ورجلُ اعتاد صيدَ الدببة، وقهَرَ مرضاً شالّاً في الطفولة، وقد هزَمَ الاكتئابَ والأسى ومليونَ عقبة أخرى... وكان خائفاً مما سيظنّه الناس.

كان الوضع مُخيفاً، إذ جاءَ العنوانُ العريضُ على صحيفة نيويورك تايمز في اليوم التالي: «أهلُ واشنطن، كقاعدةٍ، يدينون سابقة الرئيس المُتعدِّية في حملة ماريلاند».

لقد أدانوه كقاعدة!

ولكن في آخر المطاف، كان الخوف هو السببَ الذي جعلَ روزفيلت يقرِّرُ المضيَّ في الأمر.

كتب روزفيلت في رسالة إلى مستشارٍ في شؤونِ الحقوقِ المدنية: «حقيقةُ أني شعرتُ بانقباضٍ للحظة عند التفكير في دعوته بسبب لونه جعلتني أخجل من نفسي، وجعلتنيَ أتعجّل في إرسال الدعوة. في النتيجة، أنا سعيدٌ جداً لأنني دعوته، فالضجيج الذي أثاره الحدث أكّد لي أن هذه الدعوة كانت ضرورية».

لا توجد قاعدة مثالية، ولكن القاعدة التالية تنجح إلى حدّ كبير: مثل سهمٍ ذاتيّ التصويب، يشيرُ خوفنا لنا نحو الشيء الصحيح المتوجّب فعله. جزءٌ منا يعلم ما

ينبغي فعله، ولكن الجزء الآخر يُذكّرنا بالعواقب القادمة لا محالة. الخوفُ ينبِّهنا إلى الخطر، ولكن أيضاً إلى الفرصة. ولولا أنَّ الأمرَ مخيفٌ لأقدم عليه الجميع. لو كانَ سهلاً لما كان فيه أيّ تقدّم نحو الأمام. إنَّ وخزة الخطر كمثل رنين جهاز اكتشاف المعادن: تعني أننا ربما وجدنا شيئاً حقيقياً.

هل نتجاهلهُ؟ أم هل نحفرُ؟

الخوف يصوّتُ للتردُّد، وعنده دائماً سببٌ لعدم الفعل وبالتالي من النادر أن يفعل شيئاً. وإن لم نجد أن التردّد يصيبنا مرّاتٍ كثيرة، فلا بدّ أننا لا نحاول بالقدر الكافي.

تخيّل التردّد الذي شعر به بوكر تي. واشنطن: فهو يغامرُ بحياته ذاتها بقبول دعوةِ روزفيلت. ويغامر بالدعم القليل الذي يحظى به من رعاته الجنوبيّين. لكأنّه يركلُ عشَّ دبابير متوحشة. قال السيناتور بينجامين تيلمان رداً على الحدث: لا بدّ لنا من قتل ألف زنجي كي نعلّمهم مكانهم مجدداً[8].

ولكن واشنطن ذهب. غير عابئ. غير خائف. تحدثت ابنة أخ روزفيلت، إليانور، لاحقاً عن فعل الشيء الذي لا يمكنك فعله، إذْ يكادُ يكون دوماً الشيء الذي عليكَ فعله. عندما يهمس لك شيءٌ بأنه ممنوعٌ عليك. عندما يقول لك أحد إنك ستندم على قرارك. عندما تجعلك الرعشةُ في معدتك تتردّد.

ولكن ماذا سيظن زبائننا؟ ولكن ماذا لو استعمل منافسونا ذلك ضدّنا؟ ماذا لو لم ينجح ذلك؟ هل سيغضب الناس مني؟

اللعنة عليهم جميعاً.

قرِّرْ أنْ تشهد. قرِّرْ أنْ تنطلقَ في المحاولة الجديدة. اقبَلْ بالأخطار الخلاقة. اختر الإجابة على البريد الإلكتروني الذي أرسله الصحفي. قرِّرْ أن تقولَ ما كنت متردداً في أن تقوله.

يُقال لنا ألا نستمع إلى مخاوفنا، ولكن قد يكون هذا بالضبط ما علينا فعله.

علينا أن نستمع باهتمامٍ لنفعل العكس من ثمّ.

لا شيء يخيف أكثر
من أن تكون نفسك

كان فرانك سيربيكو، الرجل الغريب في شرطة نيويورك في الستينات، من أصولٍ إيطالية بينما معظم أعضاء الشرطة الآخرون من أصولٍ إيرلندية. كان يتركُ شعره ينمو طويلاً. أحبّ الأوبرا والباليه. وسكن في حيٍّ ذا فيليج، بينما اختار معظم زملائه الضواحي الهادئة. كان لديه كلبٌ أبيض ضخم، ويرتدي سترات جلدية ومختلف أنواع الملابس الغريبة.

وكلُّ ذلك عندما لم يكن متنكّراً. إذْ لمْ يكن غريباً على سيربيكو أن يحضر إلى العمل في أزياء من صنعه تسهّل عليه التقاط المجرمين في الشارع، ومع ذلك تأجَّلتْ ترقيته مرةً بعد مرة بحيث لم يُصبح متحرّياً متخفيّاً.

لقد كان هو الغريب بينهم.

حمداً لله.

تذمَّرَ محامي النيابة الذي عمل مع سيربيكو من أنَّ الرجلَ صعب المراس. وذَكَّرهُ سيربيكو بأنه لو كان أسهلَ مراساً قليلاً، وأكثرَ ميلاً لأن يتماثل بالباقين في قسمه، لما ملكا أساساً قضيةً ضدّ الفساد.

من حيث التعريف كلُّنا أصيلون: إن حمضنا النووي لم يوجد من قبل على هذا الكوكب. لم يملك أحدٌ من قبل مجموعة تجاربنا الفريدة. ولكن ماذا نفعلُ بهذا الإرث؟ إننا ندفعهُ بعيداً. نختارُ ألا نكون أنفسنا. نختارُ أن نتماشى مع الآخرين، ألّا نثير امتعاضهم.

إذا تأمّلنا حال شرطة نيويورك آنذاك فهي لا تُصدَّق: وجدت الشرطةُ أن الارتشاء أسهل من ممارسة النزاهة، وهذا حقيقي. أن تُمانع يعني أن تصبح متميّزاً بين زملائك: يعني أن تجعل من نفسك هدفاً. أن تكون مختلفاً، وبالتالي: وحيداً.

بسبب خوفنا نَتكيَّفُ مع واقعنا ونُطيعُه. بسبب الخوف لا نفعل ما هو صحيحٌ. نُسكِت أنفسنا. بل لا نريد حتى من الآخرين أن يكونوا أنفسهم، لأن ذلك

يُشعِرُنا بعدم الارتياح.

شخصٌ صعبٌ. غريبٌ. لا يُؤْمَنُ غضبُه. صانعُ مشاكل. شاذ جنسياً؟ شاذ الطباع؟ هذا النوعُ من الكلمات يملأ الملفّات التي جمعها جيه. إدجار هوفر أو الاستخباراتُ السوفييتية أو النازية. هذه هي الكلمات التي يحبُّ الجبناءُ أن يصفوا بها الشجعان الذين يتحدُّونهم، أو يمثّلون خطراً وجودياً على أنظمتهم غير الشرعية أو الفظاعات غير العادلة التي يمارسونها.

ونهمس بهذه الصفات لأنفسنا عندما نشعرُ بالحرج من حرية الناس الذين يملكون الثقة ليكونوا أنفسهم.

إنه توازن صعب ذاك الذي نتوقّع من الناس فهمه. نريدُ من الجميعِ أن يكونوا أعضاءَ في فريق واحد. نريدهم أن يندمجوا في الثقافة. في الحياةِ العسكرية يتوقعون منهم أن يلبسوا الزيَّ المُوحَّد ذاته، بل حتى أن يلتزموا بشكل حلاقة واحد. نريدُ من الناس أن يفعلوا كما يؤمرون، أن ينفّذوا التعليمات...

ثم، وبشكلٍ ما، نتوقّع أن يزدهر الفكر الحرّ فيهم، وأن تهبطَ الاختراعاتُ والأفكارُ الجديدةُ من السماء، وأن يُقْدِمَ الناس على تضحياتٍ رائعةٍ وأفعالٍ شجاعة. كما لو أن هذه أمورٌ قابلة للوجود في عالمٍ من الطاعة والانصياع.

الهدف من هذا الضغط هو ترويض حدّة مواقف الناس، والتقليل من مقاومتهم... وإلا. وإلا ماذا؟ لا بد لنا أن نسأل. نقرأ في سفر المزامير 27: « إِنْ نَزَلَ عَلَيَّ جَيْشٌ لاَ يَخَافُ قَلْبِي. إِنْ قَامَتْ عَلَيَّ حَرْبٌ فَفِي ذلِكَ أَنَا مُطْمَئِنٌّ».

لا يهمّ من يهاجمك وعددهم، لا بدّ لك من أن تكون نفسك.

بثقة. بصدق. بشجاعة.

من سخرية القدر أنَّ نسويةً رائدةً مثل فلورنس نايتينجيل انتقدت النساء اللّواتي حاولن «التشبّه بالرجال». ببساطة كُنْ نفسك... ذلك قصدها، لا نريدُ لأحدٍ أن يُقلِّد بغباءٍ أيَّ أحدٍ آخر، أو أن يَرفُضَ آخر بشكل غريزي. كلّنا نواجهُ توقّعات الناس وصورهم النمطية، ونقاومها، لكن لا بأس في الوقت نفسه بتذكّر نصيحة سينيكا: لسنا بحاجةٍ إلى معاكسة القطيع في كلّ صغيرةٍ وكبيرة. لا حاجة بنا إلى الاختلاف لمجرّد الاختلاف. الثورةُ السخيفةُ قابلة لأن تكون آلية دفاعٍ بحدّ ذاتها. وإذا قرّرنا التماهي خارجياً مع الجميع، فمنَ الأجدر بنا أن نتأكّد

تماماً من أنَّ الداخلَ مختلفٌ في كلِّ شيء. من أننا حقاً من نريدُ أن نكون، تماماً كما نريد في أعماقنا أن نكون.

شجاعة الاختلاف هي شجاعة التفكير المختلف، أن نرى ما لا يراه الآخرون، وأن نسمعَ ما لا يسمعون. ليس من المصادفة أن كثيراً من الفنانين والناس الذين فضحوا الظلمَ كانوا غرباءَ في مجتمعاتهم، ذلك أن غرابتهم هي تحديداً ما سمح لهم برؤية ما عجزَ الجميعُ عن رؤيته.

كُنْ شرطياً. كُنْ جندياً. كُنْ فيلسوفاً. كُنْ موسيقياً آخر في تقليد موسيقى الروك القديم. احتضنْ يدَ أحدهم. لكن تأكّد من أنك في العمق تتصرفُ كنفسك. من أنَّكَ لا تسمحُ للخوف بأن يُسكِتك أو يُقعِدَك. من أنّك لا تفعلُ ما يفعلهُ الجميعُ لمجرّد أنَّهم يفعلونه.

كن أصيلاً. كُنْ نفسك. أن تكون أيّ شيءٍ آخر يعني أن تكون جباناً.

لا تدع آراء الجبناء تؤثّر فيما تقوله أو تفعله. المستقبل يعتمد على ذلك.

الحياة تحدث في العلن.
اعتد على ذلك.

أراد جيري وينترو أن يكون ممثلاً.

نجحَ في الدخول إلى مدرسة المسرح نايبورهود بلايهاوس. ودرس على يد ساندي مايزنر. وكان من بين رفاق دُفعتِه الممثّل جيمس كان. ثمة سببٌ لكونك رأيت أفلاماً يظهر فيها جيمس كان ولمْ ترَ أيّ فيلم يظهر فيه جيري وينترو، وذلك السببُ هو الخوف.

أو بالأحرى الخوفُ في هويّته الأخرى: العارُ.

طُلِب من الاثنين، جيري وجيمس، شراء ملابسَ لمادة الرقص (التي كانت تُدرِّسها مارثا جراهام ذات نفسها)، فذهبا معاً. وعندما ارتدى بنطال الرقصِ الضيّق، نظرَ جيري، وهو ابن حيّ برونكس المعتدّ بذاته، إلى المرآة نظرةً واحدةً، وعرف أنه لا يريد أن يظهر في العلن بهذا المظهر أبداً. أما جيمس كان، وهو ابن الحي ذاته ووالده كان جزّاراً، ويربطه بجيري الاعتداد بالذات نفسه، فنظرَ في المرآة نفسها لكنه لم يَدعْ وعيه بذاته يربح المعركة.

كما كتب المؤلفُ ريتشْ كوهين: «كان هذا هو الخطُّ الفاصلُ، لحظةُ الحقيقة. لَبِسَ جيمس كان البنطال الضيّق والحذاء ولذلك ظهر اسمه في قائمة الممثّلين في أعمال مثل The Godfather حيث مثَّل شخصية سوني كورليون. بينما جيري وينترون لم يلبس البنطال الضيّقَ والحذاء، بسبب إحساسه الطبيعيّ والمقبول بالعار، ولذلك ظهر اسمه في الفيلم تحت مسمى (مُنْتِج)».

أحدُهما ترشّح لجوائز الأوسكار، بينما الآخر قام بإنتاج فيلم The Karate Kid. الاثنان نجحا، ولكن واحداً منهما وحسب حقَّقَ هذا الحلم المشترك. واحدٌ منهما وحسب وقف بشجاعة وجسارة أمام الكاميرا ونَجَحَ.

مع أن معظمنا لا يكسبُ معيشَتَهُ من العمل أمام الكاميرا، لكننا جميعاً نضطرُّ لمواجهة هذا النفورِ من أنْ نُرى. خوفنا مما سيظنُّه الآخرون، من الإحراج أو الغرابة، ليس ذات الخوف الذي يقيّد الإنسان وقت الهجوم في المعركة، لكنه خوفٌ يحدّ من قدراتنا، ونقصٌ في الشجاعة يَحرِمُنا قَدَرنا أيضاً.

لا يوجَد تَغيُّرٌ، أو محاولةٌ، أو تجربةٌ، لا تبدو غريبةً لأحد ما. ويكادُ ينعدم الإنجاز الممكنُ تحقيقه من دون جذب الانتباه. أنْ تراهن على نفسك يعني أن تُخاطرَ بالفشل. وفِعلُ ذلك في العلن مُخاطرةٌ بالإذلال.

كلّ شخصٍ حاول يوماً مغادرة منطقة راحته يعلمُ ذلك.

لكننا رغم ذلك نكادُ نفضّل الموت على عدم الراحة.

لاحظ الكوميديان جيري ساينفيلد مرةً أن الناس يعتبرون أن الخوف من الخطابات العلنية أسوأ من الخوف من الموت، ويعني ذلك أن الشخص العادي إذا حضر جنازةً يُفضِّل أن يكون في التابوت على أن يقف على منبر التأبين.

لعل روما القديمة لم تعرف خطيباً أفضل من كراسوس، المشهور بخطاباته الرائعة ومرافعاته ضد الفساد والشر. هكذا على الأقل ظهر أمام جمهوره. ما كانَ لكَ أنْ تعرفَ، كما اعترف لاحقاً، أنه في بداية كل خطاب يشعر «برجفةٍ تعتلي أفكاري كلها وأطرافي كلها». حتى بَعدَ أن أصبحَ الأستاذ الخبير، بقيَ الشكُّ يراودهُ، وظلَّ يشعرُ بموجاتٍ من القلق العارم والخوف من الإخفاق في كل مرّة اعتلى فيها المنبر.

في بداية مسيرته كانت الحالُ أسوأ من ذلك حتى. يسردُ امتنانه ودَيْنَهُ الأبديين لقاضٍ استطاع أن يَنْتبه في أحدِ خطابات كراسوس الأولى كم أن ذلك الولد «أعجزَهُ الخوفُ، وأفْقدهُ عزيمته» فأجّل المرافعة إلى موعدٍ آخر. نستطيعُ أنْ نتخيل تلك الكلمات الرحيمة التي قالها القاضي، الذي جَنَّبَ كراسوس ما تمنى أن يتجنّبه بالتأكيد. لا بد أنه تمنّى ألف مرة، وأن أمنيته تلك لم يسبقها إلا أمَلهُ في أن تَسقطُ عليه صاعقةٌ فتقتله بدلاً من أن يُضطرَّ إلى الترافع.

ولكننا ما كنا لنتحدث عن كراسوس لولا أنه تَقحَّمَ طريقه عبر ذلك الخوف.

ألم يكن يُفضّلُ أن يمارس القانون من مكتبه؟ بالطبع، وأغلب الظن أيضاً أن سيربيكو كان يتمنى لو أن الناس يتركونه يلبس ما يشاء من دون تعليق. هذه هي الحياة. لا تهتم بـما نفضّله. ستضطرُ إلى الوقوف وحيداً من وقتٍ إلى آخر

وإن لم تستطع أن تقف لتقديم خطابٍ، فكيف يمكن لك أن تمتلك الشجاعة عندما تحتاج إلى الفعل؟

عليك أن ترتدي البنطال الضيّق، وأن تمضي على الرغم من خوفك من خشبة المسرح الذي يستمرُّ حتى بعد أنْ تتمرّس في فنّ مخاطبة الجمهور. عليك أن تدخلَ إلى منصة الشهود. أن تنقل الأخبارَ السيئةَ للموظفين المجتمعين. أن تتعلّمَ التوقف عن التفكير فيما يظنّونه. لن تقومَ بعمل أصيل إذا كنت عاجزاً عن فعل ذلك. لا بدّ لك من أن تكون مستعداً للابتعاد عن القطيع، ولكن الابتعاد أمامهم: كي تستطيع أن تقول ما تفكّر أو تشعر فيه حقاً. إنها تُسمى «الحياة العامة» لسبب.

ليس بمقدورنا النجاحُ في خصوصيتنا.

هذه مفارقةٌ ساخرة، فالرواقيون يقولون إننا على الرغم من كل اعتباراتنا الأنانية بخصوص أنفسنا، نُقدِّر آراء الناس الآخرين فينا أكثر من آرائنا. يقول إبكتيتوس وهو العبد الذي كسب حريته: «إذا رغبت في أنْ تتحسن، فاقبل بأن تبدو عديم المعرفة أو غبياً». أتستطيعُ فعل ذلك؟ سوف تضطر إليه.

عندما نهربُ نحو الراحة، نحو تجنُّبِ امتعاضِ الآخرين، نحو الوقوف في مؤخرة الغرفة بدلاً من مقدمتها، فإن الذي نهربُ منه هو فرصتنا. عندما نُذعِنُ للخوف، عندما نتركه يُقرِّرُ ما الذي سنفعله ولن نفعله، فإننا نخسرُ الكثير. لا نخسر فرصة نجاحِنا وحسب، بل فرصة تحقيق ذاتنا.

من سنكونُ لو لم نكترثْ بالاحمرار خجلاً؟ ما الذي نستطيعُ إنجازهَ إذا لم نمانع من تسليط الضوء علينا؟ إذا كنا أقوياءَ بما يكفي للبس بنطالٍ ضيّق؟ إذا لم نكن مستعدين للإخفاق وحسب، بل أيضاً للإخفاق أمام الآخرين؟

أيُّ تقليدٍ ستختار؟

تخيَّل الرعبَ الوجوديَ الذي واجهه الإنسان القديم. تخيّل مشقّةَ إنجاب طفل في عالم مُعدَّل النجاةِ فيه أقل من 50%. تخيَّلْ أن تكون تحت رحمة الملوك وعوامل الطبيعة أيضاً، أن تعيش على مدى انهياراتٍ وكوارث وحروبٍ ومخاوفِ الوجودِ مُنعدِم اليقين.

وماذا فعل الناس آنذاك؟

استمروا في المضيّ قدماً. استمرّوا في أيّ حال.

الناس الذين عبروا على جسور اليابسة نحو القارات الجديدة، والذين أعادوا البناء بعد الحرائق، والذين ارتدوا دروعهم وركضوا نحو المعركة، والذين طالبوا بحقوقٍ غير قابلةٍ للمصادرة من حكوماتهم، والذين حدَّقُوا إلى الحشود الغاضبة، والذين تفادوا العبودية أو مواجهة حتفهم في عتمة الليل، والذين استكشفوا جبهاتِ العلم. هؤلاء الناس، في آخر المطاف، بشكل مباشر وغير مباشر قد شكَّلوكَ. دمُهم يجري في عروقك. وجيناتهم منبعثة في جيناتك.

حتى إن لم تكن من عائلة مشهورة، وحتى إن كنت من أقليةٍ مضطهدة، فإنك تتحدر من أناس قد قاتلوا ونجوا. قال جيمس بلدوين شارحاً لابن أخيه: «إنك تتحدَّر من أصل ريفي متين، رجال قطفُوا القطن وبنوا السدودَ في الأنهار وسككِ الحديد، وعلى الرغم من أصعبَ العوائق وأكثرِها رعباً، حققوا كرامةً عملاقةً غير قابلة للنزع».

ألا يتحدَّر أيضاً من أناس كانوا خائفين؟ طبعاً. كلنا كذلك. ولكننا نختارُ التقليد الذي سوف نتبعه. قال زينوفون لرجاله الخائفين العالقين في بلاد فارس: «إني أُذَكِّركم بالأخطار التي مرّ بها آباؤنا أيضاً، كي تستوعبوا أن الصحيح لكم هو أن تكونوا شجعاناً، وأنه بمساعدة الآلهة، الشجعان يجدون السلامة حتى في أسوأ الصعوبات».

علينا أن نتذكَّر أنَّ التاريخَ لا يعجُّ بالقصص الخيالية، بل باللحم والدم، بقصص أناسٍ حقيقيّين، مثلك وليسوا أفضل منك، أو أكثر «صحّة» منك على الأقل، واجهوا القدر، وتلقَّوا ضرباته، وقدّموا أفضل ما لديهم. لقد أخفقوا، وارتكبوا

أخطاء، ووقعوا من ضعفهم، ولكنهم تمكّنوا من النجاة. نجوا بما يكفي بحيث بدأوا الأحداث التي تقودنا اليوم نحو الأمام. هم في بعض الحالات آباؤنا وأمهاتنا حرفياً، وفي حالاتٍ أخرى هم كذلك مجازيّاً فقط.

وكان هنالك جبناءُ أيضاً، ولكننا نستطيع أن نزيلهم من شجرة العائلة.

حين يتملّكنا الخوف، يمكننا الالتفات نحو الذين جاءوا قبلنا. نستطيع أن نزور الصروحَ التي أعلَوهَا. نستطيعُ أن نقرأ الوثائق التي كتبوها. لأن هذا تقليدنا.

لقد مرّروا الشعلة لنا. هل سنقبلها؟

تقدرُ أنْ تستمعَ إلى فلورنس نايتينجيل في سنوات شيخوختها على تسجيل قديم على شكل أسطوانة شمعيّة، وهي تقول: «عندما لا أعود حتى ذكرى، وأصبح مجرّد اسم، أتمنى أن يخلّد صوتي أعمال حياتي».

لا يمكنك أن تخاف من السؤال

يعلمُ من يتصدَّون للطوارئ والكوارث على الخطوط الأمامية أنَّ وظيفتهم هى الاندفاعُ نحو الانفجار بينما يهرب الآخرون منه. الأبَوان يعلمان أنهما يَضَعان مصالحهما واحتياجاتهما تحت احتياجات طفلِهما ومصالحه. والمبتهجونَ على الدوام يعلمون كم يتطلّع إليهم الآخرون بحثاً عن ابتسامةٍ وعن شيءٍ من الأمل.

ولكن هل يعلم هؤلاء الناس أن بمقدورهم طلبَ المساعدة أيضاً؟

هل تعلمُ أنتَ ذلك؟

أم أنك خائف؟

تاريخياً، كان الرواقيون أقوياء صلبين. وشجعاناً. وأدّوا واجبهم... بلا تذمّرٍ، وبلا تردّدٍ. تحمّلوا العبء بشجاعة، وفعلوا ذلك طوعاً خدمةً للآخرين حين اقتضت الضرورة. لكن من الخطأ الافتراضُ أن قدراتهم كانت بشكلٍ ما خارقة للقدرات البشريّة، أو أنهم لم يعانوا أو يترددوا قطّ، أو لم ينقصهم شيءٌ أبداً. لقد اضطروا -كما نضطرُّ جميعاً- لطلبِ المساعدة حين احتاجوا إليها.

وما كانوا يخشون ذلك أيضاً. لأن طلب المساعدة يكون أحياناً أقوى وأشجع ما يمكن فعله.

كتب ماركوس أوريليوس: «لا تشعر بالخزي من طلب المساعدة. إنك مثلُ الجندي الذي يندفعُ في المعركة نحو الجدار، لديك مهمةٌ لا بد من إنجازها. وإذا أصبتَ بجرحٍ واحتجت أنْ يَسحبَك أحدُ رفاقك؟ فما المشكلة؟».

تماماً. ما المشكلة؟

إنك تبحثُ عن يدٍ تساعدك في الوقوف مجدداً، وليس عن يدٍ تمنحك صدقة. إنك تبحثُ عن النصيحة. لست تبحثُ عن إعفاء. إنك تسعى لعلاج جروحك كي تستطيع العودة إلى المعركة. إنك تجهزُ بتجربتك، ليس لتحصل على الشفقة

والاهتمام، بل كي لا يتكرّر الشيء ذاته مع أحدٍ آخر. إنك لا تبحث عن أفضليّة غير عادلة. بل تستغلُّ الفرصَ وأشكال الحمايةِ التي صُمِّمَت لتساعد في مثل حالتك تحديداً.

يمتنع المدمنُ لسنواتٍ عن طلب المساعدة، خائفاً من الاعتراف بأنه عاجز. ولسنواتٍ أيضاً، يجلس المدير التنفيذي خلف مكتبه، يتصارع مع متلازمة المحتال[9]، خائفاً، لا يسأل أحداً إذا كان الشعور نفسه يساوره. ولسنواتٍ أيضاً، تقبع الأم إلى جانب الكلب الأسود المخيف الذي هو الاكتئاب، مؤدّيةً واجبَها نحو أطفالها، وخائفةً من المطالبة بأن يساعدَها شخصٌ ما هي أيضاً. كذلك المحاربُ القديمُ الراجعُ من الحرب، يخفي أَلَمَهُ لسنواتٍ في داخله، متكتّماً على الكلفةِ الحقيقيةِ للبطولة، لخوفه من أن يبدو ضعيفاً.

إننا نخاف الإفراجَ عن مكنونات صدورنا. نخاف أن نشارك. لا نريد لأحدٍ أن يدرك ما نشعر به في الداخل... ولذلك يزداد شعورنا بالوحدة. أيُّ قوّةٍ نحتاج إليها لنهزم هذا الخوف. وأيُّ ألمٍ يتسبب به العجز أو عدم الرغبة في هزيمة الخوف.

عندما يسألُ الطالبُ سؤالاً، ما الذي يحدث؟ يتعلّمُ شيئاً لم يكن يعرفه. عندما يكشفُ صديقٌ ضعفاً لآخر، ما الذي يحدث؟ تصبح الصداقة أقوى. عندما يعترف الموظّفُ بأنَّ حجم العمل أصبح أكبر من قدرته على الاحتمال، ما الذي يحدث؟ يتمّ توظيفُ شخصٍ آخر وتصبح الشركةُ أكثر كفاءة. عندما يمتلك أحدُهم الشجاعةَ ليجهرَ بشيءٍ مشينٍ فعله أحدهم به؟ يندفع المجتمع نحو التصرّف. فيأتي أحدٌ ما لمساعدته ووضع حدٍّ لما يجري.

أحياناً، يكون الطلبُ خَرقاً بحدّ ذاته، فالاعتراف يحرّر شيئاً ما داخل الإنسان. عندها نصبح أقوياء بما يكفي لحلّ مشكلتنا.

كلّما ازدادت أسرارنا ازدادت معها أمراضنا. نقبع تحت رحمة المخاوف التي لا نجرؤ على البوح بها بوضوح، مشلولين بافتراضاتٍ نرفضُ أن نضعها قيد الاختبار.

لا بأس في أنْ تحتاج دقيقةً من الزمن. لا بأس في أنْ تحتاج يداً تساعدك، أو طمأنةً، أو خدمةً، أو غفراناً، أو أياً كان. أتحتاج إلى العلاج النفسي؟ اذهب! أتحتاج إلى أن تبدأ مجدداً؟ لا بأس! أتحتاج إلى أن تُهدّئ من روعك على كتف شخصٍ ما؟ طبعاً!

لن تحصلَ على شيءٍ إن لم تطلبه. لن تحصل على ما تخاف الاعتراف بحاجتك إليه. ولذلك اطلب الآن، فوراً، بينما لديك الشجاعة. قبل أن يتأخّر الوقت.

نحن في هذه المهمة معاً. رفاق. اطلب المساعدة. ليست هذه شجاعةً وحسب، بل الشيء الصحيح المتوجّب فعله.

عندما نرتقي إلى أعلى...

«الخوفُ قبل خوض المعركة ردةُ فعلٍ عاطفيةٌ طبيعية. إنها الخطوة الأخيرة في التحضير، مرحلة عدم المعرفة... هنا سوف تثبتُ أنك جنديٌّ جيّد. فالمعركةُ الأولى، أي معركتك مع نفسك، انتهت، وأصبحت جاهزاً لقتال العدوّ».

ARMY LIFE (العسكرية)، 1944

ثمة سببٌ للخوف.

في الخوفِ منطق. وإلا لما وُجِدَ فيزيولوجياً. اعتبارُ الحفاظ على الذات فيه فائدةٌ أساسية وهي إبقاؤك حياً، من بين فوائد أخرى.

ولكن السؤال ليس: هل هنالك نفعٌ في الخوف؟ طبعاً فيه نفعٌ. بل السؤال هو: كيف ستكون الأحوالُ لو تصرّف الجميع من منطلق الخوف طوال الوقت؟

إننا نعلم الإجابة. ستكون الحال جحيماً. وستصير الحياة مرعبةً، إذا تمكّنّا بالفعل من تخيّلها.

ولذلك، كما عبّر جورج برنارد شو، فإن الإنسان العقلاني يتأقلم مع العالم، بينما التقدّمُ (الأملُ) يعتمدُ على شجاعة الإنسان غير العقلاني. من المنطق أن نخاف. أن نتجنَّبَ المخاطرة، أن نراعي الآخرين. أن نقبل المساومات. هذا نوعٌ من الأنانية، ولكنه بالتأكيد آمن.

لدينا عددٌ لا يحصى من التعابير والأمثال التي تذكّرنا بذلك: الزهرةُ التي ترتفع أعلى من غيرها تُقطع. لا تسبح ضدّ التيّار. لا يمكن ربح البيروقراطية.

ولكن، إذا آمن الجميع فعلاً بهذه الأقوال، وإذا صار الخوفُ حاكماً مطلقاً، ستصبح هذه التعابير حقائقَ فعليةً، ولن ينتصرَ الخيرُ على الشر أبداً، كما لن يجد التجديد طريقه عبر الحالة القائمة الراكدة، ولا شيء سيتحسّن أبداً.

من المستحيل أن يكون هذا ما نرغبُ فيه. من المستحيل أن يكون ذلك ما وُجِدنا على هذا الكوكب لفعله.

قد ينطبق ذلك على بعض الناس، بالطبع. ولكنه لا ينطبق عليك.

إننا نختار أيَّ صوتٍ سنستمع إليه. نختارُ السلوكَ الآمنَ، أو التفكيرَ المحدودَ، أو الخوفَ، أو إطاعةَ الأعراف، أو الاختباءَ، أو التهكّم المرير. نختارُ ما إذا كنّا سنحطِّم هذه المخاوف ونمضي في طريقنا الخاص، ما إذا كنّا سننظرُ إلى الجانب الضيّق من الجسر فنعود أدراجنا... أو نستمرُّ نحو الأمام.

أنْ نَمتلكَ الشجاعة؟ أنْ نتجاسرَ في وجه المخاوف؟ هذا خيارُنا. لسنا مضطرين لفعله.

ولكننا لا يمكننا الهروب من حقيقة أن كلّ الأشياء الجيّدة في حياتنا تعتمد على امتلاكنا الشجاعة.

ما نريده في الحياة، ما يحتاج إليه العالم.... كلُّهُا أمورٌ نجدها فقط على الجانب الآخر من الخوف. كلُّهُا أمورٌ لا نصل إليها، إذا ما اخترناها، دون المرور بالشجاعة.

الجزء الثاني
الشجاعة

«آه، أن تناضل ضد الفرص غير المتكافئة، أن تواجه الأعداء ببسالة!

أن تواجههم بمفردك تماماً، لتعرف مقدار ما يمكن للمرء أن يتحملَّه!

أن تواجه النزاع، والتعذيب، والسجن، وكراهية الناس، وجهاً لوجه!

أن تتسلَّقَ المقصلة، أنْ تتقدّمَ نحو فوّهات البنادق بلا مبالاة مثالية!

أن تكون إلهاً حقاً!».

والت ويتمان

الشجاعة هي إدارة الخوف والانتصار عليه. إنها القرارُ الذي يتّخذه المرء، في لحظة خطرٍ أو في الحياة اليومية، بتحمّل مسؤوليّته، والتأكيد على قوّته وقدرته على التأثير في وضعٍ محدّدٍ ما، أو في نفسه، أو في المصير الذي استسلمَ الآخرون أمامه. نستطيعُ أنْ نلعنَ الظلام أو أن نشعل شمعة. نستطيع أن ننتظر أن يأتي أحدٌ وينقذنا، وفي إمكاننا أيضاً أنْ

نقف وننقذَ أنفسنا. فأيّ الاثنين ستختار؟ كلّ بطلٍ يواجه خياره. لحظة الاختيار الفارقة والحاسمة: discrimen. لحظة الحقيقة. هل ستكون شجاعاً؟ هل

ستواجه على الأرض؟ ما الذي ستتكشّفُ شخصيَّتُك عنه؟ إذا كان الجبن هو عدم أداء واجبك، فالشجاعة هي قرارُ النهوض وأداء ذلك الواجب. تلبية النداء، وتجاوزُ الخوف واغتنامُ قدرك. أنْ تفعل الشيء الذي لا يمكنك فعله لأن عليكَ فعله... بصلابةٍ وروحٍ عاليةٍ، بجرأةٍ وعزمٍ، حتى إن لم تكن تعرفُ قابليّتك للنجاح. لن يكون ذلك سهلاً. لكن لا يمكننا أن نخاف. لا بدّ لنا، كما قال شكسبير، من أن: «نلاقي الزمن، وهو يتقدّم نحونا». قدرُنا هنا. فلنغتنمه.

النداءُ الذي نلبّيه...

رجلٌ واحد أنقذ فرنسا. ارتأى شارل ديغول أنها بلادٌ تستحقُّ الإنقاذ، وهو وحده تمكّن من ذلك.

سقطت فرنسا أمام القوّات الألمانية في يونيو 1940. اجتاحت الدباباتُ فرنسا، واجتاحها أيضاً خوفُ قادتها الذين سارعوا في صمتٍ للمفاوضة على الاستسلام أمام أسوأ معتدٍ في التاريخ الحديث. رَكِبَ ديغول طائرةً صغيرةً متوجهاً إلى إنجلترا، وكانت إحدى أكثر رحلات الطيران رعباً في حياته. لم يرعبه فقط أن طائرته كانت عرضةً للإسقاط بسهولة أو أنه كان معرّضاً لخطر القبض عليه قبل الإقلاع، ولا حتى أنّ الكثيرَ من رحلات الطيران الأخرى، ومن ضمنها تلك التي ستنقل أفراد عائلته، تحطّمت ومات كلّ من على متنها. يقول متذكّراً تلك الرحلة القصيرة التي دامت ساعة ونصف الساعة: «وحيداً ومحروماً من كلّ شيء، مثل رجلٍ على طرف محيط كان يأمل أن يعبره سباحةً... شعرتُ بأنَّ الحياةَ تنتهي، تلك الحياة التي عشتها ضمن إطار فرنسا قوية وجيشٍ لا ينقسم».

لم يكن ديغول وقتها قائد فرنسا المنتخب. ولا كانت عائلته ملكية. كما أنه لم يكن قد بلغ أعلى رتبة عسكرية حتى. تعدّى بالطبع المواطن العادي في حينها، إذ تمّت ترقيته حديثاً إلى رتبة عميد ومساعد وزير الدفاع، وكان الوحيد الذي يحثُّ رئيس الوزراء على ضرورة أن تدخل فرنسا في الحرب لتجنّب السقوط في الهاوية. لكنه كان أيضاً مجرد رجلٍ، رجلٍ غير مستعدٍ لأن يستسلم، ولا لأن تستسلم بلاده.

ولذلك لم يستسلم.

التقى بتشرشل بعد وقت قصير من عبوره القناة وهبوط طائرته في إنجلترا، وعُرِضت عليه فرصة التحدث على قناة بي بي سي في اليوم التالي. لم يملك ديغول جيوشاً، وبالكاد امتلك أيّ مالٍ، ولم تكن لديه خطة، ولا الصلاحية لرسم خطة، لكنه على الرغم من ذلك انتصر.

لقد قيل من قبل إن «رجلاً شجاعاً واحداً يشكّل أكثرية»، وكذلك كانت حال ديغول.

يقول في ذلك الخطاب المشهور: «أقول لكم لا شيء قد ضاع من فرنسا، الأدواتُ نفسها التي اجتاحتنا قابلةٌ في يوم ما لأن تحقّق النصر لنا. ففرنسا ليست وحيدة! ليست وحيدة! ليست وحيدة!»

ولكنها كانت وحيدةً فعلاً.

كان ذلك الخطاب موجهاً بشكلٍ رئيسي إلى آلاف الجنود الفرنسيين الذين استطاعَ البريطانيون إجلاءهم. لقد نادى عليهم للقتال معه، للقتال من أجل بلاده. بدلاً من ذلك، طَلَبَ أكثرهم إعادتهم إلى وطنهم، إلى جمهورية فرنسا الفيشية التي أنشأها النازيون. معلّمُ ديغول القديمُ ورئيسه، الجنرال فيليب بيتان (أعظم أبطال فرنسا في الحرب العالمية الأولى) تواطأ مع الألمان واستعملَ سمعته ليمنح الشرعية للجمهورية الجديدة الخاضعة لهم. أيّ فائدةٍ كانت في استمرار القتال؟ من يستطيعُ أن يوقف مسيرة هتلر الرهيبة؟

عندما حان وقت اختبارِ الصوت قبل الخطاب، لم ينطق ديغول سوى بكلمةٍ واحدة: فرنسا. كان يؤمن بتلك الأمّة بصدقٍ وإخلاصٍ، وبصرف النظر عن المنطق والحقائق. يؤمنُ بأنَّ استسلام بيتان غير شرعي. ذلك هو النجم الذي اهتدى به، بصرف النظر عن عدم عقلانية الأمر. آمن ديغول بأن فرنسا قابلة للإنقاذ.

كانت الوقائع سوداوية: ديغول، وزوجته الشجاعة وأفراد عائلته الذين هربوا من دون عون، وبعض الضبّاط (الذين اختار تشرشل أن يدعمهم بقوّة بريطانيا) كانوا كل ما تبقّى لدى فرنسا...

هل كان ذلك كافياً؟

يسأل أندريه مالرو، وهو كاتبٌ وزعيمٌ للمقاومة، شارل ديغول في آخر حياته: «في كل شيءٍ جوهريٍّ فعلته في حياتك، ألم تكن دوماً ضمن الأقلّيّة؟».

فأجابه ديغول: «كنتُ ضمن الأقلّيّة، أتّفق معك». ثمّ أضاف بعدها: «لكنني كنت أعلم أنني عاجلاً أم آجلاً لن أبقى كذلك».

من أقوال نابوليون المشهورة، ولعلّه البطل الفرنسي الوحيد الذي يضارعُ ديغول في إنجازاته: «لا يضيعُ شيءٌ إذا بقيت الشجاعة». امتلك ديغول

الشجاعة لتقبُّلِ المسؤولية، لحَمل عبء القيادة على كتفيه، لمقاومة انعدام الأمل، واختار بدلاً من ذلك، وبضراوةٍ تكاد تكون حيوانية، طريقَ المحارب، طريقَ شخصٍ لن ينكسر.

كما في زمننا الحالي، كان الاعتقاد بالنظرية القديمة التي تعتدُّ بـ«الرجل العظيم في التاريخ» ضعيفاً في منتصف القرن العشرين. أيستطيعُ شخص واحدٌ أنْ يُغيِّر العالم حقاً؟ أنستطيع أن نُحدِث فرقاً حقاً أم لا بدّ لنا من الاستسلام أمام السيطرة الساحقة للزمن ومساقاته؟

كتب ديغول قبل الحرب: «تَدَخُّلُ الإرادةِ الإنسانيةِ في سلسلة الأحداث ينضوي على جانبٍ لا رجعة فيه. تضغطُ المسؤوليات علينا بثقلٍ ضخم لا يَقدِرُ سوى رجال قلائل على تحمّله وحيدين. لهذا، لا يكفي الذكاء مهما لمع. لا شكَّ في أن الذكاء يساعد، والغرائز تدفع خياراتنا، لكنّ اتّخاذ القرار ينضوي على اعتبارٍ أخلاقيّ.

وعلى الرغم من ذلك، لا يجوزُ أن نقلّل من قيمة العامل الفيزيائي. تمّت محاكمة ديغول غيابياً في فرنسا الفيشية وحُكِم عليه بالإعدام. وكان قد أصيب بجروح عدّة في الحرب السابقة (من ضمنها جرح بحربة بندقية)، وقضى وقتاً سجين حربٍ، وحاول الهرب مناضلاً بلا خوف ومُعرِّضاً نفسه لخطر شديد. تخيّل أيضاً شجاعةَ زوجته التي تسلّمت موقعاً في قارب الهروب لتنقل ثلاثة أطفال يافعين من ضمنهم واحدٌ يعاني من متلازمة داون، وقادتهم بأمانٍ إلى لندن فيما الأعداء يحومون للعثور عليهم. في العقود التي تلت ذلك، تعرَّض ديغول وزوجته لثلاثين محاولة اغتيال جديَّة. في إحدى هذه المحاولات ملأ رصاص الرشاشات السيارة، وتحطّمت نوافذها، وثُقِبت كلّ العجلات، ثم خرجتْ إيفون بلا جروحٍ وسألتْ بهدوء عن البقالة التي كانت في صندوق السيارة. كما سخرَ ديغول ممن حاولوا قتله قائلاً: «هؤلاء الناس يطلقونَ الرصاص كالخنازير». هذه عائلة أطبقت السيطرة على الخوف، بل تعالت فوقه حتى.

بما أننا نعلم أن ديغول انتصر في آخر المطاف، نختارُ أن نتذكّر فرنسا موحَّدةً في مقاومة المحتلّين. ولكن للأسف، لم تكن الحال كذلك. كان الناسُ خائفين، واختلقوا الأعذار. نظروا إلى فارق القوى على الأرض وأكّدوا لأنفسهم أن الأملَ معدومٌ. وكانوا مستعدين، بشكل صادم في الواقع، لقبول قيودِ هتلر، ولتقديم أنفسهم عبيداً للأهداف النازية إذا ما كان ذلك سيعني عودة الحياة إلى طبيعتها بسرعة. استُعمِلت العمالةُ الفرنسية لتشغيل آلة الحرب الألمانية. وأُرسِلَ عدد لا يحصى من اليهود الفرنسيين إلى موتهم[10].

إن جبن الآخرين هو ما يخلق فرصاً للبطل الفرد. كتب ديغول في العشرينات: «عندما تصبح الأحداثُ فظيعةً، والخطرُ وشيكاً، فإن نوعاً من الموج العملاق يَدفعُ بالرجال الأقوياء إلى الصفوف الأمامية». الأحداثُ التي مرَّ بها ديغول فظيعةٌ وملحّة، وكذلك حالُكَ في هذه اللحظات ربما. كان ديغول مستعداً لتلبية النداء. وكان هو نفسه يصدح بالنداء إلى الآخرين، مرحّباً بكلّ من يبدي استعداداً للانضمام إليه.

بعض الناس يهربون. بعض الناس ينهضون ويتصدّون للواقع. الأمر بهذه البساطة.

شجاعة ديغول جزءٌ مما ألهمَ المقاومةَ الفرنسيةَ. وقد أدانتْ، صراحة وضمنياً، مواطنيه الذين نقصتهم الشجاعة في القتال. قادَ هتلر مناصريه بالخوف. مثل الشيطان، حَرَّضَ الناسَ على أسوأ ما فيهم، وشجَّعهُم عليه. وهذا ما جعل ديغول عظيماً إلى ذلك الحد: لم يقدِّمْ وعوداً، بل مطالب. إن المقاومة واجبك، كما قال. تنادينا قوة عليا، إلى قضية عليا. لا بد أن نحرر أنفسنا. في آخر المطاف، انضم حوالى أربعمئة ألف فرنسيٍّ وفرنسيّة إلى المقاومة، ففجَّروا الجسور، وجمعوا معلومات الاستخبارات، وقاموا بعمليات تخريب ضد المحتلّين، وأنقذوا الناس من المخيّمات، واقتنصوا أعداءهم واحداً تلو الآخر، فأضعفوهم أمام تقدُّم اجتياح الحلفاء.

الشجاعة معديةٌ، مثلها في ذلك مثل الخوف. التزامُ ديغول واستبسالُهُ، هما ما وحَّدَ صفَّ فرنسا، وهما ما وحّد العالمَ كلَّهُ خلفه. كتب رينيه بليفين إلى زوجته، وهو أحد السياسيين الفرنسيين الذين انضموا إلى مسعى ديغول: «أؤكد لكِ أن المرءَ حين يرى كل أولئك الذين هربوا يشعرُ بالفخر لأنه واجه الخطر». وقال مراسلٌ بريطاني شارحاً: «الجنرال ديغول رمزٌ لفرنسا التي لم تيأس، فرنسا التي لم تذعن. لقد تصرَّف وحيداً».

في يونيو من عام 1944، وصل أكثر من مليوني جندي من قوات الحلفاء إلى فرنسا. وفي أغسطس، تحرَّرت باريس. كانت أربع سنواتٍ طويلةً في العراء، وسط ظلامٍ استحكم حتى انبثق منه الفجر. قال ديغول في خطاب الانتصار: «باريس! باريس المستباحة! باريس المكسورة! باريس الشهيدة! ولكنها باريس التي تحرّرت! حرّرت نفسَها بنفسها، حرّرها أهلُها بمساعدة الجيوش الفرنسية، وبدعمٍ ومساعدةٍ من كلّ فرنسا، من فرنسا المحاربة، فرنسا الحقيقية، فرنسا الأبدية!»

تمكّن مراسلٌ إذاعي كان في الجمهور يومها من التقاط اللحظة التطهّرية، كما التقط درامية المشهد. فالحرب لمّا تنتهِ بعد، وجنودُ العدوّ ما زالوا قريبين ولو أبعد من النظر. هدرت أصوات الطلقات النارية. صدعت الانفجارات. ولكن ديغول استخفَّ بذلك كله.

يقول مراسل البي بي سي روبرت ريد بصوتٍ متأثر: «كانت تلك أكثر لحظات حياتي تأثيراً. بدأ إطلاق النار في كلّ مكان... حاول الجنرال ديغول السيطرة على الحشود المندفعة نحو الكاتدرائية. فمشى إلى الأمام بخطٍّ مستقيمٍ نحو ما بدا لي بأنه نارٌ مستعرة... ولكنه مضى متقدّماً بدون تردّد، وكتفاه مشدودتان نحو الخلف، ومشى في الممرّ المركزي حتى عندما انهمرت رشقات الرصاص حوله. هذا أعظم مثالٍ على الشجاعة رأيته في حياتي... تعالت أصواتُ الطلقات النارية ولمعاتُها من حوله، وبدا على الرغم من ذلك وكأنه يعيش لحظاتٍ هادئةً بالكامل».

ومن ثم توجّه الجنرال ديغول إلى شارع شانزيليزيه ليمشي في مسيرةٍ مع ما يزيد على مليون مواطنٍ فرنسي.

تصرّف وحده حتى حدث ما تنبّأ به تماماً، فلم يعد وحيداً بعدها.

الشجاعةُ انتصرت على الشرّ. رجلٌ واحدٌ استطاع أن يصنع أكثرية.

ولكن لا بدّ لنا من أن نفهم وبشكل جوهري أنَّ الشجاعةَ أكثرُ من مجرّد الوقوف في المواجهة. إنها أكثرُ من خيار هرقل بين الطريق السهلة وتلك الصعبة. إذ على المرء أن يمشي في الطريق الصعبة بعد اختيارها.

كم طالت تلك الرحلة اليائسة بعد سقوط فرنسا. من بثٍّ إذاعيّ إلى آخر، بُنيت الدولة من المنفى. واضطرَّ ديغول إلى استعادة السيطرة ببطء وأناة على الحكومات المترامية الأطراف في الامبراطورية الفرنسية. احتاج إلى جمع المال، وإيجاد القادة العسكريين، ولزمه أن يتفوّق على خصومه السياسيين بالمناورة، وأن يشنّ معركةَ علاقاتٍ عامة. ودَخَلَ في مشورةٍ مع الحلفاء بخصوص استراتيجيتهم، وعندما لم تُطلب مشورته كان يضربُ بقبضتيه على الطاولة ويصرخ ويثير عاصفةً مزعجةً بحيث يضطرون إلى إعادته إلى الطاولة. واضطر إلى تفادي القنّاصين حتى أثناء احتفاله بالتحرير.

يقول ديغول: «ما يبدو أن الجميع يتجاهله هو المزيجُ العظيم من الصبر، والتقدّم البطيء، والإبداع العنيد، والأسئلة الملغومة، والحسابات والمفاوضات

والصراعات والرحلات المرهقة والمتتالية التي اضطررنا إلى اجتيازها لتحقيق مرادنا».

هذه المهارات، وكلّ واحدةٍ منها شكلٌ مختلفٌ من الشجاعة، هي التي غيّرت حال فرنسا بعد أن وصلت إلى حضيضها، لتصبحَ واحدةً من القوى المنتصرة مع نهاية الحرب العالمية الثانية. فرنسا ما زالت موجودة، هذا ما أصرّ عليه ديغول. وهذا ما ساعدته شجاعته على إثباته. تمخّضت إرادته عن قصةٍ ضَمنَتْ نجاةَ بلاده. رفضَ أن يدَعَ الفرنسيّين يموتون قبل أوانهم. خطَبَ ببلاغةٍ وإخلاصٍ شديدين عن عظمة فرنسا بحيث تجسّدت كلماته حقيقةً في الواقع.

هل كان ديغول مغروراً في بعض الأوقات؟ هل وقع في أخطاء؟ هل أثار عداواتٍ؟ ألم يكن مُسبِّباً للانقسام والاستقطاب؟ بلى بالتأكيد. دفع ديغول بتشرشل نحو الجنون. ونظر إليه روزفيلت بعين الشكّ. ولاحقاً، عندما أصبح رئيس فرنسا التي حرَّرَها، تسبّب بغضب كافة البشر والمجموعات، من الأمم المتحدة إلى جانبَي الصراع الجزائري، إلى كندا كلها بعد تصريحه الشهير والمسيء»: «تحيا الكيبيك حرة» (Vive le Quebec libre!)، وإلى رؤساء أمريكيين واحداً بعد الآخر: ترومان، آيزنهاور، كنيدي، جونسون. ليس ثمة شك في أن ديغول كان شخصاً يصعب التعامل معه، ويصعب التحكّم فيه، ومن المستحيل تهديده. وإلا ما هو في رأيك السبب الذي دفع الكثيرين لمحاولة قتله؟ ولكن هذا الاستقلال، وهذه الجسارة، كانا مفتاح عظمته، وهما أيضاً مفتاح عظمة أغلبية العظماء.

«يقال إنني شخصٌ لا يسهل التعامل معه»، كذلك يقول ديغول غيرَ مكترثٍ بالنقد، تماماً كما فعل سيربيكو، ويكمل قائلاً: «لو كنتُ كما أرادوا لي، لصرت الآن تحت إمرة بيتان». الشخصُ الذي يمشي في طريقه الخاص، الذي يرفضُ قبول الهزيمة، الذي يؤمنُ بإخلاصٍ في قوّة تأثيره، الشجاعُ بما يكفي ليؤكّد حريته حتى في وجه تهديدات الموت أو الإسقاط، هذا ليس نوعَ الشخص الذي يسهل توجيه الأوامر له أو إرغامه على المساومة.

طبعاً، لم يكن ديغول في الواقع وحيداً بشكلٍ مطلقٍ عندما وقف ضدّ ألمانيا. وليس ذلك بسبب حلفائه وحسب (حلفاء مثل البريطانيين والأمريكيين الذين لم يظهر لهم الولاء اللازم) ولكن لأنَّ من يتصرّف بشجاعةٍ لا يكون وحيداً أبداً.

يقول: «لا أنتمي إلى أيّ أحدٍ، وأنتمي إلى الجميع». آمن ديغول بأنه يؤدّي دوراً في حكايةٍ كبرى، في تقليدٍ عظيم. فإلى جانب رفاقه، كان مجرد لاعبٍ إضافيّ واحدٍ في تاريخ فرنسا الطويل. قال مخاطباً فرنسا الحرة في المنفى إنه «يتبع

خطى الذين خدموا فرنسا منذ فجر التاريخ ويسبق أولئك من سيخدِمونهَا إلى الأبد»، وذلك كي يأتي يومٌ «نقول فيه لفرنسا ما قاله شارل بيجي: ‘يا أمنا، انظري إلى أبنائك الذين حاربوا من أجلك’».

تلك كانت رحلة البطل. أجابَ النداءَ نفسَه الذي أجابَه أسلافُه، النداءَ نفسَه الذي تملك أنتَ فرصة تلبيته، إذا رفضت أنْ تترك الخوف يسيطر عليك، إذا اغتنمتَ قَدَرَك.

قال تشرشل عن ديغول إنه «رجل القَدَر» (l’homme du destin). عندما نتبعُ قَدَرنا، ونغتنمُ ما ينبغي أن يكون مِلكَنا، فإننا لا نكون وحيدين أبداً. بل نمشي عندها إلى جانب هرقل. ونتبع خطوات العظماء. يرشدنا اللّه، وتقودنا القوى العظمى التي قادت ديغول ونابوليون وجان دارك وشارلمان وكلّ رجلٍ وامرأةٍ عظيمَين في التاريخ.

قد تنادي الشجاعة علينا كي نقف وحيدين، في وجه الصعوبات الرهيبة، بل حتى في وجه ما يبدو أحياناً أنه أكبر من الدنيا كلّها.

ولكننا لسنا خائفين، لأننا لسنا في الواقع وحيدين في المواجهة.

وذلك لأن وراءنا، كما كان وراء ديغول، امبراطورية عظيمةٌ.

ولا بد لنا من أن نعرفَ أننا إذا قاتلنا طويلاً وبالشراسة اللازمة سنجد الجميع معنا.

العالمُ يريدُ أن يَعرِف

حُكِمَ على فارلام شالاموف بالأشغال الشاقّة في عام 1937 في معتقل جولاج السوفييتي.

ما الجرائم التي ارتكبها؟

هي ذاتها الجرائم التي أتَتْ بمعظم الناس إلى ذلك الجحيم المتجمِّد: وقعوا تحت سخط نظام شمولي. حظّ سيئ عشوائي. التجرؤُ على انتقاد السلطات القائمة. لأنهم لم يكونوا شيوعيين بما يكفي. لأنهم لم يعترفوا، بيد أن الاعتراف ما كان سينقذهم.

هنالك جَثَمَ في أحد أكثر الأماكن ظلاماً التي قد يجد الإنسان نفسه فيها، وما الذي وجده؟ وجد الكثير بخصوص الحالة البشرية. كتب: «اكتشفتُ أننا يجب ألا نقسمَ العالم إلى أناس خيّرين وأناس أشرار، بل إلى جبناء وغير جبناء. خمسة وتسعون بالمئة من الجبناء قادرون على أكثر الأمور فظاعةً، على الأمور القاتلة، وذلك تحت وطأة أصغر تهديد».

عندما نسألُ ما هي الشجاعة، فإننا نفكر فيها بدقة إنما على نحو خاطئ.

هذا ليس سؤالاً يحق لنا أن نسأله.

لأننا نحن الذين نُسأَلُ هذا السؤال.

في رواية كورماك مكارثي الظلامية والرائعة «كلّ الخيول الجميلة» (All the Pretty Horses) التي تدور أحداثها في سجنٍ شبيه بالسجن الذي عاش فيه شالاموف فعلاً، يطرح إيميلو بيريز السؤالَ على جون جريدي بالشكل التالي:

«العالم يريد أن يعرف إذا كانت لديك رجولة. إذا كنت شجاعاً؟»

إن العالم يسألك أنت عن شجاعتك. في كل دقيقة من كل يوم. أعداؤك يسألونك هذا السؤال. وتسألك إياه العقبات التي تواجهك أيضاً.

لأننا نحتاج إلى معرفة ما إذا كنتَ من الجبناء؟ أم أنك شخصٌ يمكن الاعتماد عليه؟ هل لديك من العزيمة ما يكفي؟

يؤكّد سينيكا أنه يشفق في الواقع على الناس الذين لم يختبروا الابتلاء قط، فيقول: «أن تعيش الحياة من دون أن تلتقي عدوّاً، أي ألا يستطيع أحدٌ أن يعلم ما هي قدراتك، ولا حتى أنت».

ولذلك فإن هذا السؤال مهمٌ جداً. إنَّ العالمَ يريدُ أنْ يعلمَ في أي فئة يصنّفك، ولذلك فإنه يضع في طريقك مواقف صعبة. وهذه ليست مضايقات ولا حتى تراجيديات بل فرصٌ، بصفتها أسئلةٌ تنتظر الإجابات: هل أملك الرجولة؟ أو ربما بشكل أقل جندريّة: هل أملك البأس والعزيمة؟ هل أنا شجاعٌ؟ هل سأواجه هذه المشكلة أو أهرب منها؟ هل سأقف مواجِهاً أم ستسحقني الظروف؟

إنك لا تجيب عن هذا السؤال بالكلمات بل بالأفعال. على ألا تقتصر هذه الأفعال على نطاق خصوصيتك، فتكون في العلن.

إن لم يكن أنت فمن إذاً؟

وجد البشر أنفسهم، منذ آلاف الأعوام، مُرغمين على أن يسألوا أنفسهم سؤالاً شهيراً، نقتبسه بتصرف عن الحاخام هيليل الأكبر:

«إن لم يكن أنا، فمن؟ إن لم يكن الآن، فمتى؟»

أو كما صاغه جون لويس:

«إن لم نكن نحن، فمن إذاً؟»

لأن ثمة من عليه أن يؤدّي المهمة. في إحدى أكثر اللحظات ظلاماً من الحرب الأهلية الأمريكية، ضرَبَ أوليسيس إس. جرانت حصاراً دام شهوراً على مدينة بيترسبيرج (وكانت وقتها العقبة الوحيدة أمام عاصمة الكونفيدرالية في ريتشموند)، وقال جرانت وقتها: «المهمةُ التي أمامنا كبيرة ولا بدّ من أن يؤديها أحدٌ ما». تطلَّبَ الأمرُ تسعةَ أشهر ضد جيش مستبسلٍ ومستميت، ولكن جرانت رفضَ أن ينثني عن مسعاه. لم يُهادن. ورفضَ الإلهاءات، ورفضَ أن يرمي بالمسؤولية على شخصٍ آخر أو أن يقع ضحية خيالاتٍ تحلمُ بحلٍّ أقلّ كلفة.

لا، بل جلس هناك. تابعَ جهده. قادَ جنوده. وفي اجتياحه لمدينة بيترسبيرج، فعل ما أخفقَ عددٌ ضخم من الجنرالات في فعله، وفي اللحظة اللازمة تماماً. أعلنَ الجنوب استسلامه خلال أسابيع من ذلك. لقد كانت مهمةً عملاقة، وقد أدّت مواجهتها بدلاً من الهروب منها إلى القضاء على شبح الحرب الرهيب أخيراً.

في عام 1861، كان أوليفر ويندل هولمز سليل عائلةٍ ثريّةٍ وذات سلطة. وكان قادراً على توظيف رجلٍ ليحارب محلّه في الحرب الأهلية. ولكنه بدلاً من ذلك تطوَّعَ وحارب وكادَ أنْ يموت في جيتيسبيرج. بعد تخرُّجِه من دراسة القانون ونجاح مكتبه الخاصّ، تمكّن من شغل وظيفةٍ مهمّة في هارفارد كان قادراً على الاحتفاظ بها بقية حياته، آمناً في شرنقةٍ سعيدةٍ في عالمٍ فكريٍّ ثقافيٍّ. بدلاً من ذلك، تَركَ عمله، متحمّلاً خسائرَ ماديّةً وأخرى على صعيد العلاقات، ليشغل منصب قاض في الولاية لأنهِ كان مؤمناً بأن على المحامين أن يوجدوا حيث

تُصاغ القوانيًن. وترقّى لاحقاً إلى المحكمة العليا، حيث خدمَ بلا كللٍ حتى عمر التسعين، وهو رقم قياسيٌّ في المحكمة.

كتب هولمز: «بما أن الحياة أفعالٌ وشغفٌ، فمن المطلوب من المرء أن يشارك شغفَ زمانه وأحداثَه خوفاً من أن يقال إنه لم يعِش».

«مَنْ أنا حتَّى أذهبَ إِلَى فِرْعَوْنَ؟»، كذلك سألَ موسى عندما ناداه قدره. وإجابتُه هي نفسها في حالتك: أنت الشخص المناسب في المهمة المناسبة.

كلّ واحدٍ منّا مميّزٌ: جرانت، هولمز، نايتينجيل، ديغول... كلهم كذلك. كلٌّ واحدٍ منا له مهاراته الخاصة، ومجموعة تجاربه وآرائه الخاصة. وكلنا نتلقى نداءنا. وإنْ لم نجبه، فإننا نحرم العالم من شيء. إن إخفاقنا في التحلّي بالشجاعة يرسل موجاتٍ من حولنا تجتازنا نحوَ حيوات البشر الآخرين.

إذا لم تتبنَّ ذلك الطفل، من سيفعل؟ إن لم تبدأ تجارةً، فمن سيفعل؟ إن لم تقل تلك الكلمة السحرية «أحبُّك» اليومَ، فمتى ستفعل؟

الإجابتان الأكثر ترجيحاً عن هذه الأسئلة هما «لا أحد»، و«أبداً». وإذا حدث أن أدّى أحدٌ غيرك المهمّة، فلن يؤدّيها كما لو كنتَ أنت تؤدّيها، وستكون النتيجة مختلفة. لن تكونَ بالجودة نفسها. لن تنضوي على إضافتك أنت.

إن الإيمان بأن الفرد قادرٌ على إحداث فرقٍ هو الخطوة الأولى. والخطوة التالية هي فهم أنك، أنتَ، قادرٌ على إحداث فرق.

الاستعداد يجعلك قوياً

هل الآخرون بالفطرة أكثر شجاعةً منك؟ أم أنهم ببساطة أكثر استعداداً منك؟

«المعرفة العملية عاملٌ مساعدٌ». كذلك يُفتتح الكُتيّب المنهج Army Life (العسكرية) الذي وزّعت قيادةُ الجيش منه ملايينَ النُسخ على الجنود الأمريكيين في الحرب العالمية الثانية. «معرفة مكانك ودورك في هذا الجيش تمنحك راحةً نفسيةً ورضى شخصياً لا يمنحك إياهما أيّ شيءٍ آخر قد تفعله. كُن أنانياً في هذا الشأن إنْ شئت، تعلَّمْ وظيفتك لأنَّ معرفتك بكيفية تنظيمِ نفسك ستجعلك تشعرُ براحةٍ أكبر. معرفةُ واجباتك والتزاماتك، وحقوقك والفُرَص المتاحة أمامك، ستجعلك أكثر قيمةً للجيش. وسيمنَحُك ذلك أيضاً رضى ذاتياً على المدى الطويل».

على الرغم من أننا نستطيعُ أنْ نصرفَ الخوفَ بتفسيره، فمن الأكثر فاعليةً أن نستبدلَهُ. ولكن ما البديل؟ الكفاءة. وذلك بالتمرين. بأداء المهام. بعمل ما يجب أن يُنجَز.

كذلك كانت حال الجيش الروماني عندما تمّت محاصرته في معركة مفارق كودين في عام 321 قبل الميلاد. حوصر الجنود في ممرٍّ ضيّقٍ باستعمال جذوع أشجارٍ مقطوعة ومصفوفة مع حجارةٍ في أحد الجانبين، فيما واجههم من الجانب الآخر رجالٌ مسلّحون على المرتفعات، ففقد الجنود أيّ أملٍ بالنجاة. وعندما استقرَّ ثقل الكارثة في عقولهم (فهم محاصرون من كل الجوانب بعقباتٍ لا يمكنُ اختراقها ومن قبل عدوٍّ حصين)، أصابهُم الخوفُ بالشلل. كل رجلٍ منهم نظرَ إلى الذي يليه مفترضاً أنه قد يعلمُ ما المتوجِّبُ فعله. والجنرالاتُ أيضاً كانوا مشدوهين بحيث غابتْ عقولهم. كيف لذلك أن يحدث؟ ما الذي يمكن فعله؟ كيف لهم أنْ ينجوا؟

ومن ثم قام جنديٌّ واحدٌ، بلا اسمٍ، مجهول الهوية، ضائعٌ في التاريخ، واتخذ خطوةً أولى عبر إنشاء تحصيناتٍ. وبشكل غريزي، ومن دون أوامر، لحق الرجال الآخرون به. طبعاً، بدا أنه لا فائدة مطلقاً من بناء تحصين، نظراً لموقعهم اليائس، ولكنَّ فعلَ شيء ما أفضلُ من عدم فعل شيء. هكذا تركوا تدريبهم يتولّى زمام القيادة إذ وجدوا الراحة والعزيمة فيه.

كانت راحة عقلية: شيئاً يملأ الوقت. كانت واجبهم. وعندما رأى الأعداءُ ذلك السلوكَ الغريب، شرعوا بالسخرية والتهكّم. والرومان أنفسهم ضحكوا من عملهم عديم الجدوى، لكنَّهم تابعوا. في الواقع عندما حصّن الرومان موقعهم، حصّنوا أيضاً أرواحهم من الخوف. وسرعان ما زالت الصدمة التي كانوا فيها، واشتدَّت عزيمتهم. وسرعان ما قدّم العدو شروطاً لمساومة الرومان بدلاً من المخاطرة بهجومٍ على عدوٍّ منضبطٍ مثلهم.

ليس التدريب شيئاً للرياضيين والجنود وحدهم. إنه مفتاحُ تجاوز الخوف في أيِّ حالةٍ وكلِّ حالة. ما لا نتوقعه، وما لم نتدرّب عليه... يكسب أفضليةً علينا. أما ما حضَّرنا لأجله، وما توقّعناه، فسننجح في التعامل معه. كما يقول إبكتيتوس، إن الهدف من عيش تجربة الابتلاء هو أن نقدر على قول: «هذا ما تدرّبتُ لأجله، هذا هو هدفُ انضباطي».

إن كنت لا ترغب بأن ترتعش حين يأتي، كما قال سينيكا في الزمن ذاته تقريباً، فتمرَّن عليه قبل أنْ يأتي.

في إمكاننا أن نتدبَّرَ حالنا إذا كنا عارفينَ بها متمرِّسين فيها. يمكنُ تخفيفُ الخطر بالخبرة والتدريب الجيد. الخوفُ يقودُ إلى النفور، والنفور إلى الجبن. والتكرارُ يقود إلى الثقة، والثقة تقود إلى الشجاعة.

المتنمّر الذي لا بدّ من مواجهته. والمؤتمر الصحفي الشائك. والرهان الخطر. والموقف الأخلاقي ولكن المكروه. وحصار الأعداء من كلّ الجهات. هذه هي اللحظات التي يجب أن يفعلَ فيها تدريبنا فعله، لأنه إن لم يفعل، فالخوف سيفعل فينا بدلاً منه. والشكّ سيفعل أيضاً. فلا نتدخّل في ما لا يعنينا، ونأخذ الطريق السهلة. هذا ما نفعله غريزياً.

لنا هنا أن نستعير عبارةً شهيرةً من آلين إيفرسون: هل نتحدث عن التدريب؟ نعم، نتحدث عن التدريب. لأنه الشيء الأهم. بواسطة التدريب تمرّ على الأحداث في ذهنك. تبني ذاكرتك العضلية التي تفعل ما يجب فعله في هذه الحالة أو تلك. تتعلم كيف تتحصّن، فتحصّن نفسك. تؤدّي التدريبات الاختبارية، وتعزف مقاييسك الموسيقية. تتقصّد أن يطرح عليك أحدهم الأسئلة الصعبةَ. تصبح مرتاحاً لعدم الارتياح. تتمرّن على الركض على عتبة قدراتك ولمسافات محددة، بحيث ترفعُ عتَبتَك كعدّاء. يصبحُ الأمر مألوفاً لديك. تستطيع أن تعيد تركيب بندقيتك وأنت معصوب العينين. وتتمرّن أثناء ارتداء سترةٍ ذات أثقال.

وتفعل ذلك ألفَ مرة، ومن ثم ألفاً أخرى في انعدام أيّ ضغط، بحيث تعرف تماماً ما الواجب فعله عندما يحلّ الضغطُ.

المعرفة العملية عاملٌ مساعد. لكنها أيضاً تمرينٌ على الشجاعة.

ابدأ من مكانٍ ما.
افعل شيئاً ما وحسب

بدأت رحلة دانيال إلسبيرج في فضح الفساد عندما حضر مؤتمراً للسلام. عندما سأل بضع أسئلة. عندما قرّر أن يأخذ الوثائق معه كي يدقّق النظر فيها.

لا أحد يبدأُ من تسريبِ «أوراق البنتاجون» المشهورة. الأمرُ دوماً أقلُّ درامية من ذلك. يستعملُ الفرنسيون عبارة petites actions: تلك الخطوات الصغيرة الأولى التي تبني الزَّخم، الأشياءُ الصغيرة التي تتراكمُ بعضها فوق بعض.

من الجدير بنا أن نتأمل هذا المفهوم عندما نخاف أو عندما نيأس في وجه مشكلة عملاقة.

لسنا بحاجة لتزعُّمِ تغييرٍ ضخمٍ.

دع جانباً تلك الأفكار التي تطالبك بفعلٍ عظيمٍ ما يتحدَّى الموتَ.

أحياناً، أفضلُ مكانٍ نبدأُ منه هو المكانُ الصغير.

كذلك فعلاً كانت حال إلسبيرج، الذي عَمِلَ لدى إدارةٍ لا تتحملُ أي انشقاقٍ مهما كان قَدْرهُ، ومن ضمن ذلك توجيهُ الأسئلة الحادة وغير المريحة. ولم يكن في باله تسريبُ الأوراق لصحيفة نيويورك تايمز في البداية، بل جاء القرارُ على شكل تصاعدٍ تدريجيٍ بعد أن وجهتهُ جهوده الأخرى الأكثر تقليدية بهذا الاتجاه.

وكذلك حال كل طاغيةٍ منيعٍ سابقٍ، من ريتشارد نيكسون إلى هارفي واينستين وكل من أتوا بعدهما، إذ أطَاح بهم أحد ما. أحد ما يصدعُ الشرخ الأول في الدرع. أيمكن أن يكون ذلك الشخص هو أنت؟

قالت فلورنس نايتينجيل: «إياك وأن تخسر فرصةً للانطلاق في بداية عملية، مهما كانت صغيرة، لأنه من المذهل في هذه الأمور كم أن بذرة الخردل الصغيرة تَثبُتُ وتَضرِبُ جذورها في الِأرض». وكذلك كانت حياتُها التي عاشتها:

عَمِلتْ في إحدى المَستشفيات صيفاً واحداً مما منحها الثقة لتكريس حياتها لتلك المهمة. لقد كان من الأسهل بكثير إقناع عائلتها بعدم إيقافها عندما ادَّعَتْ أن تجربتها في التمريض محدودة بتاريخ مؤقت. وكان من الأسهل أن تُقنعَ نفسها بذلك أيضاً.

توماس إديسون يختلف في الرأي. يقول إنَّ الحياة أقصرُ من أن تبدأ من الطرف الصغير في الأمور. لقد أراد دوماً أن يذهب نحو المشاكل الصعبة، نحو المشاريع الطموحة. لأن الحظّ يحالف الشجعان، أليس كذلك؟

لعل الطريقة في الجمع ما بين هذين الاتجاهين هي أننا نستطيع فعلاً أنْ نبدأ بالأفعال الصغيرة، ولكن أنْ تكون تلك الأفعالُ من ضمن رؤيتنا لعملنا العظيم الكبير.

ابدأ بشكلٍ صغير... بالعمل على شيء كبير.

قُمْ بحل مشكلةٍ واحدة. تحرّك نحو الأمام ولو ملليمتراً واحداً. اكتبْ جملةً واحدةً. أرسلْ رسالةً واحدةً. أطلق شرارةً.

وبعد ذلك يمكننا أن نقرّر ما التالي.

إن أنوارَ السيارة لا تضيءُ إلا بضعة أمتار من الطريق المظلمة أمامك، ولكن ذلك يكفيك للاستمرار نحو الأمام وإحراز تقدّمٍ مستمر.

أليست هذه طريقة حلّ المشكلات الكبيرة؟ عبر تقسيمها إلى مشكلاتٍ أصغر؟ عبر التركيز على الجزء الذي هو أمامنا؟ وعبر البدء مبكراً قبل أن تصبحَ مواجهةُ ذلك الجزء أصعب، أو يختفي خلف مشكلات جديدة؟ (الخوض في الأنهار أسهل عند منابعها، كما يقول التعبير الشائع). استجمعْ بعضَ الزَّخم، وبعضَ الثقةِ أثناءَ شطبكَ الأشياء من على القائمة. وفوقَ كل شيء، أليس هذا ما يساعدك التدريب فيه؟ يقولُ لك ما هو الشيء الأولُ والأصغرُ الذي يجب فعله، ما هو عملك في هذه اللحظة بالذات.

لن تكون ناجحاً دوماً، ولكنْ مجدداً، فإن الأمر لا يدور كله حولك أنت، فقد يتابع أحدهم من حيث انتهيت. كل ما عليك فعله هو البدء. كل ما عليك فعلُه هو أن تنجز قِسْمَك من سباق التتابع بأفضل ما يمكن. قدِّمْ أحسن ما عندك، افعل ما تستطيع فعله، وافعله الآن. هذا كلّ ما في الأمر.

لا سبيل للالتفاف حول ذلك: عليك البدء بالعمل. وستتفاجأ عندما ترى أيَّ فرقٍ كبيرٍ يَنْتُجُ عن إحداث فرقٍ صغيرٍ.

يُذكِّرُنا أبراهام لينكولن: «إنَّ من يستطيعُ إنجاز شيء ما أثناء قيادة كتيبةٍ واحدة، سوف يتفوّق على من يعجز عن إنجاز أيّ شيء أثناء قيادة مئة كتيبة»[11]. من الأفضل أن تكسب معركةً صغيرةً بدلاً من أن تؤجّل المواجهة باستمرارٍ بانتظار معركةٍ أكبر.

علينا أن نبدأ. أن نفعل ما في وسعنا، حيث نستطيع، بما نملك بين أيدينا. وكلّ ذلك يتضافر ويتراكم.

انطلق!

كان لدى شارلز ليندبرج كل الأسباب في العالم كي لا ينطلق.

لا أحدَ قبله نجح بالطيران بلا توقّف عبر المحيط الأطلنطي. وهو نفسُه لم يقمْ حتى بأيّ رحلة طيران فوق الماء من قبل، بل لم يَطِرْ أيّ مسافة طويلة من قبل. لم يَطِرْ أكثرَ من خمسمئة ميلٍ من دون الاعتماد على رياح مواتية قوية والقدرة على إيجاد الطريق باستعمال التضاريس الجغرافية على الأرض. بل إنه لم يقضِ في الجوّ الخمس والخمسين ساعة المتواصلة التي تتطلّبها الرحلة.

ومن ثم تحطَّمتْ طائرةُ أحد منافسيه في رحلة طيران اختبارية، فأصيب ثلاثةٌ أو أربعةٌ من طاقم الرحلة بإصاباتٍ بليغة. وبعد أسابيع، اختفى طيَّاران وهما يحاولان العبورَ من باريس إلى نيويورك، ولم يتمّ العثور عليهما قط.

وهو كان يفترض به أن يُقدِم، وأن يقطع ثلاثة آلاف وستمئة ميل عبر المحيط المفتوح العديم التضاريس، ووحده؟ وفي طائرةٍ محمّلة بحمولةٍ زائدةٍ لم تسمح له بإضافة مظلّةٍ وزنها 10 كيلوجرامات؟ من المؤكد أن العالم كان يطالبه بالكثير، بل بأكثر مما يطلب هو من نفسه حتى.

في التاسع عشر من مايو عام 1927، وصل ليندبيرج إلى مطار روزفيلت في لونج آيلاند ولم يجد أثراً لأحد من منافسيه. كان الطقس غير مواتٍ بعض الشيء. ملأ خزانات طائرته، وبالكاد استطاع النومَ في الليل. وفي الصباح كانت هناك مشاكل لوجيستية في انتظاره. جدالاتٌ حول الرياح. رحلتُه تأخّرت. فاندفعت كلّ الاعتراضات والصعوبات في عقله من جديد. وملأ الشكُّ عيونَ الرجال في حظيرة الطائرات وأمام المهبط، فقد شهدوا هذا المنظر مرّاتٍ كثيرة من قبل.

صعد إلى المقعد المصنوع من القصب. ارتدى نظاراته. شغَّل المحرك. خلالَ بضع دقائق سوف يحلِّقُ نحو القدر. تردّد. أعادَ حساباته كلّها مجدداً. ومن ثم دفع بها كلّها جانباً وبدأ تسارع الطائرة. في الساعة 7:52 صباحاً، ارتفعت عجلاتُ طائرته من على الممرّ، وذلك على بُعد عشرين قدماً فقط من نهايته. وبعد أقلّ من يوم ونصف اليوم، وقف على أرض فرنسا.

كيف تتجاوزُ كل ذاك الخوف؟ وكلّ تلك الأسباب التي تدفعك عن فعل ما تَهِمُّ بفعله؟

بكلمات ضابطِ العمليات في القوات الخاصة، وصاحب الأوسمة، جوكو ويلينك: كي تتجاوز ذلك الخوف، انطلق.

افعل ما عليك فعله. اقفز في الظلام. هذا هو الطريق الوحيد.

لأنك إن لم تفعل، فما الذي يلوح في أفقك؟ الإخفاقُ. الندمُ. العارُ. فرصةٌ ضائعةٌ. وخسارة أيّ أملٍ في التقدّم نحو الأمام.

قال ديغول مرة شارحاً لبعض أعضاء إدارته المُتحفِّظين: «في مسائل كهذه، إما أن يتحرّك المرءُ وإما أنْ يموت. وقد اخترتُ أنْ أتحرّك، علماً أن ذلك لا يستبعدُ إمكانية الموت أيضاً». ولذلك ذَهبَ، وذَهَبتْ زوجته أيضاً، أثناء سقوط فرنسا، بلا حقائب، وبلا مظلّات، وبلا خطط بديلة. انطلق بشجاعةٍ نحو الأمام كعشرات المرات الأخرى في مسيرته، سواء في الأزمة الجزائرية أو أثناء احتجاجات الطلّاب عام 1968.

Alea iacta est [12]

اللعنة على التوربيدات![13]

هل هناك مخاطر؟ طبعاً. ومن الطبيعي أن تُقلقنا. ولكن لا يمكنك أن تنجح إن لم تفعل شيئاً، إن لم تحاول حتى. لا أحد قادرٌ على ضمان العبور الآمن في الحياة، فلا شيء يمنعُ إمكانية الإخفاق أو الموت.

ولكنك إنْ لم تذهب؟ فإنك عندها تتوثق من إخفاقك وتعاني من نوع مختلف من الموت.

لاحقاً، ستتمنّى لو أنك فعلتَ شيئاً. كلنا نتمنَّى ذلك. مما يعني أن عليك، الآن فوراً، أنْ تنطلق.

قل الحقيقةَ للسلطة

وصلت الأوامرُ إلى ديسيموس لابيريوس: عليه أنْ يُقدِّمَ أداءً مسرحياً أمام يوليوس قيصر.

قد يرى بعض الناس في ذلك شرفاً عظيماً، أما غيرهم فقد يرون فيه إهانةً صغرى.

وأما ديسيموس، وهو الفنانُ الذي لم يعتدْ التملُّقَ ولعقَ الأحذية، فقد نظرَ إلى الأمر على أنه واجبٌ أخلاقي. واجبٌ أخلاقيٌ يأمُرهُ بالمواجهة والتحدّي.

وهناك، على خشبة المسرح، حيث جلسَ قيصر بين الحضور وتعلَّقتْ عيناه، بل عيونُ كلِّ المشاهدين، بعيون ديسيموس... هناك لقّن ديسيموس قيصرَ محاضرةً وجهاً لوجه، ساخراً من طغيان قيصر المتصاعد، وتنبَّأ بنهايته الأليمة. وما هو أكثرُ إثارة للإعجاب من ذلك أنَّ أداءه كان متقناً للغاية، واتّسم بفنيّةٍ وجرأةٍ عاليتين بحيث عَجزَ قيصر عن معاقبته على ذلك الأداء الفريد.

أطلق اليونانُ تسميةً خاصةً على هذا النوع من الشجاعة: parrhesia، وتعني أنْ تقولَ الحقيقةَ في وجه السلطة. تعني أنْ تَرفضَ تصديقَ الكذبة أو التواطؤَ مع الخداع. ومن أعظم الممارسين الكلاسيكيين لهذه الـشجاعة في المواجهة: سقراط، وهو الرجلُ الذي قالَ ما خشي الآخرون قوله للناس. وهنا نستعيد صياغةً معدّلةً لقول مؤرّخٍ قديم: لا أحدَ قادرٌ على إرغام سقراط على فعل أيّ شيءٍ أو قول أيّ شيءٍ أو التفكير في أيّ شيءٍ إذا ما كانت هذه الأشياء دخيلةً على شخصيته.

وبمعنىً ما، فمن الغريب أننا معجبون بذلك، إذْ ألا يُفتَرَض أن تكون هذي الحال هي الطبيعية؟ أليس هذا واجبنا الأساسي نحو الناس؟

أنْ نعرفَ الحقيقةَ من دون أن ننطق بها... تلك خيانةٌ للحقيقة.

قد تستطيعُ الفرارَ من شعورك بالذنب لبقائك صامتاً، ولكن لا عذرَ في ذلك. إنك متواطئٌ. إنك جبانٌ. من الممكن فعلاً أنْ لا أحد يريدُ أنْ يسمعَ الحقيقةَ، ومن الممكن جداً أيضاً أن يخافوا من سماعها، ولكن لا يجوزُ أنْ تكون خائفاً من قولها.

في عام 1934، اصطدم القسُّ الألماني وعالم الثيولوجيا ديتريش بونهوفر بحكاية الأطفال المشهورة «ثياب الإمبراطور الجديدة»، ولكنه اصطدم بها في الواقع وليس في الخيال: عندما شاهدَ إخوته المسيحيّين وقد بدأوا يكذبون على أنفسهم بخصوص هتلر، ولمعرفتِه بالبدايات السياسية لأكاذيب هتلر المشينة، فقد سَقطتْ الحكايةُ عندما قرأها على رأسه كصخرة عملاقة. كَتبَ رسالةً إلى أخيه يقولُ فيها: «كلُّ ما ينقصنا اليوم هو الطفلُ الذي يرفعُ صوتَه بالكلام في آخر الحكاية».

إذا تحدَّى ذلك الطفلُ في الحكاية الإمبراطورَ بشكل غريزيٍّ وطبيعيٍ، فما عُذرك أنت؟

طبعاً لديك مليون عُذر: سوف تتأذَّى في وظيفتك. لنْ يُحبَّك الناس. لن يُؤدي موقفُك إلى فرقٍ كبيرٍ. سوفَ يتأخّر مشروعك الذي تخطّط له. لا أحدَ يريدُ سماع كلامٍ عن هذا الأمر. لا تريدُ أنْ تنضمّ إلى قائمة أعداء الآخرين.

أحسنتَ يا لاعقَ الأحذية المتملِّق!

انظرْ... أنْ تشعرَ بالرعب فهذا شيءٌ، وأمّا أنْ تحطَّ من قيمة نفسك فذاك شيءٌ آخر تماماً.

هذا ما استوعبه ديغول في شأن هتلر: إنَّ قوته تعتمدُ بالكامل على «جبن الآخرين»، إذْ لم يجرؤ أحدٌ على أنْ يقولَ للمتنمِّر إنه مُتنمِّرٌ في وجهه. لم يكن أحدٌ في ألمانيا مستعداً لأن يرى أنَّ الإمبراطور عارٍ، بل إنه في الواقع قاتلٌ مجنونٌ يهذي. بالطبع لم يجرؤ أحد على قول ذلك، إذْ لم يَقلْ أحدٌ أو يفعل شيئاً أساساً، سوى إخبار هتلر بما يطيبُ له سماعُه، ولذلك فقد أصبحوا جميعاً متواطئين ومتورِّطين.

على الرغم من ذلك، لا بدَّ من التوكيد على أنَّ واجبنا في قول الحقيقة لا يمنحُنا رخصةَ التعامل مع الناس بفظاظةٍ ووحشية. لقد فعلَ سقراط ما فَعلَه بهدف مساعدة الناس في الوصول إلى المهم، ولم يكن في نيّته أنْ يُهينَ أحداً، بل أنْ يُعلّمَهم وحسب. ولكنه في سبيل ذلك أهانَ بعضَ الناس، وخلقَ عداواتٍ مع غيرهم، إلا أنّ ذلكَ كلَّهُ لم يمنعهُ من مطاردة الحكمة، ولم يرغمه على التخلّي عن واجبه.

لا يمكنُ للمجتمع أن يكون فاعلاً من دون هذا النوع من الأشخاص. والأمرُ ليس دوماً خَطِراً كمثل النَّظرِ في عيني قيصر وإخباره برأيك فيه، بل هو أيضاً سخرية الكوميديان دايف شابيل من نفاقنا وسخافاتنا، وهو أيضاً اختراقُ نسيم طالب لادّعاءاتنا ويقيننا، وهو أيضاً ديوجينُ الفيلسوف، الذي شكَّكَ في افتراضاتنا الأكثر رسوخاً.

إننا في حاجةٍ إلى أناسٍ يتحدّون الحالةَ القائمة. نحتاجُ إلى فنّانين يسبرون أغوارَ القضايا الشخصية... ويقدّمون انتقاداتٍ علنية. نحتاجُ إلى سياسيين يصرّون على القيادة من موقع الصدق، وهم أنفسُهُم يحتاجون إلى مستشارين خبراءَ لا يتردَّدون في إخبارهم بالحقائق المزعجة. نحن بحاجةٍ إلى شعبٍ يرفضُ البروباغندا، والذرائع، ومحاولات التعتيم على الحقائق. نحتاجُ أناساً في كلّ موقع من الحياة مستعدّين لأن ينهضوا ويقولوا: «هذا ليس محقّاً. ولن أكون جزءاً منه».

نحتاجُ إليك أنتَ، إلى رفضك أنت.

كُنْ صاحب القرار

دين أشيسون، الذي شغل لاحقاً منصب وزير الخارجية، يتذكَّرُ الجنرالَ جورج مارشال واحترافَه لفنّ القيادة، وقد بقيتْ تلك الذكرى مطبوعةً في عقله. أرادَ الدبلوماسيون والقادة أنْ يتجادلوا للأبد. أرادوا الجدلَ حولَ ما يجب فعله، ومَن المذنبُ، وما الذي يجبُ قولُه، وماذا يأكلون على الغداء.

في آخر المطاف، قَطَعَ جورج مارشال تلك الضوضاء مُصدِراً أمراً: «يا سادة، لا تُحاربوا المشكلةَ! خذوا قراراً بشأنها!»

وذلك لأنَّ الخوفَ يُريدك أنْ تقضي يومك في الحسابات والتدبيرات، بينما الشجاعة تَعْلَمُ أن ذلك غيرُ ممكن.

أدرك أشيسون أنَّ أندرَ المواهب التي تُمنحُ للمرء هي القدرةُ على اتّخاذ القرار. كي ينجحَ القائدُ في الحياة، وفي السياسة الخارجية، وفي عالمٍ معقدٍ وصاخبٍ، لا بدَّ له من أنْ يتعلَّمَ صنعَ القرارات بشجاعةٍ ووضوحٍ، وبلا مراوغةٍ ولا تردّد.

هذه موهبةٌ امتلكها مارشال، وكذلك ترومان، وهي التي مَكَّنتهُمَا من إنقاذ أوروبا في أعقاب الحرب العالمية الثانية من المجاعة والإفلاس، كما مَكَّنتهُمَا أيضاً من مساعدة برلين بعد أن فَرضتْ روسيا عليها الحصار. لقد كانوا مستعدّين للنهوض واتّخاذ القرار.

كتب أشيسون: «عملُ الرئيس هو اتخاذ القرار، والسيدُ ترومان اتَّخذَ القرارات».

في الأيام الثلاثين الأولى من رئاسته، اضطرَّ ترومان إلى اتخاذ قراراتٍ بخصوص:

- التدخُّل السوفيتي في بولندا
- اللقاء الأول للأمم المتحدة

- الشحنة الأولى من اليورانيوم
- دخول السوفيت في الحرب ضد اليابان

واضطرَّ أيضاً، خلال أسابيع وأشهر قليلة، إلى اتخاذ قرارِ إلقاءِ القنبلة الذرّية أو عدم إلقائها، وإنقاذ أوروبا بواسطة خطة مارشال أو تركها لمصيرها، وتطبيقِ عقيدة الاحتواء ضد العدوان السوفيتي أو تركه يستمرّ، وإنشاء جسر برلين الجوّي لإرسال المساعدات أو لا، وغيرها وغيرها وغيرها.

لعلك تظنُّ أنَّ هذه القرارات كانت مؤلمةً وصعبةً نظراً للعواقب الضخمة وعدم وجود إجماعٍ بين الخبراء. وإنّكَ على حق، فقد كانت صعبةً حقاً.

إلا أنَّ ذلك لم يشكّل سوى جزء واحدٍ من الموضوع: كان ترومان ومارشال على درايةٍ بأنهما سيتعرَّضان للانتقاد، ويعرفان أنَّ كلَّ قرارٍ يتخذانه يُمثّل مخاطرةً، ويعلمان أنهما سيضطران إلى تحمُّلِ عبء المسؤولية كاملاً، لأن اسم كلٍّ منهما سيرتبطُ بالقرار... وفي حالة عقيدة ترومان وخطة مارشال فقد كان الاسمان مكتوبان على القرارات حرفياً.

وعلى الرغم من ذلك كلِّه، فهما لم يُقرِّرَا وحسب، بل قرَّرا ومن ثم ركّزا على الشيء الأكثر رعباً في هذه الحياة: متابعةُ مسار قراراتك حتى اكتمالها.

لا يمكن للطبيب في غرفة الجراحة أن يتلكّأ. لا بدّ له من اتّخاذ القرارات بسرعة، والتصرّف على أساسها، وامتلاك الشجاعةِ لمواجهة نتائج أدائه من حياةٍ أو موت. كذلك الفنان المسرحيّ، والمدير التنفيذيّ في شركةٍ تمرّ بصعوبات: كلُّ قائدٍ يقفُ في هذا الموقف الصعب ذاته. ثمة وحشيةٌ في هذه المهن، حيث العواقبُ تتراءى أمامَ عينيك. الضربةُ على الوريد سوف تلزم في وقت ما، وفي لحظة أخرى لا بد من فصلِ الموظفين، ولا بدَّ من كتابة الشيكات. ثمة شيءٌ فظيع في هذا التوحُّش، ولكن لا أحد يكسبُ من التلكؤ والجبن، وخصوصاً أولئك التي تعرّضهم تلك القرارات للخطر.

ندّعي أننا نتجادلُ كي نصلَ إلى القرار الصحيح، وأننا نحتاج إلى المزيد من المعلومات، لكننا في الحقيقة نؤجّلُ وحسب. لا نريدُ أنْ نغادرَ راحتنا التي تضمنها الحالة القائمة. لا نريدُ أنْ نتحمَّلَ مسؤولية العواقب.

إننا نجادلُ في شأن الاستقالة من عملنا، أو الاستثمار في هذا المشروع أو ذاك، وفي إعلان ما نعلمه على الملأ، وفي تخلّينا عن شخصٍ ما... نُؤجّل، مرةً

بعد مرةً، فنتجنَّبُ جوهرَ ما نحتاجُ إلى فعله مفضِّلينَ النقاش الأبدي حول الإمكانيّات والملهيات.

أما ديسيموس، فبعد أنْ واجَهَ قيصرَ بشجاعة على خشبة المسرح، وأثناء نزوله عنها، سَخِرَ من سيسيرو في وجهه أيضاً، قائلاً عنه إنه الرجلُ الذي «يجلس على مقعدين»، وهي إشارةٌ إلى عجزِ سيسيرو عن اختيار أحدِ الطرفين في الحرب الأهلية... وسرعانَ ما اتخذ أعداء سيسيرو القرارَ بدلاً منه[14].

يوجد تعبيرٌ شائعٌ عظيمٌ: أيّاً كان الشيءُ الذي تقرّر ألّا تُغيِّرهُ، فإنَّك تَختارهُ. وسوف تتمنَّى لاحقاً لو أنك تصرّفت، سواء أكان هذا التصرّف التخلّي عن علاقةٍ مؤذيةٍ أو إنشاءِ شركةٍ، فلا تُحارب الاختيار... اتّخذ القرار، الآن.

تلك الثواني الثمينةُ التي قَضيتَها في الجدل كانت قادرةً على أنْ تَحملَك بعيداً عن الإعصار القادم. الوقتُ الذي تقضيه في التلعثم والتردّد بخصوص إعلان رأيك كان بإمكانك توظيفه للتخفيف من حدَّة عواقب الإعلان. الوقتُ الأفضلُ لمعالجة مشكلةٍ صعبة هو قبل زمنٍ طويلٍ، وثاني أفضل وقتٍ هو الآن.

كتب ترومان إلى ابنته في عام 1948 أثناء استيلاء السوفيت على تشيكوسلوفاكيا: «الأمورُ تبدو سوداويةً، لا بدَّ من اتخاذ قرارٍ، وسأتّخذه».

لنْ تحلَّ أيّ مشكلةٍ عبر الجدل حولها. الحلولُ لا تأتي إلا عندما تقرّر ما ستفعله لمعالجة المشكلة وعندما تقدم فعلاً على فعل ما قرّرته. ولا يصحُّ اتخاذُ القرارات لمجرّد «اتخاذ القرارات» طبعاً، بل لا بد من القرار الصحيح، والآن فوراً. وإذا تبيَّن أنَّ قرارك كان خاطئاً، أو أنك وقعتَ في غلطة، فقرّرْ مجدداً بالشجاعة والوضوح ذاتهما.

من الجيّد أن تكون «صعباً»

جلست مارجريت تاتشر أمام مكتب مقابلة العمل بعد جولاتٍ عدّة من المقابلات، واستطاعت الباحثةُ الكيميائيةُ أن تقرأ بصعوبة التقييمَ المكتوب في رأس الصفحة، لأنها كانت مضطرة لقراءته بالمقلوب، قرأت تاتشر رأيَ من أجروا المقابلات معها:

«هذه السيدةُ اليافعةُ لا تنفعُ للعمل هنا لأنَّ شخصيتها أقوى من اللازم».

كان بإمكانها فهم هذه العبارة كإدانةٍ، أو كمديحٍ بليغ.

يختار الجبان الفهمَ الأول ويستمعُ للوعظ. ولكنَّ مثلَ هذا الانتقاد قابلٌ للتجاهل بأدبٍ إذا امتلك الإنسانُ الثقة بالنفس، وإذا تحلّى بالشجاعة في تقبّل النقد، من دون السماح لهذا النقد -أو لمن يقولُه- بأن يُغيِّرَك.

فما خيارك إذاً؟

تذكّر ما قالوه عن سيربيكو.

تذكّر ما قالوه عن ديغول.

ما قالوه عن نايتينجيل.

عن أنهم «صعبو المراس».

طبعاً كانوا أشخاصاً صعبين، فأصحابُ السلوكُ الهيِّن اللّبقِ نادراً ما يصنعون التاريخ. لو كان هؤلاء الرجال والنساء أكثر قابليّة للمساومة بقليل وأكثر استعداداً بقليل لقبول الأدوار المُتوقَّعة منهم، ولو أنهم اهتموا أكثر بقليل بآراء الآخرين فيهم، ولو كان إقناعهم بالعدول عن رأيهم أسهلَ بقليل... لما امتلكوا موقفاً مستقلاً أصلاً.

ومع أنَّ السلطات القائمة قد نعتت هؤلاء الناس بأنهم صعبون، فإن التاريخ قد أطلق عليهم اسماً آخر: محطّمو الأصنام (iconoclasts).

بعضنا يخافُ من أنْ يكون مختلفاً، والكلّ تقريباً يخاف من أن يكون «صعباً»، ولكن ثمة حريةً في هاتين الصفتين: حرية المحاربة بضراوةٍ وباستمرارٍ من أجل ما نؤمن به، وحريةُ الإصرار على معايير أعلى، وحريةُ عدم المساومة، وحريةُ عدم القبول بأنّ «المسألةَ قد انتهتْ».

إننا نحتاجُ إلى الشجاعة لفعل ذلك، خصوصاً في عالمٍ لا يرغب في أن يتمّ إزعاجه، عالمٍ يريد من الجميع أن يبقوا في طابورهم المحدد، عالمٍ لا يريدُ لأيِّ أحدٍ أنْ يسألَ لماذا.

ما كان أوجست لاندميسر يُفكِّرُ في التاريخ حين رفض تقديم التحيّة النازية أثناءَ تدشين السفينة الحربية الألمانية الجديدة، بل كان يعرفُ ببساطة أنه لا يُطيعُ القواعدَ أو الأعرافَ التي تُخالفُ قناعاته. إنه ذاتُ السبب الذي جعله يتزوّج امرأةً يهوديةً في عام 1935، مخالفاً بذلك قانون بلاده. لم يعلمْ وقتها بأن أحدَهم سيلتقطُ له صورة، وأن اسمه سيدخلُ التاريخَ بصفته رمزاً للألماني الوحيد الذي رفضَ اعتناقَ الطغيان: الرجل الوحيد الذي وقف في مواجهة ضغوط غوغاء الجماهير.

لقد كان صعباً، وكلَّفه ذلك كلّ شيءٍ، ولكنَّه ما كان ليقبل بغير ذلك.

سوف يحاولون مُعاقبتك، ولهذا السبب عليك أن تتحدَّاهم يوماً بعد يوم. عليك أن تكون مُتأهّباً للقتال، وأنْ تكون ثابت العزيمة. عليك أنْ تكون واثقاً، فتقول لهم: لا، لن يحدث ما تقولونه. لا، ما تقترحونه ليس «الأفضل للجميع». لا، لن أُغلقَ فمي. لا، لم تنتهِ هذه المسألةُ بعد. لا، لن «أُخَفِّفَ من حدّة لهجتي».

سيقولونَ إنك مجنونٌ، لأن الشجاعةَ مجنونةٌ فعلاً. علينا أنْ نكون مستعدّين للظهور بهذا المظهر، مستعدّين للبقاء مُخلصين لأنفسنا. لا يكفينا عدمُ الخوف لنكون أنفسنا، بل علينا أن نصرَّ على أن نكون أنفسنا.

على الرغم من التكاليف، وعلى الرغم من المقاومة، وعلى الرغم من الخوف. لن يكون ذلك سهلاً، ولكنه جديرٌ بالفعل.

فالأشخاص الصَّعبون يعرفون مُتعة الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على وجه مناضل الحقوق المدنية جون لويس يومَ اعتقاله في ولاية ميسيسبي عام 1961، وتلك الابتسامةُ مُخلَّدةٌ في الصورة الرسمية التي التقطها عناصرُ

الشرطة. إنّهم يعرفون متعةَ إثارة المشكلات الإيجابية، متعةَ أنْ تكون على الجانب الصحيح من الصراع. يعرفون متعةَ خلخلة سُلطة الشرّ، وفي النهاية إنْ شاءت الأقدار: متعةَ انتصار الخير على الشرّ.

لقد كانت مارجريت تاتشر صعبةً حقاً، وأغلبُ الظنّ أن صعوبتها تلك جعلتها غير ملائمة للعمل في ذلك المخبر الكيميائي الذي لم يعد يتذكَّرهُ أحدٌ. ولكن عنادها وحدّتها وصلابتها (وهي صفاتٌ ازدادت قوّةً عندما تصارعت مع الناس الذين رفضوها) هي التي مَكّنَتها من قيادة بريطانيا عبر فترةٍ متأزّمةٍ من التاريخ الحديث. لن تصيري يوماً أولَ رئيسة وزراء في إنجلترا إذا كنتِ تتشبّهين بالجميع كي تندمجي معهم.

كانت السيدة الحديدية. ومثلها في ذلك مثل سيربيكو وديغول ولويس ونايتينجيل، لم تستطع أن تكون غير حالها. لقد وصلهم نداءٌ يدعوهم لأن يكونوا أنفسهم، وقد امتلكوا الشجاعة للإصرار على تلبية النداء.

بضعُ ثوانٍ من الشجاعة فقط

في التاسع عشر من أكتوبر عام 1960، اعتُقِل مارتن لوثر كينج لمحاولته تناولَ الطعام في مطعمٍ يقع ضمن مركز ريتش للتسوّق في أتلانتا. وعندما وَجَدَت السلطاتُ الجنوبيةُ أنَّ عدوَّها قيدُ الاعتقال اغتنمت الفرصة وحاولتْ سَحْقَ كينج في لحظة ضعفه: قاموا باحتجازه بناءً على تُهمٍ أخرى، ومنعوه من الخروج بكفالة، وحكموا عليه بالسجن في ولاية ريدزفيل مدة أربعة أشهر مع الأشغال الشاقّة. وسرى خوفٌ من أنْ يَتعرَّضَ كينج للضرب أو الشنق على يد الغوغاء بلا محاكمة. ولذلك اتَّصلَتْ زوجته كوريتا سكوت كينج، الحاملُ بطفلها الثالث والمذعورةُ، بحملةِ انتخابات جون كينيدي، وبحملة انتخابات ريتشارد نيكسون أيضاً، وكان الاثنان آنذاك يخوضان واحدةً من أعتى معارك الانتخابات الرئاسية في تاريخ الولايات المتحدة، وكلاهُما يحتاجُ بشدة إلى أصوات المواطنين السُّود.

لم يكن نيكسون صديقاً لكينج وحسب، كما شاءت الأقدار، بل أشْرَفَ شخصياً على جهود تمكين الحقوق المدنية في إدارة آيزنهاور. نَصحَه مستشاروه بأنْ يتصرَّف، ولكن نيكسون تردَّد، وأخذَ يُقيِّمُ الاعتبارات ذاتها التي مرَّتْ بعقل ثيودور روزفلت قبل نصف قرنٍ. لم يرغبْ نيكسون في خسارةِ الجنوب، ولم يرغبْ بالخوض في معمعان قضيةٍ خلافيةٍ وجدلية. وكانَ يخشى من أن يظهر في الإعلام بمظهر المتباهي والمتفاخرِ بأفعاله، ولذلك فقد خانَ كينج في اللحظة الحاسمة، وتركَ الباب مفتوحاً أمام كينيدي للاتصال بحاكم جورجيا، وبكوريتا كينج أيضاً، وقد اتَّصلَ بها مباشرةً من المطار ليواسيها ويطمئنها. وفي أثناء ذلك، اتَّصلَ أخوه روبرت كينيدي بالقاضي في ألاباما وضغطَ عليه لإطلاق سراح كينج.

سارع كينج إلى تعريفِ الناسِ بمن وقفَ إلى جانبه وقت المحنة، وذلك على الرغم من أنه كان سابقاً يُخطِّطُ للتصويت لنيكسون. يقولُ متذكِّراً: «لقد عرفتُ نيكسون وقتاً أطول، وكان يتّصلُ بي مراراً لتبادل الحديث، ويسعى إلى نصيحتي ويحصل عليها. وعلى الرَّغم من ذلك، عندما حانت اللحظة، تَصرَّفَ كما لو أنه لمْ يسمعْ باسمي من قبل. وهذا السببُ الذي جعلني اعتبرهُ جباناً أخلاقياً وشخصاً غير مستعدٍ لاتخاذ الخطوات الشجاعة وتَقبُّل المخاطر».

كسبَ كينيدي الانتخابات بعد أسبوعين بفارق يقل عن 0,5% من النقاط: مجردُ خمسة وثلاثين ألف صوتٍ جوهري على امتداد ولايتين جوهريتين. كَسِبَ الانتخابات بفضل اتصالين هاتفيين. أما بضع ثواني الجُبن، وهي الوقت الذي كان يلزم نيكسون ليتحدث مع زوجة الإنسان المحترم والمسجون ظلماً... بضعُ الثواني تلك كَلَّفتْ نيكسون خسارةَ الرئاسة.

ليس مهماً من أنت أو ما المكتوب في سجلّك، بل المهم هو اللحظة، وأحياناً أقل من لحظة. فهل ستُقْدِمُ على اتّخاذ القرار؟ أم أنّك عاجزٌ عن ذلك بسبب خوفك؟

يتطلَّبُ الأمر بضع ثوانٍ لتضغط زرّ إرسال البريد الإلكتروني...

... لتُخْرِجَ تلك الكلمات الأولى الصعبة من فمك

... لترفعَ ذراعك متطوّعاً

... لتخطو الخطوةَ الأولى في هجوم على موقعِ رشاشٍ آليٍ مُحصّنٍ

... كي تغيِّر صوتك في الاقتراع من نعم إلى لا، أو من لا إلى نعم

... كي تلتقطَ الهاتف كما فعل كينيدي... ولم يكن ذلك حتى لإنقاذ حياة كينج، بل لمواساة زوجة الرجل وحسب.

وما إن يبدأ الحدثُ حتى يَحضُرَ كل شيء آخر بشكل طبيعي: الالتزامُ بمسؤولياتك، والتعامل مع الأمور واحداً تلو الآخر... ستتركُ دراستك الجامعية ومن ثم ترمي بنفسك في مسيرة مهنية جديدة، سوفَ تتقدّمُ بأوراق الطلاق وتبدأ بإعادة بناء حياتك، وسوف تتوجّه نحو مكتب هيئة الأوراق المالية والبورصات (SEC) لتتقدم بشكوى. سوف تشغلك جهودك عن مخاوفك. عندما تبدأ بالتحرُّك فإنك تستغلّ زخم اللحظة وتحوّله إلى صالحك، ليدفعك إلى الأمام، بدلاً من أن يعمل ضدّك فيبقيك في مكانك.

ثمة مقولةٌ عظيمة في سيناريو كتبه كاميرون كرو ومات ديمون لفلم We Bought a Zoo (اشترينا حديقة حيوان)، والفلم مأخوذٌ عن قصة حياة كاتب بريطاني اشترى حديقة حيوان فعلاً. يقول مات ديمون لابنه الصغير في الفلم: «أتدري، أحياناً كلّ ما يلزمك هو عشرون ثانية من الشجاعة المجنونة. حرفياً

عشرون ثانية من الجسارة المحرِجة تماماَ. وإنني أعدُكَ بأنَّ شيئاَ عظيماَ سوف يأتي بسببها».

أنستطيع فعلاً أن نضمنَ هذا الوعد؟ لا، فالحياة ليست فلماً، والنتائجُ ليست أبداً مضمونة. قد لا تنجح، ولكن لا بدَّ لك من أنْ تحاول، لأنك إنْ لم تبدأ، فإن إخفاقك مضمونٌ فعلاً. تلك الثواني المعدودة تلتصقُ بنا طوال حياتنا كالحروف التي كانتْ، في قديم الزمان، تُوسَمُ بالنار على أجساد من يرتكبون الجرائم. وذلك العذر: «كنتُ خائفاً» لن يرضيك بعد مرور السنين.

عندما نتعجَّبُ من شجاعة الناس أو نَتهيَّبُهَا، فإننا كثيراً ما يغيبُ عنا أنها لم تكن شيئاً عملاقاً ومخطّطاً له بعناية، بل بدأتْ بقرار بسيط. بدأت بقفزة. يقول كينج متذكّراً قرار كينيدي: «لم يَكنْ واثقاً من أنه قرارٌ راجح سياسياً». ولكن كينج نفسه أيضاً عاش التجربة ذاتها، هو أيضاً لم يكن يعلم -عندما بدأ أول حملة مقاطعة باصات في مونتجمري- بأن ذلك الحدث سوف يغيّرُ حياته ويغيّرُ العالم أيضاً.

الشجاعةُ تتحدَّدُ باللحظة، بل بأقلَّ من لحظة. أي عندما نقرّرُ أن نخطو خارجاً أو إلى الأمام، وعندما نقرّر أن نقفز أو أن نعود أدراجنا.

شجاعة الإنسان ليست في العموم. بل هي شجاعةٌ في الخصوص.

بضع ثوانٍ وحسب... مقابلَ بضع ثوانٍ وحسب من الشجاعة المحرجة نستطيعُ أنْ نكون عظماء.

وذلك يكفي.

اجعَلها عادةً

كان هاري برنز سياسياً عادياً في ولاية تينيسي عام 1920، لا تاريخ له من المواقف الجريئة أو الأصوات الشجاعة. كما أنه لم يكن صاحبَ حملاتٍ كبرى، ولا نجماً سياسياً حتى. كان آنذاك في الخامسة والعشرين من عمره، وقد قضى من فترة ولايته في مجلس نواب الولاية سنتين.

«إن صوتي لن يؤذيكم أبداً»، كذلك قال مُطمئناً رؤساءه السياسيين، الذين كانوا معارضين بشدّة للمصادقة على التعديل التاسع عشر، وهو الذي يمنحُ حقَّ التصويت للنساء. صدَّقوا برنز، وقد وفى بوعده مصوّتاً مرّتين لتأجيل مناقشة مصادقة التعديل. بل إنه ارتدى وردةً حمراء في ياقته، وهي الرمزُ الذي تبنّته النساء اللاتي عارضنَ منحَ حقِّ التصويت.

لك أن تتخيَّلَ المفاجأة، إذاً، التي حصلتْ في 18 أغسطس عندما صوَّت بـ «نعم» مُرجِّحاً كفة الميزان نحو المصادقة على التعديل، ولم يقتصر الأمر على ولاية تينيسي فقط، بل تعدّاها ليتسبّب بالمصادقة على التعديل في الولايات المتحدة كلها، مما مَنَحَ حوالى عشرين مليون امرأة حقَّ التصويت. ولنا أنْ نتخيَّلَ صدمته كما لنا أنْ نتخيَّلَ رُعبه أيضاً، فهاري كان ابنَ أمِّه، وهو حرفياً يعيلُ أمّهُ الأرملة. وصلَتهُ تهديدات بالعنف، وباتتْ فرصة إعادة انتخابه في مهبِّ الريح لأن أكثرية المصوّتين له لم يكونوا مسرورين مما جرى.

ولكنه فعلها على أي حال[15]. وأغلبُ الظنّ أنها كانت اللحظة الأكثر رُعباً في حياته.

نستطيعُ أن نقارن بين شجاعة هاري برنز المُعذَّبة بلحظةٍ مشابهة في حياة السياسي جون ماكين. بعد مئة عامٍ من الأزمة الأخلاقية التي عانى برنز منها، انعقدَ التصويتُ على مشروع الرعايَة الصحية في مجلس الشيوخ الأمريكي، وماكين مناهضٌ قديمٌ لذلك المشروع الذي صار يسمّى «أوباما كير» (Obamacare)، بل إنه في الواقع قادَ حملةً لإسقاط المشروع. ولكنه في لحظة تصويتٍ دراميةٍ، وفي وقتٍ متأخّرٍ من إحدى الليالي عام 2017، أقدمَ على التصويت الحاسم على قرار رفض المشروع، فرفع ذراعَه السليمةَ الوحيدة إلى الأعلى ومن ثم أدارَ إبهامَه نحو الأسفل بحدّة قائلاً: لا، وخَيَّبَ بذلك جهودَ الجمهوريين في تعويق مشروع العناية الصحية.

انتقدَ ماكين سابقاً التكتيكات التي اتبعها الديمقراطيون لتمرير القانون في 2010، ورفضَ أن يدْعَمَ الحزبَ الذي ينتمي إليه في فعل الشيء ذاته بعد وصوله إلى السلطة. ولكن السبب الذي دفعه إلى الرفض أقلُّ أهمية في الواقع بالنسبة إلينا مما شعر به أثناء الفعل.

على الرغم من أنَّ التصويت في حالة الرجلين كليهما لم يتطلّب سوى «بضع ثوانٍ من الشجاعة»، فمن المؤكّد أنَّ ماكين كان أقلّ تخوّفاً من هاري برنز. لم يكنْ متضارباً في قناعاته، ولا تردَّد أو شكّك في نفسه، لأن عادته في مسيرته السياسية هي مفاجأة الناس: أنْ يكون الرجلَ الذي يُغضِبُ الجميع، وأنْ يلتزم بالمبدأ حتى إنْ لم يكن ذلك الخيار الأكثر تماشياً مع مصلحته الخاصة.

أغلق هاري برنز عينيه وقفزَ نحو المجهول، وأغلبُ الظنِّ أنه كان شبه واثقٍ من أن تصويته هذا عبارةٌ عن انتحارٍ سياسي. ما كان قد فعل شيئاً يشبه ذلك من قبل، وما كان على درايةٍ بالرعشة التي تملأ صدرَ الإنسان. لم يكن عريقاً في الشجاعة، ولولا الملاحظة التي قدّمتها والدته لما استطاع، على الأغلب، أنْ يواجه لحظةَ الخوف والشك. قالتْ له والدته: «تشجعْ وصوِّت على منح حق التصويت للنساء ولا تُبْقِ الناس في الشك. لاحظتُ كيف كانت خطبة شاندلرز ممتلئةً بالمرارة. كنتُ أتفرّجُ لأرى كيف ستواجه أنت الأمر ولكنني لم أشاهد شيئاً حتى الآن... لا تنسَ أن تكون ولداً بارّاً وتساعد السيدة ’توماس كات‘ في مسألة جِرذانها [Rats]. هل هي من وضع الجرذ في المصادقات [ratification] على التعديل؟ ها! هذا كلّ ما ستقوله ماما هذه المرة... مع الكثير من الحب، التوقيع: ماما»[16].

أما والدة ماكين التي كانت حيةً تُرزق وعمرها مئة وخمسة أعوام وقتَ التصويت على مشروع الرعاية الصحية، فلم تحتجْ إلى تذكير ابنها بشيء، لأنها ربَّته منذ ولادته على فعلِ الأمور الصعبة. كتب ماكين لاحقاً عن الخبرات التي تعلّمها منها: الترحيب بالصعوبات بصفتها «عواملِ الحياة المثيرة للاهتمام». لقد جعلَ من الشجاعة عادةً، وكذلك علينا جميعاً أن نفعل. وتقدر أن ترى ذلك في عينيه أثناء مشيه مبتعداً بعد أن حزم أمره واتّخذ قراره: ثمةَ فخرٌ في خطواته. لقد استمتع بتوجيه تلك الضربة المباشرة إلى وجه قيادة الحزب الذي ينتمي إليه، وقد كانت تلك اللحظة الفارقة في حياته ومسيرته المهنية.

لا يمكننا أنْ نكتفي بتمنّي أن نتحلّى بالشجاعة عندما تلزمُنا، بل لا بدَّ من أنْ ننمّيها فينا ونرعاها. إن الرياضيَّ لا يتوقَّعُ أن يُسدِّدَ الضربة التي تحقّق الهدفَ

أثناء المباراة فقط، بل يتدرَّبُ عليها آلاف المرات: يتدرّبُ على تلك الضربة أثناء النزالات الودية، وفي المباريات العفوية وغير الرسمية، ويتدرّب عليها وحده في صالة التدريب بينما تدقُّ ساعةُ العدِّ التنازلي نحو المباراة الكبيرة في عقله.

يتداولُ الناس نصيحةً قصيرة صارت مكرّرةً ومبتذلةً بعض الشيء: افعلْ شيئاً واحداً يُرعبك كل يوم... ولكنها ليست نصيحةً سيئةً في الواقع، إذْ كيف لكَ أنْ تأملَ في مواجهة الأشياء الكبرى التي تُخيفك، والتي تُخيف الآخرين، إذا لم تتدَّرب على مواجهتها؟ كيف لك أن تكون واثقاً من قدرتك على المضيّ بشجاعة نحو الأمام حين تكون المخاطر محتدمةً إذا لم تمارس ذلك حتى عندما تكونُ المخاطرُ بسيطةً؟

ولذلك لا بدَّ لنا من اختبار أنفسنا: علينا أن نجعلَ الشجاعةَ عادتنا.

«دائماً افعل ما تخاف من فعله» كما يقولُ رالف والدو إيمرسون. أو كما كتب وليام جيمس: إننا نريدُ أنْ «نجعلَ جهازنا العصبي حليفنا بدلاً من أن يكون عدونا». عندما نجعل الأشياء تلقائيةً يقلُّ عددُ الأشياء التي تشغلُ بالنا، فتصبح مساحةُ فعل الشيء الخطأ أقل عندنا . ويكمل جيمس قائلاً: لا أحد أكثرُ تعاسةً من الشخص «الذي لا يعتادُ شيئاً إلا التردّدَ في القرار». بل في الواقع هناك من هو أكثر تعاسةً: لا أحد أكثر تعاسةً من الشخص الذي جعلَ من التقهقر والتراجع والجبن قراراته المُفضلة التي يعتمد عليها في كل وقت.

وليسَ الأمر أن حياتَه مزريةٌ وحسب، بل إنه يخذلُ نفسه ويخذلُ الآخرين في اللحظات الحاسمة.

إنَّ أفضلَ ما تستطيع فعله، إذاً، هو البداية بالأشياء الصغيرة: نستطيعُ أن ندير صنبور الماء نحو جهة الماء البارد[17] أثناء استحمامنا، ونستطيعُ أن نتطوَّع لمخاطبة جمهورٍ منزعج، ونستطيعُ أن نرتدي الزيّ التنكريّ السخيف كي نُسعِد أطفالنا من غير اكتراثٍ برأي الآخرين فيه، ونستطيعُ أنْ نعترفَ بأننا لا نعرف أمراً ما، فنخاطرُ بأن ينظر الناس إلينا شزراً باستصغار، ونستطيعُ أنْ نوافقَ على تجربة ما لم نجرِّبه من قبل.

وبهذه الطريقة نعلمُ، حين تحينُ اللحظةُ الحاسمةُ، ما يتوجَّبُ علينا فعله. نعلم ما الذي سوف نقومُ بفعله تلقائياً.

نفعلُ الشيءَ الشجاعَ، الشيءَ الصحيحَ، الملتزمَ بالمبدأ...

مهما كانت العواقبُ.

بادر بالهجوم

سأل مذيعٌ تلفزيوني الجنرالَ جيمس ماتيس: «ما الشيءُ الذي يُقلقُ نومك في الليل؟».

وما كادَ المذيع ينطقُ بالسؤال حتى أتاه الجوابُ مسبقاً:

«أنا من يُقلقُ نوم الناس».

إنها إجابةٌ تُلخِّصُ فلسفةَ هذا المحارب في الحياة (وفلسفة كلِّ محاربٍ قبله وبعده): إنها فلسفةٌ هجومية، فلسفةٌ مبادرةٌ، فلسفةٌ تعتمد على إرعاب العدو بدلاً من الرعب منه، وعلى ضرب الخوف في قلوب الأعداء (وعلى الضرب بحد ذاته أيضاً) بدلاً من تركهم يضربون الخوف في قلبك. ولهذا السبب فقد كان الجنرالُ يأمرُ جنودهَ بأنْ يخيّموا في معسكرٍ على شكل حرف V، بحيث يكون سهماً موجهاً نحو العدو. وهذه الفلسفةُ هي أيضاً السبب في الحادثة المشهورة، حيث صرفَ الجنرالُ ضابطاً ممتازاً في حرب الخليج لأن وتيرته كانت بطيئة. لنا هنا أن نستعير عبارةً من الجنرال البريطاني السير دوجلاس هيج، إن جوهر الجنرال ماتيس مزيةٌ لا بدَّ أن يملكها كل الجنود العظماء: «رغبةٌ صادقةٌ في الاشتباك مع العدو». وهو لا يقبلُ أقلَّ من ذلك من جنوده.

ماذا؟ هل ستنتظر عدوَّك بينما يُحضِّر نفسه؟ هل سوفَ تمنحُه الأفضلية؟

مستحيل!

نسمي ذلك في الحياة المدنية: المُبادرة. وفي الرياضة نسميه: الرغبةَ في الانتصار. وإذا ما نظرنا إلى تعابير عالم الحرب المتوحش، فإننا نجد التعبير التالي: غريزة القاتل (killer instinct).

من المستحيل امتلاكُ غريزة القاتل من دون التحلّي بالشجاعة، فالواحدةُ منهما ملازمةٌ للأخرى، ولا أحدَ يحقّق إنجازاتٍ عظيمةً من دونهما، ليس في الحرب ولا في التجارة ولا في الرياضة، ولا في الحياة ككل.

لم يسأل الإسبرطيّون أبداً عن عدد جنود العدوّ، بل كانوا يسألون وحسب: أين هم؟ لأنهم سوف يهاجمون على أي حال، لأنهم دخلوا الحرب بنيّة النصر.

في الحملة العسكرية ذاتها التي قرَّرَ جرانت أثناءها أنْ يتولّى مهمة احتلال بيترسبيرج -وهي المهمة الضخمة التي خشي الآخرون كلّهم من تولّيها- عانى من إحباطٍ متكررٍ بسبب جنوده الحذرين، وهم رجالٌ تعرَّضوا لقساوة الحرب سنواتٍ طويلة على يد عدوّهم روبرت إي. لي وجنود الكونفيدرالية الذين هم تحت إمرته، في الوقت ذاته الذي كان جرانت يحقّق فيه الانتصارات في معارك الغرب الأمريكي. كانوا يحاولون توخّي الحذر في كل خطوةٍ صغيرةٍ ولا يتقدَّمون قيد أنملة إلا على مضض، كما أنهم لم يرغبوا في المبادرة بالهجوم، وحذّروا جرانت من أهوال دخول روبرت لي في معركةٍ ضاريةٍ.

أما جرانت الذي تعلَّمَ شيئاً في سهول تكساس عن المخاوف الوهمية والمبالغة في تقدير قوة العدو، فقد ضاق ذرعاً بهم في آخر المطاف، وقال للجنرال الذي أتاه حاملاً المزيد من التوقّعات المُحبطة: «لقد سئمتُ بكلّ جوارحي من الحديث عما سيفعله روبرت لي. يبدو لي أن بعضَكُم يخشى على الدوام من أنه سوف يقفز متقلباً في الهواء ومن ثم يهبطُ وراء جيشنا وعلى يمينه وعلى يساره في الوقت ذاته. ارجعْ إلى مركز قيادتك وحاولْ أنْ تُفكِّرَ في ما سنفعلُه نحنُ بدلاً من التفكير فيما سيفعله روبرت لي».

وهكذا أصدرَ أوامره: «أينما يذهب لي، فسوف تذهبون أنتم أيضاً». سوف يتابعون نحو الأمام، ولن يعودوا أبداً إلى الموقع الدفاعي.

ونتيجةً لذلك، وبعد عامٍ واحدٍ، ما فعله روبرت لي كان الاستسلام... الاستسلام لجرانت.

كانت هذه هي اللحظة الحاسمة في الحرب الأهلية: اللحظة التي اتَّخذ فيها الشمالُ مبادرةَ الهجوم. قرَّرَ جرانت أنْ يتوقّفَ عن تلقّي اللكمات وأن يبدأ بتسديدها نحو أعدائه. وحين كانت المبادرةُ في يدِ روبرت لي، كان الجنوب منيعاً، ولكن في اللحظة التي خسر فيها المبادرة، أصبحتْ هزيمةُ الجنوب مسألةَ وقتٍ وحسب.

ويصحّ ذلك حتى عند التعامل مع أكثر الخصوم ضراوةً: سوف يستمرّون بضربنا ما دمنا نتركهم يضربوننا، ولكننا عندما نأخذُ المعركةَ إليهم، حين نختار نحن أرض المعركة، ونركّزُ على مواضع ضعفهم هم، يصبحُ لدينا فرصةٌ للنجاح على الأقل.

أياَ كان الأمرُ الذي تفعله فلا بدَّ لك من أنْ تسعى نحوه بشراسة. عندما تعمل من منطلق الخوف، عندما تتردَّدُ في خطواتك، فلن يكون أمامك أي إمكانيةٍ للانتصار. إنَّ القيادة بهذه الطريقة المترددة، وبكل بساطة، مستحيلة. كي تنجحَ لا بدَّ لك من المبادرة بالهجوم. حتى عندما تتوخّى الحذرَ فلا بدَّ من أنْ يترافقَ حذرُكَ مع افتراض التقدّم باستمرارٍ، والتحرّك بإصرارٍ دائمٍ على النصر. عليكَ أن تتحكّمَ في إيقاع الأحداث، بل عليكَ أن تفرضَ الإيقاعَ: في الحرب، وفي غرفة الاجتماعات، وفي كل الأمور الصغيرة والكبيرة. هدفك أن تجعلهم يخافون مما ستفعله، وليس العكس.

لا تتقهقر

في صباح أحد أيام الاثنين، قرّر فريدريك دوجلاس اليافع أنه اكتفى.

لقد أتى ’إدوارد كوفي‘ لمعاقبته، وهو جلادُ عبيدٍ مشهورٌ بوحشيته، ولكن دوجلاس أمسك به من عنقه. صُعقَ المُشرفُ عندما رأى مقاومَته، فهو لم يختبر شيئاً كهذا من قبل. كلُّ عبدٍ يعلمُ أنَّ مدَّ يده نحو رجلٍ أبيض يعني الموت، وعلى الرغم من ذلك: ها هو دوجلاس أمامه، وعمره سبعة عشر عاماً فقط، ويضربُ رجلاً أبيضَ بضراوة.

صرخَ كوفي طالباً المساعدة، ولكن سرعان ما تقهقرت التعزيزات عندما لَكَمَ دوجلاس الرجلَ الأولَ في صدره واستمرّ القتالُ ساعتين! ساعتين كاملتين ودوجلاس وكوفي يتصارعان في الساحة. دوجلاس يقاتلُ بوحشيةٍ دفاعاً عن حياته، عن كرامته بحد ذاتها كإنسان، وأما كوفي فقد كان متفاجئاً ومُهاناً، لا سيما أنه لم يتعوّد الاضطرار للدفاع عن نفسه. في آخر المطاف، وبعد الهزيمة والإرهاق والرعب، سَمحَ كوفي لدوجلاس بالمضيّ في طريقه، وعَقْلَنَ الحادثةَ في نفسه مُعتقداً أنه قد لقّن ذلك العبد درساً ملائماً.

«يأتي زمانٌ يملُّ الناس فيه من الانسحاق تحت أقدام القمع الحديدية»، كذلك قال مارتن لوثر كينج لاحقاً. قرَّرَ دوجلاس أنه قد تعبَ في صباح ذلك اليوم في ماريلاند، وذلك غيّر كلَّ شيء.

كتب دوجلاس: «شعرتُ كما لم أشعر من قبل، لقد كانت ولادةً جديدةً مجيدة، من قبر العبودية إلى جنة الحرية. روحي التي سُحِقت منذ زمانٍ بعيدٍ نَهضتْ من جديد، والجبنُ ارتحلَ، وحلَّ محلّه التحدي الجريء. والآن عَقدتُ عزيمتي: بصرف النظر عن طول الزمان الذي سأبقى فيه عبداً في القانون، فقد ولّت إلى الأبد الأيام التي كُنتُ فيها عبداً في الحقيقة».

من أين جاء ذلك النداءُ الذي مَنحه تلك القوّة؟ كي نفهمَ ذلك علينا أنْ نعودَ لنرى دوجلاس وهو في عمر ثمانية أعوام، حينَ شاهدَ أَمَةً اسمُها نيللي تتعرَّضُ

لجلدٍ متوحّش. ولكن مراقبَ العملْ، وهو رجلٌ لئيمٌ وواثقٌ من نفسه، لم يكن يدري بالعبء الذي سيتحمَّلُه جرَّاء مقاومة نيللي الشجاعة، وهي أمٌ لخمسة أطفال. لقد تشبَّثَتْ بأيديها وأظافرها وبكل شيء حولها، بحيثُ جعلت محاولَتَهُم لجرِّها إلى الخارج بالغةَ الصعوبة. صاحتْ وصرختْ، وتشبَّثتْ بالتراب مُمسكةً بأيّ شيءٍ ممكن، بينما كانوا يجرُّونها نحو العمود الذي سيجلدونها عليه. حتى أن أحد أطفالها عَضَّ المُراقبَ من رِجلِه. يقولُ دوجلاس ملاحظاً: «بَدتْ وكأنها مُصممةٌ على جَعلِ تكلفة جَلْدِها كبيرةً قدر الإمكان».

ولما رُبِطَتْ على العمود وجاءَ وقت تنفيذ المراقب للعقوبة، كان وجهه الدامي شاهداً على نجاح نيللي . حتى عندما جَلدَها لم تقبلْ بالخضوع، فأمطرتْ عليه وابلاً من اللعنات، شاتمةً شرور العبودية وشناعةَ الذين يستغلونها للربح. تَمزَّقَ جِلْدُهَا، إلا أنَّ روحَها لم تتحطَّمْ.

لم يُفارقْ ذلك المشهدُ ذاكرة دوجلاس الطفل، وزرع في عقله بذرةً من الشجاعة، وتبرعمت، وأزهرت فجأةً وبعنفٍ في اليوم الذي تحدَّى فيه سَيّدهَ، ومن ثم حَملتْ بعد إزهارها ثماراً بطوليةً على امتداد سبعة وخمسين عاماً من النشاط العلني للدفاع عن الحرية.

كيف يُمكنُ لأيّ أحدٍ أنْ يُرعب دوجلاس مجدداً؟ كيف يُمكن للمخاطر أنْ تردعه؟ أيُّ تهديداتٍ يقدرُ خصومُه على استعمالها ضده؟ حدّق الرجل إلى موته الأكيد، وأرغَمَ القمعَ العارمَ على التقهقر، حتى عندما كان عبداً.

ما إن تتذوقَ الشجاعةَ، والحريةَ، وتقفَ مدافعاً عن نفسك، فإنك لن تحتملَ مذاق الخوف المرّ كما كنت تحتمله سابقاً. وهذا صحيحٌ في حالة شابٍ وفتاة يافعين يتشاركان طاولة غداءٍ مع الملونين في عام 1956 كما هو صحيحٌ في حالة الولد الضعيف الذي يقفُ في مواجهة المتنمِّرِ في المدرسة.

كتب دوجلاس: «ذلك الاعتقادُ القديم بأنَّ الخضوعَ هو العلاج الأفضل للغضب والخطأ هو اعتقادٌ لا يَصلُحُ في حالة مزرعة العبيد، لأنَّ الذي يُجْلَدُ كثيراً هو من يَسْهُل جَلْدهُ، وأمَّا العبدُ الذي يمتلكُ الشجاعةَ للدفاع عن نفسه ضدَّ المراقب، فإنه على الرغم من تعرُّضه للعديد من الضربات القوية في البداية، فسوف ينتهي به المطافُ رجلاً حراً حتى لو بقي عبداً في نظر القانون».

تستطيعُ قتلي ولكنك لا تستطيعُ جَلْدي. أصبح هذا شعار دوجلاس. وبالفعل لم يُجلَدْ مجدداً، فأصبح كما قال: نصفَ حرٍّ في اللحظة التي فرضَ نفسَه فيها. وسرعان ما حازَ المتبقي من حقوقه عبر المغامرة بالهروب نحو الحرية، تحتَ تهديد الجلاوزة الذين يطاردون العبيد طمعاً بمكافآت مالية من الأسياد.

يصحَّ هنا أنْ نستعيرَ عبارةً أخرى من مارتن لوثر كينج: عندما نقفُ مشدودي الظهر، فمن الممكن أن يَضْرِبُونا، ولكن ليس من الممكن أن يَرْكبُونا. وعنى ذلك في حالة دوجلاس أنْ يقاتلَ... حرفياً. بينما قاومَ كينج ونشطاءُ الحقوق المدنية الآخرون بطريقة مختلفة، فرموا بأنفسهم مراراً وتكراراً أمام الكلاب البوليسية وخراطيم الماء التي تُستعمل لقمع المظاهرات والعيارات النارية التي يُطلقها الراغبون في إبقائهم تحت القمع، وذلك حتى امتلأت السجون، وانهار النظام.

لا يمكننا احتمالُ الإساءة أو القيود أو الظلم. لا يمكننا الاختباءُ من مشاكلنا. لا يمكننا إلا التوجهُ نحوها. إنَّ الإذعانَ ليس بحل، وليس لنا أيضاً أنْ نتوقّعَ اختفاءَ المظالم وحدها بسحرٍ ساحرٍ، بل لا بدَّ لنا من أن نرسم الخط الفاصل في مكانٍ ما، وإن لم نستطعْ فعلَ ذلك الآن فوراً، فلا بدَّ من أن يكون في وقتٍ قريبٍ جداً. لا بدَّ من أن نطالب بحقنا في حكم ذواتنا، وأنْ نُصر على ذلك الحق.

كل واحدٍ منا يملك سلطةً أكثر مما يَظنُّ.

وعبر المطالبة بحقوقنا، عبر مقاومة القمع أو الإساءة أو المعاملة الرديئة، فإننا لا نتصرفُ بشجاعة وحسب، بل إننا -مثل دوجلاس- نساعدُ كل من يأتون بعدنا.

الشجاعة مُعدية

أرسلت بلادٌ في طلب المساعدةِ العسكرية من إسبرطة، فرفض الإسبرطيّون إرسالَ جيشهم، بل أرسلوا قائداً إسبرطيّاً واحداً.

هذا كلُّ ما تطلّبه الأمر.

لأن الشجاعة كالخوف: مُعديَة. إنَّ شخصاً واحداً عارفاً بما يفعله، وغير خائف، ويملك خطةً لتدعيم الجيش أمام عدوٍ يفوقه عدداً، هو شخصٌ قادرٌ على النهوض بنظامٍ متهالكٍ، وتهدئة الفوضى حيث ضربت أطنابها. وبهذا لم يَحتَجْ حلفاءُ إسبرطةَ إلا إلى إسبرطيّ واحدٍ.

وكذلك تُروى حكايةُ الحارس الجوّال بِن ماكدونالد، والذي طلبَتْهُ السلطاتُ في دالاس في أوائل القرنِ العشرين ليوقفَ حلقة قتالٍ غير قانونية. وحينَ وصلَ، امتقعَ وجهُ العمدةِ خوفاً، وسأله: «أرسلوا حارساً جوالاً واحداً؟!» فأجابه ماكدونالد: «إنك تتعاملُ مع حالة شغبٍ واحدة، أليس كذلك؟»

هذه هي الحقيقة ذاتها التي ذكرناها سابقاً، ولكنها الآن تتجسَّدُ أمامنا في الحياة: رجلٌ واحدٌ يملك الشجاعة قادرٌ على أن يُشكِّلَ أكثرية.

لأن كلمة « يُشكِّلَ» هي النقطة الجوهرية، فالأمر لا يبدأ على هذه الحال. بل يتحول إليها.

ولا ضرورة لأن تكون جنرالاً إسبرطياً أو حارساً جوّالاً في تكساس حتى تُشكِّلَ أنت فرقاً أيضاً. يقول مؤرخُ الحروب والضابط في الجيش الأمريكي صامويل مارشال: «مهما كانت رتبةُ الرجل العسكرية متدنية، فإنه إذا استطاعَ السيطرةَ على نفسه يُسهمُ في السيطرة على الآخرين... إنَّ الخوفَ مُعدٍ، ولكن الشجاعة ليست أقلّ عدوى».

ليس من الضروري أنْ تكون أذكى رجلٍ في الكتيبة، ولا الأضخم، ولا الأبرع في الرماية، وليس من الضروري أنْ تمتلكَ كلّ الإجابات. كلُّ ما عليك فعله هو المحافظةُ على انضباط نفسك: يجبُ أنْ تقومَ بعملكَ في لحظته، وأنْ تترك تدريبَك يقودك. يجبُ أن تفعل ما هو صحيح، وما هو حاضرٌ أمامك مباشرةً، بشجاعةٍ، وهدوءٍ ووضوحٍ.

وذلك بصرف النظر عمَّنْ أنت، وبصرف النظر عن العمل الذي تؤديه.

إنَّ المواطنَ الذي لا تُشتِّتُه البروباغندا المتلاعبة يساعدُ في إرغام الحكومة على تَحمُّل مسؤوليتها، والرجلَ الذي لا يُهرع نحو البنك عندما تتذبذبُ الأسواقُ يساعدُ في إبقاء الاقتصاد مستمراً، والأبَ والأم اللذين يُظهران الشجاعة أمام طفلهما يساعدانه في محاربة السرطان. وذلك تماماً كما يساعد الجندي العادي رفاقَه في الحرب ويُلحقُ الأذى بعدوهّ بمجرَّد أنْ يشد خوذته على رأسه بعزيمة، ويشدّ على أسنانه المُحطّمة رافضاً حتى أنْ يُفكّرَ في التراجع. كما قال مارشال: «تنعكسُ شجاعةُ أي رجلٍ، إلى حدٍّ ما، في شجاعة كل أولئك الموجودين على مرمى بصره».

إنك تصنعُ فرقاً عندما تتصرّفُ بشجاعة، وذلك لأنك تجعلُ من الآخرين شجعاناً عبر شجاعتك.

كما يتفشّى الفيروس، تنتشرُ السكينةُ بالتواصُل. تنتشرُ عبر الهواء. إننا نَبثُّها من حولنا، فنُقدِّمُ قوّتنا الفائضة للآخرين، ونُعديهم كما يُعدُون بدورهم غيرَهم، وهذه ليست عدوى محبطةً ومؤذية، بل عدوى تُنمّي القوة والإصرار.

عندما يتغيَّرُ كلُّ شيءٍ بفعل الخوف، تستطيعُ شرارةٌ صغيرةٌ أنْ تُشعلَ ذعراً مستعراً، وقد يُدمّرُ ذلك المعنويات، ومن ثم يتسبّبُ بالهزيمة. ولكن، وبالسهولة نفسها، يستطيعُ شخصٌ واحدٌ أن يُفرِّغَ هذا التيار الكهربائي الخطير عبر تأريضه. يقدرُ شخصٌ واحدٌ على تحويل الأمورِ من حالٍ إلى حالٍ.

أما السؤالُ فيما يخصُّكَ، إذاً: هل أنتَ ذلك الشخص؟ أأنتَ جزءٌ من المشكلة أم إنك قادرٌ على أنْ تكون الحلَّ؟ هل أنتَ من يطلبونه وقتَ الحاجة؟ أم أنت من يحتاجون إلى تهدئة روعِه وقت الشدّة؟

عليك أنْ تتحمَّل المسؤولية

من الغريب كم يحدث ذلك: يتبيَّنُ أن شخصاً ما... شخصاً شجاعاً بشكلٍ استثنائي... يخافُ من الشيء الأكثر اعتياديةً في الحياة: المسؤولية.

في أكتوبر من عام 1854 أمرَ اللورد لوكان بهجوم اللواء الخفيف، ووضعَ اللواء تحت إمرة اللورد كارديجان. وفي قرارٍ مشترك، أرسلا حوالى ستة آلافٍ من الخيالة البريطانية لمواجهة القوّات الروسية في واحدةٍ من أكثر المناورات العسكرية شجاعةً وبسالةً في التاريخ العسكري، ولكنها أكثرُها عبثاً أيضاً.

وإليك تصريحاتهما:

«يا رجال إنها خدعةٌ متهوّرة، ولكنها ليست خطئي أنا».

«إنني لا أنوي أن أتحمَّلَ أقلّ ذرةٍ من المسؤولية. لقد أصدرتُ أمرَ الهجوم نظراً لما اعتبرته ضرورةً قصوى، ولنْ أتحمّل مقدار ذرةٍ حتى من اللوم».

يستطيعون تحمُّلَ رصاصَ العدو الذي لا يرحم. يستطيعون المسيرَ بإيقاعٍ موحّد في وجه النيران المستعرة؛ ولكن النقد؟ واللوم؟ هذان شيئان يهربُ منهما كل القادة الضعفاء. لم يستطيعا حتى أن يستجمعا الشجاعةَ اللازمةَ لمساءلة الأوامر العديمة المنطق بشكلٍ مطلق والتي أدت إلى الهزيمة التراجيدية، بل مرَّراها ببساطةٍ إلى رجالهما، ففضَّلا الموتَ شبه المؤكّد على تحمُّل المسؤولية التي على عاتقهما.

القاعدة كالتالي: أنت قرّرت الانطلاق.

الآن عليك أن تتحمل مسؤولية ما سيحدث.

لا أعذار. لا استثناءات.

عليك أنْ تتحمَّلَ مسؤولية أداء واجبك في هذا العالم... هذا كل ما نطلبه منك. عليكَ أنْ تتحمَّل مسؤوليةَ أفعالك لا سيما إذا كنتَ أنتَ القائد.

المسؤولية تقع على عاتقك. دوماً.

«ليس خطئي». «ليست مشكلتي». «لا تَلُمني»... هذه عباراتٌ لا يجوز أن توجد في قاموس مفرداتك.

ليس إذا أردت أن تكون عظيماً. بل إنها لا ترد في قاموسك إلّا إذا كُنتَ جباناً.

لاحظتْ جوان ديديون: «إن استعدادَ الإنسان لقبول مسؤوليّته عن حياته الخاصة هي النبعُ الذي يتدفّق منه احترامُ الذات».

إن مميزات القيادة لها ثمنها. ضريبة الشجاعة مُكلفة. عليك أنْ تتحمَّلَ المُساءلة المحتدمة والاتهامات.

إذا كانَ ذلك يزعجك فلعلَّ من الأفضل لكَ ألّا تفعلَ شيئاً، وألّا تقولَ شيئاً، وألّا تكونَ شيئاً.

إلا أننا دائماً ما نتوهّمُ أننا قادرون على الفرار من هذه الكلفة، فنظنُّ أننا سنتمكّن من التملّص.

ثمة تفصيلٌ مضحكٌ في حكاية هجوم اللواء الخفيف. كتب ألفريد، لورد تينيسون، وكان آنذاك شاعر بلاط الإمبراطورية، قصيدةً مؤلمةً وملهمةً عن البطولة التراجيدية التي أظهرها الجنود العاديون في ذلك الهجوم:

مدفعٌ على يمينهم،

مدفعٌ على يسارهم،

مدفعٌ من أمامهم

تقذفُ وتُرعبُ.

هُوجِموا بالرصاص وبالقذائف،

فرَكبُوا خيولَهُم ببسالةٍ وفروسيةٍ،

متجهينَ نحو أسنانِ الموت،

إلى فم الجحيم

إلى هناك اتجه أولئك الستمئة.

وهل تعلمُ كيفَ نشرَ هذه القصيدة؟ نشرها باسمٍ مستعارٍ لأنه كان خائفاً من أنَّ القصيدةَ لن تبدو «لائقةً» بشخصٍ في موقعه المرموقِ.

لقد قُلنا من قبل إن الشجاعة مُعدية، ولكن لا بدَّ لك مِن أنْ تتقبَّلَ الإصابةَ بتلك العدوى. لقد غمرَ تينيسون نفسه في شجاعة أولئك الجنود المساكين... ولكنَّه اتَّبعَ قدوةَ ضُبَّاطهم الجبناء بدلاً منهم.

إنْ كنتَ سوف تنطقُ بالحق: وقِّعْ باسمك. وقِّعْ باسمك على كل شيءٍ تفعله. إنَّ هذا هو الشيءُ الشجاعُ الواجبُ فعله... بل العادي.

إذا حطّمت شيئاً في متجرٍ فيتوجّب عليك أنْ تشتريه. وإذا قمتَ بتصرّفٍ عليك أن تتحمَّلَ مسؤوليته. وإذا قلتَ رأياً فعليك أنْ تدافع عنه. وإذا أمرتَ بفعل شيءٍ فعليك أن تقبلَ اللوم.

هذا هو النبعُ الذي يتدفّق منه احترام الذات، ويُصنعُ منه القادة.

يمكنك دائماً أن تقاوم

وقع الاختيارُ على القائد جيرايما دينتون ليكون ضيفَ بروباغاندا إذاعية.

وكانت قد مرّت عليه عشرة شهورٍ في معسكرِ سجناء حرب في شمال فيتنام، وتعرَّضَ لاستجواباتٍ وحشيَّةً دامت أيّاماً طوالا.

ولمّا جلسَ على الكرسي أمامَ الكاميرات، مُرهقاً وجائعاً ومتألماً، ويتوقُّعُ الضربَ الذي هدَّدوه فيه لاحقاً، أخذَ يَزنُ خياراته. بمقدوره أنْ يقولَ أي شيء: يستطيع أنْ يجيبَ عن الأسئلة بأسخف طريقةٍ ممكنة، ويستطيعُ أنْ يجدَ طريقةً ليمرر بعضَ الكلمات المُحبِّة إلى عائلته، إلى زوجته وأولاده السبعة الذين أعياهم الشوق إلى والدهم. ويستطيعُ أيضاً أن يقولَ كلَّ الأشياء التي أراد سجّانوه أنْ يقولها، فيحصلُ بذلك على استراحةٍ لطيفةٍ من المعاملة السيئة التي يتعرَّض لها في السجن يومياً، بل قد يحصلُ على معاملةٍ خاصة في بقية أيامه في هذا السجن المُسمَّى «هانوي هيلتون»[18].

لكنّهُ بدلاً من كل ذلك اختار وقفةً متحدِّية: فأجابَ عن أسئلةِ الاستجواب الروتينية، وبدأ دينتون يرمشُ بعينيه على نحوٍ بطيء، كما لو أنَّ أنوارَ الكاميرات تُزعجُ عينيه.

رمشةٌ طويلة.

ثلاثُ رمشات قصار.

رمشةٌ قصيرة، وبعدها رمشةٌ طويلة، ومن ثم رمشة قصيرة.

رمشةٌ طويلة.

رمشتان قصيرتان، ثم رمشةٌ طويلة.

رمشةٌ قصيرة، تبعتها رمشةٌ طويلة، ورمشةٌ قصيرة.

رمشةٌ قصيرة.

وهكذا حتى تهجَّأَ حروفَ كلمة (T-O-R-T-U-R-E) [تعذيب] باستعمال إشارة مورس على مرأى من العالم بأجمعه.

ظنَّ سجّانوه بأنَّهم قد أحبطوه، وبدلاً من ذلك، أحبَطَهُم هو باستعمال أدوات مُعذّبيه ضدَّهم، حيث أذلَّهم على الساحة الدولية.

قيلَ من قبلُ إنّ الرواقيَّ شخصٌ يقول للقدر «تبّاً لك». وهذا صحيح.

إنهم يقاومون. إنهم يقاتلون.

ليس بالإمكان إجبارُهم على فعل الشيء الخطأ، وخصوصاً تحت الضغوطات.

محامي الشركة ذلك الذي يأتيك ليُذكّرك باضطرارك إلى الالتزام بعقدِ عدم الإفشاء، بعد أن استقلت من عملك بقرف. ذلك المُنافس المستشرس الذي يقولُ لكَ إنه سيدفنُ عملَك التجاريَّ الضئيل تحت التراب إنْ لم تقبل بصفقته. ذلك المجرمُ البارعُ بابتزازِ الناس، الذي يطالبُك بالمال كي يتركك وشأنك. ذلك السياسيُّ الذي يريدك أنْ تخضع. صاحبُ المنصب الأعلى منك الذي يأمرك بالتراجع عن موقفك.

قد تأتيك كل تلك التهديدات بشكلٍ صريحٍ، أو بشكل ضمنيّ. قد تأتيك بخصوص قضيةٍ كبرى أو مسألةٍ صغيرة لا يكترثُ بها أحدُ سواك. وفي كل الحالات تبقى الرسالةُ المُوجهةُ إليك واضحة: اخضعْ وإلّا! نحتاجُ هنا إلى تذكُّر قصة الحامية الإسبرطية التي حاصرها الملك فيليب الشرس، وهو والد الإسكندر العظيم. قال لهم: إذا اخترقتُ هذه الأسوار فلن تكون النتائج جميلة. وإذا انتصرتُ فسوف أقتلُ كل واحدٍ منكم.

رد الإسبرطيون عليه بكلمةٍ واحدةٍ كبيرة: إذا.

والمعنى: إننا لن ننهزمَ بسهولة، والمعنى: سنجبرُك على أنْ تبرهنَ أنّك قادرٌ على تنفيذ هذه الكلمات. سوف تضطرُّ إلى أن تهزمني أولاً. يمكنكَ أن تقتلني، ولكنك لن تَجْلِدَني.

يا لهذا التحدَّي المحض. إنه شيءٌ لا نقدرهُ حقَّ قدرِهِ، فهو قادرٌ على أنْ يُنجزَ الكثير. وإذا ما استطاع فريدريك دوجلاس ونيللي أن يستخرجاه من أعماقهما على الرغم من قمع العبودية، فلماذا لا تستطيعُ أنت؟

لقد تحدَّثنا من قبل عن كيف أراد جون آدامز وضع هرقل على ختم الولايات المتحدة. أما بين فرانكلين فقد اقترحَ شعاراً للجمهورية الجديدة يشابهه في المعنى: «الثورةُ ضدَّ الطغاة طاعةٌ لله».

ليس الطغاةُ وحدهم من يستحقُّ ذلك، بل المتنمّرون أيضاً، والكاذبون، والمؤذون، والسفلة، والمحتالون، والديماغوجيّون، والغشاشون، والممثلون السيئون.

تقول الشجاعةُ: على جُثَّتي. تقولُ الشجاعة: لنْ يحدث ذلك ما دمت قادراً على منع حدوثه. تقول الشجاعة: سأفعل الأشياء بطريقتي، تبعاً لنظامي الأخلاقي الخاص، بصرف النظر عمّا تقول.

يستطيعون أن يؤذوك. يستطيعون الصراخ في وجهك. يستطيعون أن يفعلوا أشياء فظيعة.

ولكنك لست بلا حولٍ أو قوة، بل إنك في الواقع أكثرُ قوةً مما تظن. قال ديغول لحلفائه البريطانيين: «إنني أفقرُ من أن أنحني». لم يقبلْ بالخُضوع، ولنْ يمشي على رؤوس أصابعه كي يرضيَ أي أحدٍ، سواءٌ أكانوا أعداء أم أصدقاء. لقد كان محارباً، وهذا ما فعله في آخر المطاف.

إنك تملكُ سُلطةَ التحكّم في حياتك، وهذه نُسميها: الوكالة. وتملكُ القوةَ أيضاً، وتستطيع أن تجعلَهُم يندمون على معاداتك.

إيّاكَ وأنْ تقبلَ بأنْ خواتيم الأمور محسومةٌ ومفروغٌ منها. وحدهَ الخاسرُ يتوقَّفُ عن محاربة عدوه قبل أن تنتهي المعركة. استمرَّ في القتال من أجل كل متر. قاتلْ من أجلك أنت.

لا أحد قادرٌ أنْ يجبر إنساناً على فعل الخطأ. هذه السلطةُ ملكُ أيدينا، والسؤالُ ببساطة: كم نحن مستعدون لأن نمارسها؟.

كتب سينيكا في إحدى مسرحياته على لسان هرقل: «إذا استطاعوا إرغامك، فقد نسيت كيف تموت».

تذكّرْ ذلك.

الأقدارُ حليفةُ الشجعان

هذه واحدةٌ من أقدم الحكم وأكثرها انتشاراً في كلّ ثقافات العالم القديم، ففي الإنيادة تمرّ بصيغة: (audentis Fortuna iuvat)، وفي واحدةٍ من مسرحيات ترينتيوس ترد بصيغة: (fortis Fortuna adiuvat)، وأما ثيوقديديس، المؤرخُ والجنرال الأثينيّ، فقد صاغها على هيئة: ‘τοῖς τολμῶσιν ἡ τύχη ξύμφορος ، والأدميرال والمؤلف الروماني، بلينيوس، فقد صاغها على هيئة: Fortes Fortuna iuvat.

الأقدار تفضّلُ الجريء. الأقدارُ حليفة الشجاع.

إنها تفضّلُ الخطط الكبيرة. تُفضّلُ ركوب الخطر.

تُفضّلُ قرارَ قيادة الهجوم. تُفضَّلُ قرارَ تفريق صفوف الأعداء.

تفضّلُ قرارَ محاولة شيء جديد. تفضلُ قرارَ قبول التحدّي المجنون. طلبَ الزواج من أحدهم، الانطلاقَ في تلك الرحلة، رفعَ اليد تطوّعاً، رميَ الكرة مسافةً بعيدة لأن اللعبة باتت محتدمة وما عاد بالإمكان التخوّف من اعتراض التمريرات... على الرغم من أن الاحتمالات كثيراً ما تكون غير مواتية في هذه الحالات، فلا بد لك من معرفة أن زَخَمَ التاريخ يتحالفُ بصمتٍ معك. الحشدُ معك، وهم جاهزون لأنْ يهلّلوا فرحاً بانتصارك. وكلّما دفعت بنفسك نحو ذلك الموقع يصبحُ الحظُّ حليفَك أكثر فأكثر.

يُقالُ إن المهندس دانيال برينهام نصحَ طُلّابَه بألا يضعوا أيّ خططٍ صغيرة، وقصدهُ أن يحثَّهُم على التفكير في المساعي الكبرى، وأنْ يواجهوا المشكلات الضخمة، ولا يريدُ لهم البقاءَ عالقين في مُتفرقات الحياة الصغرى، بل يُريدُهُم أن يمدُّوا أيديهم نحو أهدافٍ بعيدةٍ. يُريدُهم أنْ يفعلوا شيئاً جديداً ومختلفاً حدَّ أنه يخيفهم.

كلّ القادةِ وروّاد الأعمالِ العظماء في التاريخ نجحوا بسبب المخاطر التي تقبّلوها. لأنهم ربما قد خافوا، ولكنهم لم يعيشوا خائفين. ولأنَّهم تجرأوا بجسارة. لأنهم دخلوا حلبةَ القتال. ألقوا النردَ على الطاولة. امتلكوا قلوباً شجاعة.

وقد حالفهم الحظّ أكثرَ ممَّا خالفهم، فلو لم يكنْ الأمرُ كذلك لما كنا نتحدثُ عنهم الآن.

كَتبَ الجنرال إيرفين رومل في إحدى رسائله: «في تجربتي أن القرارات الجريئة تُقدِّمُ أفضل فرصة في النجاح، ولكنْ يجبُ على المرء أنْ يُفرّقَ بين الجرأة الاستراتيجية أو التكتيكية وبين المقامرة العسكرية. العمليةُ الجريئة هي عمليةٌ ليستْ مضمونةَ النجاح، ولكنَّها إنْ أخفقتْ تتركُ للمرء ما يكفي من القوّات للتأقلم مع أيّ تطوّراتٍ في الأوضاع. أما المقامرةُ، من الجانب الآخر، فهي عمليةٌ تقودُ إما إلى النصر وإما إلى دمار قوّات المرء بـأكملها. قدْ تطرأ ظروفٌ تجعلُ حتى مثل هذه المقامرة مبرَّرة، مثلاً عندما يكون السَّيرُ العاديُ المتوقعُ للأحداث يجعلُ الهزيمةَ مسألة وقتٍ وحسب، فيكونُ اكتسابُ الوقت حينها بلا فائدة، وتكمنُ الفرصةُ الوحيدةُ في عملية ذات خطرٍ عملاق».

إن جرأة رومل التكتيكية والاستراتيجية على أرض المعركة هي التي جعلته خصماً ماكراً وصعباً في شمال أفريقيا في بداية الحرب العالمة الثانية. ولكننا لا نستطيع أن نتجنَّب إدانته، حيثُ نقصته الجرأةُ لمواجهة هتلر قبل اندلاع الحرب. بل في الواقع، لقد عانى من نقص الشجاعة هذا كل الجنرالات الألمان تقريباً، فالكثيرُ منهم كان يعتبرُ هتلر شخصاً مُختلاً وبغيضاً، ولكنهم لم يتجرأوا على كسر البروتوكول العسكري وتحدّيه عندما اختطف بلادهم. وهؤلاءُ الذين نتحدَّثُ عنهم بعضُ أكثر الرجال شجاعةً في العالم: رجالٌ واجهوا النيران والموت مرات ومرات، ولكنَّهُم، في قاعة الاجتماعات، ارتجفوا خوفاً وتمنُّوا أنْ يفعلَ أحدٌ آخرُ ما شيئاً. انتظروا، وعقدوا الأمل وصمتوا بشكلٍ جبان، فأصبحوا متواطئين في جرائم فظيعة. إننا لنْ نستطيعَ أبداً أنْ نفهمَ صراعَهم، ولكنَّ امتناعهم عن التصرّف حسمَ قدرَهم.

في نهاية المطاف، وبعد أن فاتتْ رومل الفرصةُ التي تمنحه الكثير من المكاسب مقابلَ القليل من الجرأة، لم يبقَ أمامه إلا المقامرة. ولكنْ مع حلول عام 1944، أصبحت المقامرة مبررةً أكثر، لأن الهزيمة باتتْ مسألةَ وقت وحسب، فلماذا لا يُجرّب؟ وكذلك فعل. لمْ تبتسم الأقدارُ للمتآمرين الذي حاولوا تنحيةَ هتلر وقتله في مؤامرة الـ20 من يوليو ولكنّ التاريخَ على الأقل يحترمُ محاولاتهم. القليلُ من الجرأة الآن أثمنُ بكثيرٍ من الجرأة الضخمة التي تتحدى الموت لاحقاً، فالأولى لا تحتاج إلا إلى القليل من عون الأقدار كي تنجح، بينما الثانية تحتاج إلى الكثير والكثير.

يتحدَّث جيف بيزوس، وهو مؤسس شركة أمازون، كيف أنه «لا يراهنُ بالشركة كلها»، لأنه ليس مضطرّاً لذلك: إنه نوعٌ من التساهلِ يضعكَ في موقعٍ يضطرك

إلى مخاطراتٍ كبرى. إنَّ الشركةَ التي تتجاهلُ توجهاتِ السوق سنوات طويلة هي التي تجدُ نفسها مضطرةً في آخر المطاف إلى الاختيار: إما أنْ تتغير جذرياً وإما أنْ تموت. إنك سوفَ تضطرُّ إلى المقامرة بكلّ شيءٍ إذا ما كُنتَ تحاولُ التعويض عن قصورك في الأداء سابقاً. والأفضلُ من ذلك، كما يقولُ بيزوس، هو اتخاذُ الرهانات الجيدة والمتناسقة في كل يوم: رهانات محسوبة بدلاً من أن تكون متهوّرة، رهانات على شكل دفعاتٍ محدودة ومتتالية، بدلاً من رهانٍ واحدٍ عملاقٍ وشديد الخطورة.

افعل الشيء الصعب الآن.

كن ثابتاً وشجاعاً اليوم، في كلّ شيء ذي قيمة.

وعليك أن تثقَ بأن الأمرَ ليس بالخطورة التي تعتقدُها، وأنك لستَ وحيداً كما تتصوّر.

ثمة ما يسندك من خلفك في هذا المسعى، حتى لو لم تشعر بذلك، فالأقدارُ موجودةٌ ها هنا. الأقدارُ تبتسمُ لك. ولكنها تملُّ بسرعة، وسوف تزدريك إذا ما تركتها تنتظر.

من الأفضل أن تخاطرَ الآن بدلاً من أنْ تُقامر لاحقاً.

وفي الحالتين: ابقَ جريئاً.

شجاعة الالتزام

يقول المؤرّخ هيرمان هيجدورن: «إنَّ قصةَ ثيودور روزفلت هي قصةُ ولدٍ صغيرٍ قرأ عن رجال عظيمين وقرر أنه يرغب في أن يصبح مثلهم». إنك تتحسَّسُ شيئاً من الاستهزاء في كلامه، أليس كذلك؟

في الواقع، إن روزفيلت قد آمَنَ. آمنَ بنفسه. آمن بالحكايات. آمن بأشياء أكبر من نفسه. ومنذ القدم وحتى الآن، يعتبرُ الكثير من الناس أن ذلك شيء سخيفٌ، بل خطيرٌ حتى. بل إن ذلك مذكورٌ في الكتاب المقدس: ولكّنْ لَمّا صِرْتُ رَجُلاً أبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ.

وقد سخروا من ديغول على نحوٍ مشابه، فقد آمنَ بصدقٍ وإخلاصٍ بعظمة فرنسا. وكان يؤمنُ بوجود شيءٍ اسمُه القدر. كان يقول: «فرنسا قوةٌ عظمى»، ويكرّرها مراراً، وهذا ادعاءٌ غير معقول نظراً لوضعها المتهالك، حيثُ هي تحت رحمة الحلفاء من جهةٍ وفي تعاونٍ سلبيّ مع النازيين من جهةٍ أخرى.

إنك إذا قرأتَ بعض اقتباساته قد تُكشّرُ. إنّ نزعةَ السخريةِ المريرةِ متجذرةٌ فينا بعمق: نريدُ من الناس أنْ ينضجوا، وأنْ يتعاملوا مع الواقع، وأنْ يتركوا الحكايات الخرافية وراءهم.

ولكنْ من دون هذا الإيمان، من دون شجاعة الاستمرار على الرغم من الازدراء والانتقاد، وحتميّة الإخفاق، فأين سنجد أنفسنا؟ لو كانَ ديغول أقلَّ اكتراثاً بفرنسا فمن المؤكد أنه لم يكن سيخاطرُ كما خاطرَ لإنقاذها. إنه إيمانُه المخلصُ بالقَدَرِ (بطريقةٍ تكادُ تُثيرُ الاشمئزاز) هو الذي مكّنه من تشكيل التاريخ. لقد استعمل إرادته المحضة لتحويل نفسه إلى رجلٍ عظيم وأصْلحَ أمةً عظيمةً في طريقه نحو ذلك. أما في حالة روزفيلت، فقد كان الاهتمامُ نابعاً من الشجاعة، فهو الذي حفَّزهُ لدعوة بوكر واشنطن إلى البيت الأبيض على الرغم من ترَدُّده. وهو السببُ الذي دفعه نحو تلك التلال لمواجهة العدو، وهو السببُ الذي رفضَ من أجله الخضوعَ تحت ضغط مصالح الشركات الكبرى وهو السبب الذي قاومَ من أجله عدم الاكتراث والغطرسة المتكبرة في طبقته الاجتماعية.

كما قالَ الجنرال ماتيس: السخريةُ السوداوية جبنٌ. أما الاكتراثُ فيتطلّبُ الشجاعة. وحدهُ الشجاعُ يؤمنُ، خصوصاً عندما تملأ الشكوكُ نفوسَ الآخرين جميعاً.

سوف يضحكون منك. منذ قديم الزمان والخاسرونَ دوماً يتجمعون في جماعاتٍ صغيرة ويتحدثون بالنميمة عن الرابحين. ولطالما سَخِرَ الإنسانُ فاقدُ الأملِ من صاحبِ الأمل. يبذلُ الخائفُ قصارى جهده ليقنع الشجاعَ بأنْ لا فائدةَ من المحاولة. منذ زمن الفلاسفة السفسطائيين، استعملَ الأكاديميون -لأي سببٍ سخيفٍ كان- عقولَهُمُ النيّرة ليُعكِّرُوا المياه بدلاً من تنقيتها.

هذا هو الضبابُ الذي لا بدَّ للشجاع من أنْ يقطعَ طريقَهُ عبرهَ. إنَّ طريقنا الحجريَّ ليس مرصوفاً بالمشجعين والمشجعات، بل بالمُخادعين الماكرين الذين يحاولون إغواءنا وتحييدنا عن طريقنا أو إقناعنا بالتخلّي عن مسعانا. من المحتمل أكثر بكثيرٍ أن تجدَ شخصاً يحاول إقناعك بأن الأمر الفلاني لن ينجح، وأنه لن يشكّل فرقاً، من أنْ تتعرضَ للتهديد أو الابتزاز لدفعك إلى التخلّي عن أهدافك. إنك تحتاجُ إلى الشجاعةَ كي تبقى نقيّاً، كي تستمرَّ بالاكتراث، كي تكون صريحاً وصادقاً بخصوص ما تؤمنُ به الجماعةُ المؤدبة التي حولك فتعرفُ أنَّهُ محضُ هراء.

هذا هو السببُ الذي يجعلُنا لا نحبُّ الحديثَ عن الشجاعة، ناهيك عن الفضيلة. إنها أشياء عفى عليها الزمان. أشياء غريبة. أشبَهُ بملصقٍ تشجيعيٍ تُعلّقُه فوق سريرك أيام المراهقة. ولذلك، يُشعرونك أن من الأفضلِ التخلّي عن هذه الأمور العتيقة، وإلا يحكمون عليك بأنك لست على المستوى المطلوب.

ولكن هل أنجز أحدٌ ما شيئاً في مجالٍ لا يكترثُ به؟ هل فعل أحدهم الشيء الصحيح من بابِ السخرية السوداوية؟ لم يصلْ أحدٌ إلى العظمة من دون أنْ يؤمن بأنَّ شيئاً كهذا يستحقُّ القيام به. لا أحدَ شجاعٌ قبل أنْ يتشجع في مواجهة السخرية السوداوية واللا اكتراث وينتصر عليهما.

«لا تخشَ من العظمة»، كذلك قال شكسبير. دعها تَدخُل في دمائك وروحك. حاربْ من أجلها.

من يكترث إذا لم يفهموا مسعاك؟ إنَّ أولئك الذين يضحكونَ من اندفاعك نحو الجبل هم أنفسُهُم الذين لا يستطيعون حتى أن يتخيَّلوا اتخاذَ الخطوة الأولى

نحو أرضٍ مجهولة. سوف تُثبتُ خطأهم. وحتى لو لمْ تفعل، فقد كنتَ على الأقل شجاعاً بما يكفي بحيث أقدمت على المحاولة.

العدميةُ للخاسرين.

أحبَّ جارك

إنها المثال الأقسى على اللا اكتراث والجلافة. إنها القصة التي أثبتتْ أنَّ ثمة شيئاً فاسداً جداً في عالمنا المعاصر.

في الساعة الثالثة صباحاً من الثالث عشر من مارس عام 1964، تعرَّضتْ امرأةٌ يافعةٌ اسمها كيتي جينوفيز للاغتصاب المتوحّش ومن ثم طُعِنت خارج المبنى الذي تعيشُ فيه. وعندما صرختْ طالبةً المساعدة، تجاهلوها. وبينما تردّدتْ أصواتُ ذبحها عبر الشارع الذي تعيشُ فيه، قامَ أكثر من ثلاثين شخصاً برفع أصوات أجهزة التلفاز، وخلدوا إلى فراشهم، أو قرّروا أن الأمرَ لا يعنيهم.

لماذا؟ بسبب الخوف. والأنانية. والانعزالية. لعلَّهم ظنّوا أنَّ أحداً آخر ما سوف يفعل شيئاً، أو لعلَّهم اعتقدوا أنهم غيرُ قادرين على فعل شيء. لقد سمحَ الجبنُ واللا اكتراثُ في هذا المجتمع لقاتلٍ ومغتصبٍ متسلسلٍ بأن يحصلَ على غطاءٍ ضخم بحيثُ وجدَ أنَّ لديه الوقتَ كي يعود ويسرقَ خمسين دولاراً من محفظة المرأة المقتولة.

ما الذي كنا سنفعله لو أننا في شقتنا تلك الليلة؟ هل سوف تتخدَّرُ عقولنا بفعل إحصائياتِ وجود 636 جريمة قتل سنوياً وحياتِنا المُرْهِقَة الخاصة بحيثُ إننا سنتجاهل صرخات امرأة تموت؟

على الرغم من أنَّ هذه القصة باتت تمثِّلُ كلَّ أمراض مجتمع اليوم، فالحقيقةُ أنْ أحدَ جيران كيتي لم يكنْ مُخدَّراً مثل الباقين. بل في الواقع كان هنالك أكثرُ من واحدٍ، وأحدُ هؤلاء الجيران سمعَ الأصوات فقرر الاتصال بصوفيا فارار، وهي سيدةٌ يافعةٌ أخرى تعيش في المبنى، ليخبرها بأنه يظنُّ أنَّ كيتي تتعرَّضُ لمشكلة.

صوفيا (وهي أمٌ في الثلاثينيات ومعها طفلٌ في المنزل) لمْ تُفكّرْ ولو للحظةٍ واحدةٍ في سلامتها الشخصية، فارتدتْ ثيابها بسرعة وركضتْ نحو الصوت. هناك وجدتْ كيتي مستلقيةً أمام باب المبنى، بحيثُ يمنعُ جسدُها بابه من الانفتاح. فتحت صوفيا الباب بهدوءٍ شديد، ووجدت أن كيتي تكاد تفقد الحياة،

وغارقةٌ في دمائها، ومطعونةٌ في الصدر والرئتين. أخذتْ صوفيا تهمسُ بلطفٍ لكيتي، محاولةً على الرغم من كلّ شيء أنْ تُنقذ حياتها. ومن ثمَّ أخذتْ تصرخُ حتى اتَّصل أحدهم بالمسعفين. شَجَّعتْ جارتها على أن تتمسّك بالحياة قائلةً لها إن المساعدة قادمةٌ في الطريق. أخبرت المرأة التي تموت على الأرض أنها محبوبة، وأن هنالك من هو موجودٌ بجانبها.

ولكن فات الأوان. قتلَ النزيفُ كيتي في سيارة الإسعاف قبل الوصول إلى المستشفى. قالت صوفيا لاحقاً: «أتمنى أن تكون قد عرفت أنني إلى جانبها، أنها لم تكن وحيدة».

نعم، إنَّ حكاية كيتي جينوفيز حكاية جبنٍ وقسوةٍ، ولكنها أيضاً حكايةُ صديقةٍ احتضنتْ صديقتها في لحظاتها الأخيرة، إنها حكايةُ المواساة والعطف والإحسان التي ما زالتْ ممكنةً في عالمٍ قد قررَّ الكثيرُ والكثيرُ من الناس أنْ لا أملَ فيه.

أيّ نوعٍ من الأصدقاء والجيران أنت؟

كانت كيتي جينوفيز شاذة جنسياً، وقد بدأتْ لتوها بالانفتاح علناً على جنوستها والسكن مع حبيبتها، وهذا ليس قراراً سهلاً في عام 1964. إلا أنها وصوفيا صديقتان، ليستا صديقتين بمعنى أنهما تقولان «مرحباً» لبعضهما في ممر البناية، بل صديقتان بمعنى أعمق بكثير. كانتْ كيتي تُقِلُّ ابن صوفيا إلى مدرسته أحياناً. وصوفيا ترعى كلبَ الزوجين عندما يسافران إلى خارج البلدة. ساندت الواحدة منهما الأخرى كما يفترض بالجيران أن يفعلوا. تساعدتا كما يفترضُ بالجيران أن يفعلوا. وحين جاءت اللحظةُ الخطرة... حين ضربت التراجيديا حياة كيتي، جاءت صوفيا للمساعدة.

يقول جورج إليوت في روايته Middlemarch ملاحظاً: «إن الناس يُمجّدونَ كافةَ أنواع الشجاعة، إلا تلك الشجاعةُ التي قد يُضطرون إلى ممارستها لمساعدة أقرب جيرانهم». إننا لا نهتم كثيراً بنوع الأشخاص الذين يشبهون صوفيا فارار، إذْ لم تَذكُرْهَا مقالةُ صحيفة نيويورك تايمز التي قَدَّمَتْ وقائعَ القضيّة للملايين. ولَمْ تُجْر أي مقابلات، ولم تحصلْ على أيّ اهتمام، حتى إنها لم تُدافعْ عن نفسها ضدَّ الادعاء المشين بأنها واحدةٌ من أولئك الجيران الجُبناء والمستهترين.

ولكن حقيقةَ أنها لم تحصلْ على الاعتراف ببسالتها، وحقيقةَ أنها لم تستطعْ أنْ تُنقذَ كيتي، لا تنتقصان شيئاً من شجاعتها. المهمُ أن صوفيا حاولت فعلَ شيءٍ

ما، إذ هرعت نحو موقع الجريمة من دون اعتبارٍ لسلامتها الشخصية، واتصلتْ بالمساعدة، وواستْ الضحية. لقد اهتمَّتْ وعَطفَتْ. وهذا ما يفعله الأبطال.

إننا لن ننجح دوماً، ولكن لا بدَّ لنا من أن نحاول. لا يمكننا أنْ نتركَ قلوبَنا تقسو، أو أنْ نرفعَ صوت التلفاز كي لا نسمعَ الصراخ. لا ضرورة لأن ننتظر لحظةً كبرى ما، بل الأمرُ مرهونٌ بما نفعله في كل يوم... ما نفعله لأجل أنفسنا، وما نفعله لأجل الآخرين.

«إنني فخورٌ بأنني اتّخذت القرارَ الصحيحَ منذُ البداية...» كذلكَ يشرحُ فارلام شالاموف المصاعبَ التي واجهها في معتقل الجولاج، ويُكملُ: «...القرارَ بأني لن أقبلَ أبداً بأن أصبح مراقبَ عملٍ إذا ما كانتْ حُريَّتي ستؤدي إلى موتِ رجلٍ آخر، وإذا ما كانتْ حُريَّتي تضطرني لأن أخدم الرؤساء عبر قمع الناس الآخرين، الذين هم سجناء حالُهم كحالي. وتبيّنَ لي في هذا الامتحان العظيم أنَّ قوّتي الجسدية والروحية أمتنُ بكثيرٍ مما توقّعتُ. وإنني فخورٌ بأنني لم أقدمْ قطّ على بيعِ سجين: لم أرسل أحداً إلى موته أو إلى أيّ عقوبةٍ أخرى، ولم أتنصَّلْ من أحدٍ».

حريةُ العالم الحديث، حرية نجاحك... ليست حريةَ عدم الاهتمام. إنها ليست رخصةً تسمحُ لك بألا تكترث. أجل، إن لديك الكثيرَ مما تحتاجُ إلى التعامل معه. أجل، معظمُ الشرِّ في هذا العالم ليس ذنبك. ولكن على الرغم من ذلك، لا يحقُّ لك أنْ تَسدَّ أذنيك عن صرخات إنسانٍ بريءٍ يُقتلُ تحت شقّتك.

غامرت جارة آن فرانك بنفسها (وهي سيدةٌ يافعةُ اسمها ميب جيس، وهي في عمر صوفيا نفسه تقريباً) كي تحمي العائلة اليهودية المختبئة في العليّة، وتُقدِّمَ لها الاحتياجات الضرورية. وإننا نعلم كيف انتهتْ تلك القصة أيضاً: أحدُ الجيران خانهم. ولكنَّ علينا أن نُركِّزَ على الأشخاص الذين جاهدوا ببسالةٍ لمنع ذلك. كما شرحت ميب جيس: علينا أن نتحلَّى بالشجاعة كي نساعد، حتى لو كانت المعركةُ بلا أمل. وتقولُ متذكرةً بعد سنواتٍ مضت: أي محاولةٍ للـ (فعلِ) أفضلُ من الـ (لا فعل)، فالمحاولةُ ربما تخفق، ولكن الــ (لا فعل) سوف يخفقُ بكل تأكيد».

علينا أن نحاولَ. لأننا إنْ لم نحاول، فمن سيفعل؟

لا يمكننا أن نَلعنَ ظلام العالم الذي نعيشُ فيه وحسب. علينا أن نبحث عن النور. علينا أن نكون النورَ.

أنْ نكونَ النورَ لأقرب جيراننا. النورَ لبعضنا بعضاً.

الجرأة لا تعني التسرّع

رجلٌ واحدٌ شجاع يستطيع أن يشكّل أكثرية.

إن هذا ملهمٌ، ولكنه خطرٌ أيضاً.

ماذا لو كان هذا الرجل على خطأ؟ أو كان مجنوناً بالعظمة؟ ماذا لو كانت قضيته غير عادلة؟ هكذا يولدُ الطغاة وتُبنى الأنظمة المجرمة. هكذا تصبحُ المذاهب الدينية طوائف عجائبية تسعى نحو نهاية العالم.

رجلٌ واحدٌ قادرٌ على أن يقود نفسه -والأكثرية- من على حافة الجرف.

ولذلك فمن المهم أن نتذكر أن الشجاعة، بصفتها فضيلة، لا بدَّ وأنْ تتوازنَ مع الفضيلة الأخرى الجوهريةِ مثلها تماماً: الاعتدال. لقد استعمل أرسطو الشجاعةَ ليبرهنَ على أهمية مفهوم الاعتدال، فقال: إن الشجاعةَ هي النقطةُ الوسطى بين رذيلتين، أولاهما الجبنُ وهو المعروف بينهما، ولكن التهوّرَ خطيرٌ بشكلٍ مساوٍ.

من بين ما كُتِب عن هجوم اللواء الخفيف، قِيلَ إن اللورد لوكان الذي أعطى الأمر حمارٌ مفرطٌ في حذره، بينما اللورد كارديجان الذي قادَ الهجومَ الانتحاريَ من دون مساءلة كان حماراً متهوّراً[19]. الاثنان سيئان، ولكننا نميلُ إلى تقريعِ الأول أكثرَ من الثاني.

هذه غلطةٌ. فالخوفُ يمكنُهُ على الأقل أن يحمي شخصاً، بينما انعدامُ الخوف الكاملُ وصفةٌ للدّمار.

هذا ما سعى ماركوس أوريليوس لأن يكونه: «لا تكُنْ عجولاً ولا مُتردّداً، لا تكن مرتبكاً ولا تائهاً... لا تكن متملّقاً، ولكن لا تكن عدوانياً أو موسوساً بالشك أيضاً». إنَّ القائد الذي يتصرّف كمراهقٍ يبحث عن المشاكل سوف يجد نفسه في مشكلةٍ مع من هو أقوى منه، وسوف يخسر، ومن الممكن أن يخسر ما هو أكثر من كبريائه. وما هو أسوأ من ذلك حتى: من يعلمُ كم هو عددُ الناس الذين سيجرُّهم معه ليدفعوا ثمن عنجهيته؟

تُروى قصة عن جندي إسبرطيّ مشهورٍ بشجاعته الخارقة في الحرب ضد مدينة طيبة. ولكن بعد المعركة، غرَّمهُ حُكَّامُ المدينة لأنه قاتلَ من دون درعٍ، أي أنه عرَّض إحدى نقاط قوة إسبرطة للخطر: نفسه.

الشجاعة ليست تباهياً بمن هو الأقوى والأطول، وليست تبجّحاً فارغاً. إنها لا تعني التخلّي عن خوذة الدراجة النارية لأنك تظنُّ نفسك منيعاً. الشجاعةُ تتعلق بالمخاطر فعلاً، ولكن بالمخاطر الضرورية وحدها، والمخاطر المدروسة بعنايةٍ أيضاً.

ولذلك تجدُ أنَّ الشجعان يكونون غالباً قليلي الكلام. لا وقتَ عندهم للتبجُّح، ولا اهتمام لديهم به أيضاً. وعلاوةً على ذلك، فإنهم يعلمون أنَّ التبجّحَ يجعلهم هدفاً في أعين الناس، وما الفائدةُ من أن يراك الآخرونَ هدفاً؟ لا يعني ذلك أنهم مترددون أو يقلّلون من شأن أنفسهم. فكما يشيرُ أرسطو مجدداً: إن الصراحةَ هي النقطةُ الوسطى بين المبالغة في أمرٍ وبين التقليل من شأنه. عندما تعلمُ، فإنك ببساطة تعلم.

عندما تصادفُ شجاعةً حقيقيةً في هذا العالم، فسوف تشعرُ بشدَّتها قبلَ أنْ تراها، لن تتجسَّدَ أمامك في كاريكاتور شخصٍ باحثٍ عن المغامرة أو المخاطر، فالشجعانُ كما قُلنا لا يركضونَ من مكانٍ إلى آخر بلا تحضيرٍ أو تنظيم. ليسوا أغبياء، ولذلك فإنهم لا يسعون بشكلٍ فاعلٍ نحو الصراع. وحتى في تجرُّئهم، ستجدهم هادئين، إلا إذا صادفتهم في إحدى تلك اللحظات الحاسمة التي لا بدَّ لهم فيها من أنْ يستدعوا كاملَ شجاعتهم. وعلى الرغم من ذلك، فهم دقيقون وهادئون في أفعالهم، ومنهجيون ومتوازنون.

لو أنك رأيت الشجاعةَ متجسدةً على هذا النحو، فإنها ستبدو كاللوحة التي يرسمها ستيفان زفايج عن ماجلان، ذلك المستشكفُ الذي لا يستطيع أحدٌ أن يشكّكُ بشجاعته:

«من المهم هنا أنْ نُصرَّ مرةً أخرى على أنَّ الجرأة والإقدام لدى ماجلان دوماً ما يتخذان علاقةً معقدةً ودقيقة. إنَّ التصرفَ بجرأةٍ، في حالته، لا يعني التصرفَ في حماوة الاندفاع الغريزي، بل يعني وضعَ خُططٍ بارعةٍ، وفعلَ الشيءِ الخطرِ بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الحذر، وبعد المزيد من التفكّر. كانت مخططاته الأكثرَ مغامرةً تشبه الفولاذ الجيد: تُسبكُ في النار وتُغمرُ في الجليد».

إنَّ النموذجَ الذي نسعى إليه ليسَ المتسرّعَ سريعَ الغضب بل الهادئ وباردُ الأعصاب. هنالك سببٌ بأننا نمدحُ الناسَ قائلين إنهم «هادئون تحت الضغط». الحذرُ والعنايةُ ليسا ضدّين للشجاعة، بل يكمّلانها.

توثَّقْ من أنْ تجمَعَهَا معاً.

كثيراً ما نندم على تسرّعنا.

أما شجاعتنا؟

أبداً.

الوكالةُ تؤخذُ ولا تُعطى

مَرَّتْ أربعةُ أعوامٍ على الهجمة الإعلامية التي تعرَّض لها بيتر ثيل، أربعةُ أعوامٍ والناسُ يكرّرون على مسمعه مرةً بعد مرةٍ أنْ «لا شيء تستطيع فعله بخصوص ذلك»، ولكنْ، وفي أبريل 2011 غيَّرَ بيتر ثيل تفكيرهَ.

أو بالأحرى فَتَّحَ أحدهم تفكيرهَ.

في عشاءٍ في برلين مع رجلٍ يافعٍ لا نعرفُه إلا باسم «السيّد أ»، جلسَ ثيل يتحدَّثُ عن موقع جاوكر وعن الألَم الذي عايَشَهُ بسبب ما نُشِرَ عليه. وتذمَّر من قدرة الموقع على إحباط عزيمةِ كل من يُفكِّرُ في اللجوء إلى القضاء، ووقاحته في كشف شؤون الناسِ الخاصّة بلا عواقب، وعن خُبثِ الموقع ولؤمِ أساليبه. لم يكن السيّدُ أ شخصاً عديمَ الشجاعة، ولذلك واجَهَ الملياردير بخطئَه، واقترحَ على بيتر أنْ يستعملَ موارده، التي باتت عملاقةً، ليفعل شيئاً في هذا الخصوص. لكن بيتر أجاب بـالرفض، مُكرّراً كالببغاء ما قيل له مراتٍ كثيرةً: الأمرُ ببساطةٍ غير ممكن.

عند هذه اللحظة، قالَ لهُ الكلمات الصادمة التي نحتاجُ جميعاً إلى سماعها: «كيف سيبدو العالَمُ لو فَكَّرَ الجميعُ بهذه الطريقة؟».

على الرغم من أن الوكالة -سُلطة المرء في التحكّم في مسيرة حياته- حقٌّ يملكه كلُّ إنسانٍ عند ولادته، فإن قليلين منّا يصرُّون على ممارسة هذا الحقّ: إننا نقبلُ الحدودَ التي يضعُها الآخرونَ لنا، ونُصدِّق ما يقال لنا إنه ممكنٌ أو غير ممكن. ولكنَّ الحقيقةَ هي أننا، نحنُ، عبر تقييمنا للأمور، نجعلها حقيقةً فاعلةً... لأننا نصَدِّقها.

ما يفعله الخوفُ هو حرمانك من السلطةِ عبر جعلك تظنُّ أنك لا تملك أيَّ سلطة. وإذا كنت لا تُصدِّق أنَّ بإمكانك فعل شيءٍ ما، فمن غير المرجّح أنْ تستطيعَ فِعلَهُ، بل من المضمون أنك لن تُجرِّبَ فعله حتى. ولذلك نحتاج أن يُحطّمَ المزيدُ من الناس قيودَ هذه العقليّة.

واجهتْ فلورنس نايتينجيل لحظَتَها المفصليّة عندما استوعبتْ أنها لن تُعْطَى أبداً ما تَعلمُ أنها تحتاجه. اكتشفتْ، كما كتبتْ في مُفكّرتها، أنَّ عليها أنْ تأخذَ ما تحتاج إليه. عليها أن تُطالبَ بالحياة التي تريدها.

«هذه ليست لغةً فرنسيّة»، هكذا أجابَ نابوليون مرةً شخصاً أخبرهُ، بالفرنسيّة، أن المشكلةَ يستحيلُ حلُّها. ومِنْ ثم انطلق نابوليون وحقَّقَ فعلاً ذات الشيء الذي قالَ الآخرون إنه مستحيلٌ. حقَّقَه لأجل نفسه، ولأجل فرنسا.

كتب بيتر ثيل: «الأمرُ يبدأُ عبرَ رفض طاغوتِ الحظّ الظَّالم». كان يَعلمُ بذلك... والآن بات عليه أن يؤمنَ به فقط.

دعك من الاعتقادِ بجَبْريَّة القدر. أمسكْ زمامَ السيطرة على حياتك، كما فعلت نايتينجيل. ارفضْ وجهةَ النظر المتشائمة التي تقولُ إننا تحت رحمة قوىً خارجَ إرادتنا وسلطتنا. بلى، بإمكانك أن تفعل شيئاً، ولا بدَّ لك من أنْ تفعل شيئاً.

إذا كان لا أحد يؤمنُ بنظريّة الرجل العظيم في التاريخ، فكيف سَيُصْنعُ التاريخُ؟ من سيصنَعُه؟

بالتأكيد ليس أنت. وبالتأكيد لن يأتينا الأبطالُ الذين نحتاج إليهم.

في يدِ كلّ واحدٍ منا القدرةُ على التحرّر. لدى كلّ واحدٍ منا الوسائلُ التي تُمكِّنه من تأكيد سُلطته على حياته. الأمرُ يبدأ بخيارٍ نتّخذه، ولكنَّنا لا نضمن إنجازهُ إلّا بالفعل. لاحظَ دافينشي أنَّ عدداً قليلاً من الرجال ذوي الإنجازات قد حقّقوا ما حقّقوه لأنَّ أموراً حَدَثَت معهم. ويقول: لا، بل همُ الذين حَدَثوا.

فماذا سوفُ تكونُ أنت؟ هل سوف تكون الحجرَ الذي يستحيلُ تحريكُه أم القوةَ التي يستحيلُ إيقافها؟ القائدَ أم التابعَ؟ هل ستختارُ القبولَ السلبي أم المقاومةَ الإيجابية؟

عليك أنْ تؤمنَ بأنك قادرٌ على صُنع التغيير، وعليك أن تحاول التغيير فعلاً. لأنَّ هذه أيضاً حقيقةٌ فعَّالة. إنَّ الشخصَ غير العقلاني هو الشخصُ الذي يُغيُّر العالم. الإنسانُ الذي يؤمنُ بأنه قادرٌ على اختيار نهاية الحكاية هو الإنسان الذي يملكُ فرصةً -في أقل تقدير- لكتابة شيءٍ من التاريخ.

بعد ذلك اللقاءِ في برلين، قامَ بيتر ثيل بالإشراف على مؤامرةٍ صعقت العالَم، وقامَ بتمويلها بنفسه. دَمَّر موقع جاوكر عبرَ الحصول على حُكمٍ من المحكمة

بقيمةٍ 140 مليون دولار بسبب سلوك الموقع المشين في قضية أخرى منفصلةٍ تماماً، وهي قضية أدارها بيتر ثيل في الخفاء واستكملها ببطءٍ وثباتٍ[20].

لستَ مضطراً للموافقة على ردَّةِ فعْلِ ثيل. ومن المنطقيِّ جداً أن تُزعجك تلك الدعاوى القضائيّة السرية التي قدّمها والتي أفلستْ بسببها الشركة حتى كاد الأمرُ يَصِلُ إلى استحواذِ بيتر ثيل على مُلكية موقع جاوكر نفسه. بلْ في الواقع، عليكَ أنْ تُشكّكَ في هذا الأمر. لأن ممارسةَ الوكالة في الحياة لمجرد ممارستها شيءٌ قليلُ القيمة، وما يُهمُّ حقاً هي الأهدافُ التي نؤكِّدُ على سلطتنا من أجلها.

ولكن لا جدالَ في أنَّ ما استطاعَ بيتر ثيل تنفيذهَ شيءٌ لا يستطيعُ تدبُّرهَ إلا قلّة من الناس، والكلُّ كان خائفاً من تجربته. لقد فعلَ شيئاً اعتقدَ الجميعُ بأنه مستحيل. لقد وجدَ وكالته حيثُ لم يرَ الآخرون سوى الاستحالة. وبدلاً من أنْ يكونَ شخصاً تحدُث الأحداث معه، صنعَ الأحداث. فعلَ ما يريدهُ هوَ، وما شعرَ بأنه ضروري، لأنه يجعلُ العالَمَ، في نظره، مكاناً أكثرَ حُرّيةً وأماناً.

حين يكونُ العنفُ هو الحلّ

بعد وقتٍ قصيرٍ من شهادته أمامَ المحكمة ضدّ الضُبَّاط الفاسدين في شرطة نيويورك، أُعيدَ تعيينُ فرانك سيربيكو إلى منطقة شمال مانهاتن. وعندما وصلَ إلى العمل في يومه الأوّل، شَعَرَ فوراً بأن شيئاً ما ليس على ما يُرام، فعلى الرَّغمِ من أنَّ أحداً لا ينظرُ إليه، إلا أنّ جوَّ الغرفة كلّه مشدودٌ، والتوتّرَ يحومُ حولَه.

لقد كان مشهداً بدائياً، لا يختلفُ كثيراً عمّا كان يحدث في السافانا منذ فجر الزمان، أو عما يزال يحدث في باحات المدارس. سرعانَ ما تَقدَّم ضابطٌ نحو سيربيكو، ولا شكَّ في أنَّ رفاقَه اختاروه لهذه المهمة. وَقفَ إلى جانبه، وأخرج سكيناً من جيبه ووضعه على راحة يده المفتوحة أمامه قائلاً: «إننا نعرفُ كيف نتعاملُ مع أمثالك هنا، يجبُ أنْ أقطعَ لسانك هذا»... نطق هذه الكلمات بينما النصل يلمعُ في يَدهِ.

وما لم يفهَمْه هذا الضابطُ هو أنَّ سيربيكو، مثل فريدريك دوجلاس، مُتعَبٌ فقد رأى ما يكفيه. وبسرعةٍ خاطفةٍ، أمسكَ سيربيكو الرَّجلَ من معصَمِه ولَواهُ حتى وَقعَ على الأرض. ثم وضعَ سيربيكو رُكبته على ظهر الرجل ليثبّتهُ على الأرض، ومن ثم وجَّهَ مُسدَّسه إلى رأسه، وقال له: «حاولْ أن تتحرك أيها السافلُ وسأفجّرُ دماغك».

احتوى ذلك المسدّسُ على أربع عشرةَ رصاصة، أي: ما يكفي لقتل كلِّ شخصٍ في تلك الغرفة، وما يكفي كي يوضّح سيربيكو وجهةَ نظره: لنْ يتمكَّنوا من إخافته، ولن يستطيعوا لمسَهُ، ولنْ يتراجع.

هل لحظاتُ التوتّرِ العنيفِ هذه جيدةٌ أو مثيرةٌ للإعجاب؟ لا، بل من الأفضل لو أنها لم تلزم أساسًا. يجبُ ألا يضطرَّ إنسانٌ جيّدٌ إلى إشهارِ مُسدسه في وجه إنسانٍ سيّئ، ولا ينبغي أن يُضطرَّ إنسانٌ إلى الدفاع عن نفسه لأنه فعلَ شيئاً محقّاً وأخلاقياً.

إلا أنَّ العالمَ لا يكترث بما «يجب» فعله. هل كُنتَ تُفضِّلُ أنْ يصمتَ سيربيكو ويهبط إلى قعر الفساد بدلاً من أن يدافع عن نفسه؟ أيتركُ نفسَه يُقتَلُ قبلَ أنْ يستطيع كشفَ الفساد؟ حتى غاندي، وهو رجلٌ مُمعِنٌ في الهدوء والانضباط، كان يعلَمُ أنَّه لا بدَّ من تجاوز «الخطّ» أحياناً، إذ قال: «حيثُ لا يوجد خيارٌ إلا بين الجبن والعنف فإنني أنصحُ بالعنف».

أرادوا إجبارَ سيربيكو على الصمت. أرادوا أن يخيّروه بين حياته وبين قضيّته، لكنّه قَلَبَ الطاولةَ عليهم.

هذه مواقف لا ينبغي على المرء أن يسعى إليها، ولكن عليك أنْ تعلم أنك قد تجدُ نفسك في واحدٍ منها. وعندها سوف تفهم حقيقةَ تلك العبارة المشهورة بين مُدرِّبي الدفاع عن النفس: نادراً ما يكون العنفُ هو الحلّ، ولكن إذا حدث ذلك، فإنه يكونُ الحلّ الوحيد.

وصَّحَ جنرالٌ إسبرطيٌ المسألةَ ذاتها لمواطنٍ رعديدٍ. عندما شاهدَ فأراً أمسكَ به ولدٌ من ذيله، فأخذ الفأرُ يتأرجح وعضَّ الطَفلَ، فقال الجنرال للرجل: «إذا كانَ أصغرُ المخلوقات يُدافعُ عن نفسه هكذا ضدَّ من يعتدي عليه، فما الذي يجدرُ بالرّجال أنْ يفعلوه في رأيك؟».

يستطيعُ ذلك الفأرُ أن يشهدَ بأنَّ الفصائلَ التي لا تملكُ إرادة الدفاع عن النفس لا تبقى حيّةً لوقتٍ طويل. من دون الشجاعة، ومن دون أخلاقيات المحارب، لا أحدَ سيبقى على قيد الحياة طويلاً، بما في ذلك الدُّولَةُ أيضاً. في العالم الكثيرُ من اللاعنفيّين الشجعان، ولكن حتى هم يفهمون، على مستوىً ما، أنَّ مثاليتهم ليست ممكنةً إلّا لأنَّ الآخرين مستعدونَ لأن يكونوا برغماتيين بدلاً منهم.

لا بدَّ من الشجاعة الجسديّة أحياناً لحماية الشجاعة الأخلاقيّة. ستمرُّ لحظاتٌ تتعرّضُ فيها للخطر، أو يتعرَّض أحدُ أحبابك للخطر، ولن تفيدَك الكلماتُ اللطيفة وقتها، ولن يحميك التوازنُ. ما ستحتاجُ إليه هو الشّدّةُ والعنفُ وإظهارُ القوة. وفي تلك اللحظات لا يمكننا أنْ نتقهقر هاربين. لا نستطيع أن نتضاءل.

لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بالتعرُّض للتنمر. لا يمكننا أنْ نمتنعَ عن فعل أي شيء.

في تلك اللحظات علينا أن نَرُدَّ الضربة بالضربة، ويجب على ضربتنا أن تكون قويةً.

يجب أنْ نرفعَ قبضتنا. أنْ نتقدّمَ نحو المواجهة. وإلا فسوف ينتهي بنا المطاف على رُكبِنا.

أنْ تنهضَ وتَرحَل

إليك مختصرٌ سريعٌ لرحلة ماريا جيوفانا إلى أميركا، وهي والدة فرانك سيربيكو. خطّطتْ مع زوجها للسفر والهجرة من إيطاليا أملاً في فُرَصٍ أفضل. واتّفقا على أنْ تذهبَ هي أوّلاً، وكذلك فعلتْ، فسافرت عبر البحر، وهي حاملٌ في الشهر السابع، وكان عُمرها آنذاك سبعةً وعشرين عاماً فقط...

خلال العبور، دخلَتْ في مخاضها وولدت ابنَها قبل أوانه على السفينة. ووصلتْ إلى أرضٍ جديدةٍ في صقيع الشتاء، نازفةً من الولادة، ولا تستطيعُ التحدُّث بالإنجليزيّة. وقريبُها الذي كان يُفترض أنْ يلتقي بها لم يظهر له أثر. ولم يكن طبُّ الأطفال الرضّع موجوداً في ذلكَ الزمان، فخسرت ابنها الحبيب، وانتهى بها المطاف في مستشفى خيري... وحيدةً.

بعد أسبوعٍ من ذلك، أنقذَها بعضُ الأفراد من ذوي القرابة البعيدة بها ، وعاشتْ معهم في بروكلين مدةَ عامٍ حيث كسبتْ قُوتها من عملٍ صعبٍ يكسرُ الظَّهر في أحد المصانع، بصمتٍ، بصلابةٍ، بينما انتظرتْ وصول زوجها من إيطاليا.

حين وصلَ والدُ سيربيكو لمْ يجدْ عملاً سوى تلميع الأحذية. وسيمرُّ عقدٌ كاملٌ قبل أنْ يقدرَ على امتلاك دكانٍ يُصلِح فيه الأحذية، وهذا كان حُلمه منذ البداية. ولكن مع مرور الوقت قامَ بتربية ثلاثة أطفال، واحدٌ منهم هو الذي تحدَّى شرطةَ نيويورك وقام بإصلاحها وحدهَ تقريباً.

أن تتركَ وطنَك، أنْ تتركَ ما تعرفُه، أنْ تغامرَ بكل شيءٍ لأجل الأمل في حياةٍ أفضل؟ (وهو في العادة أملٌ بعيدٌ ورثٌّ وساذجٌ). أن تعبر محيطاتٍ وصحارى؟ وتجازف عبر طلقات النيران والحقد؟ وتتجاوز الجُدران وانعدام اليقين؟ لعلَّ ذلك هو الشيءُ الأكثر شجاعةً الذي يستطيعُه الإنسان.

إنه شيءٌ جميلٌ وملهمٌ.

كان يوزف غوبلز، وزيرُ الدعاية في ألمانيا النازية، يقولُ عن اللاجئين والمهاجرين في أوروبا إنهم «جثثٌ في إجازة»: مجردُ أجسادٍ تهرب. هم

مشكلةُ شخصٍ آخر، وسرعان ما سيموتون في مكانٍ آخر. إنهم لا يُرسِلون أفضل من لديهم[21].

الجرأةُ والمغامرةُ والعنادُ والصلابةُ الحديدية؟ قد لا يكونون الأكثر تعلّماً، ولا الأثرى، ولا شكَّ في أنَّ بعضهم يسافرُ تاركاً خلفه أخطاء وإخفاقات، ولكن على الرغم من ذلك، فإنَّ المهاجرين، بالتعريف، يُظهِرُون فضيلةً نحترمُها جميعاً. مُتعَبون؟ ضعيفون؟ هؤلاء محاربون لا يكلّون. إنهم أحفادُ الرُوَّاد والمُستكشفين. أين كنا سنجدُ أنفسنا اليوم من دون هذا النوع من الشجاعة؟

ومن ذا الذي لا يُريدُ ضمَّ هذا النوع من الشجاعة إلى اقتصاده وثقافته؟ من منّا لا يستطيعُ أنْ يتعلم منها في حياته الأسهل والأكثر أماناً؟

وطبعاً، الهجرةُ ليست الشكلَ الوحيد من المغادرة والرحيل. بل تكمنُ الشجاعة أحياناً في الاستقالة من عملٍ أصبح بلا مستقبل، وتأتي في أحيانٍ أخرى على هيئة إنهاء مشروعٍ قد أنفقنا حياتنا ومدخراتنا كلها فيه، أو مغادرة حزبٍ سياسيٍ، أو قرار الطّلاق بعد سنواتٍ طويلةٍ من تعاسة الزوجين.

لقد فَعَلنا أفضلَ ما في وسعنا. ناضلنا. حاربنا بشجاعةٍ وضراوةٍ. ولم ينجح الأمر.

يستعملُ بعضُ الناس سوءَ الأحوال الواقعية عُذْراً. ويستعملُ بعضهم بيئتهم المحيطة فيهم حجّةً لليأس. يعتقدُ بعضُ الناس أنَّ قلّة الفُرَص مشكلةٌ تحلُّ نفسها بنفسها. ويُوجدُ أناسٌ آخرون، مختلفون، ينهضون ويُقدِمُونَ على فعل شيء.

فأيُّ النوعين أنت؟

في أحد حواراته المشهورة، يسألُ سقراطُ الجنرالَ الأثيني لاخيس عن تعريف الشجاعة، والإجابة التي يحصل عليها إجابةٌ جيدةٌ: «الشجاعةُ نوعٌ من قدرة الروح على الاحتمال». إلا أن سقراط، طبعاً، لا يستطيعُ أن يُنهي الأمرَ عند هذا الحد، لأنَّ احتمالَ الشيءَ الخطأ، أي البقاء والاستمرار في جهدٍ أحمق أو مستحيل... هذا ليس من الحكمة في شيء.

إن المغادرةَ مرعبةٌ. قد تُشعرنا نهايةُ شيءٍ بإحساسٍ شبيهٍ بالموت. المكانُ الجديد أو الشيءُ الجديدُ يعنيان انعدامَ اليقين. فيهما شيءٌ من المخاطرة، وهي مؤلمةٌ، وتتطلّبُ قرارات صعبة. لا أحدَ قادرٌ على أنْ يَعدَكَ بأنَّ المكانَ التالي سيكون أفضل، أو أنَّ محاولتك التالية ستكون أكثرَ نجاحاً. ولكنَّ المؤكَّدَ إلى حدٍّ بعيد هو أنَّ الاستمرار في فعل الشيء ذاته بالطريقة ذاتها في المكان

ذاته، مرةً بعد مرةٍ، ليس جنوناً وحسب، بل هو في آخر المطاف نوعٌ من أنواع الجبن.

ليس من المهم إذا ما كان إنسانٌ ما من المكسيك أو سوريا أو سريلانكا، أو إذا ما كان يديرُ ظهره مبتعداً عن حطام تجارةٍ أخفقتْ، أو فكرةٍ كانتْ ناجحةً في وقتٍ ما ثم فقدتْ بريقها وشعبيتها. ليسَ من المهم أن يكون هذا الإنسان يتَّبع كلَّ حرفٍ من حروف القوانين، أو أنْ يكونَ ملاكاً مثالياً... إنَّ المهم حقاً هو أنه إنسانٌ يفعلُ شيئاً ما: يتحكَّمُ فيما يحدث له، ولا يتركُ ما يحصلُ معه يتحكّم في مساره. إنسانٌ يُقدِم على رهانٍ ضخمٍ. رهانٍ يتطلَّبُ صلابةً وبأساً.

ما دمنا نعلمُ كم هي صعبةٌ هذه القفزة عندما نقف أمامها، فمِنَ الجدير بنا أن نُعجَبَ بالآخرين الذين يُقدِمون عليها. وعلينا أنْ نستقي الإلهام منهم أيضاً: لا يوجدُ وضعٌ بلا أمل، وأياً كانت الظروف، فإننا لا نفقدُ السلطةَ على حياتنا. يمكننا دوماً أنْ نحزم حقائبنا ونغادر بشجاعةٍ.

قُم بِعملك

«إنّ إنجلترا تتوقّع من كلّ رجلٍ منكم أنْ يؤدّيَ واجبه على أكمل وجه»، هذه هي الرسالةُ التي أمرَ هوراشيو نيلسون حاملَ رايةَ جيشِه بإرسالها إلى الأسطول الإنجليزي قبل بدء معركة ترافالاجار في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً من ظهيرة يوم 21 أكتوبر عام 1805.

أرادهم أن يحاربوا على مقربةٍ من أعدائهم بحيث تلتقي عيونُهم. أنْ يقوموا بالواجب الذي تدرَّبوا على أدائه.

لدى الخوف مخزونٌ وفيرٌ من الأعذار التي تقولُ لنا إننا لا نستطيعُ أنْ نفعل أشياءً ما، أو كلَّها: إنها صعبةٌ، ومستحيلةٌ، وخطيرةٌ بحيث لا يتقبّلها العقل. وكفّةُ المخاطر تميلُ ضدّنا بحيث يكادُ الميزان يسقط. والأوامرُ التي نتلقّاها عديمةُ المنطق. وكانَ على القائد أن يُسلّمني القيادة.

الشجاعةُ تخترقُ كل هذه الضوضاء وتُبدِّدُها، وتُذكِّرُك بمتطلّبات الوضع الذي وَجَدتَ نفسك فيه: تُذكِّرُك بما تَعهَّدتَ به عندما دخلت الحياةَ العسكرية.

كلّنا علينا واجبات. للطبيب واجبٌ، ولضابط المحكمة كذلك، وللجندي واجبه هو الآخر، وثمة أيضاً واجبُ الأهل نحو أطفالهم، وواجبُ الشريك نحو شريكه. وإنَّ الواجب أيضاً واقعٌ على كل إنسانٍ لديه إمكانيّات، وكل مواطنٍ مسؤولٌ عن واجبه إذا كان لديه ضميرٌ. ليس الواجبُ ما تَعهَّدتَ بفعله عندما أدَّيتَ القَسَمَ الرسمي أمام رؤسائك، ولا هو الامتناع عما يحظره القانون، بل هو ما نحن مطالبون به بصفتنا بشراً خلوقين. إن واجبنا هو فعل الشيء الصحيح، والآن فوراً.

ولا يجوزُ أنْ نلتزمَ به نصف-نصف، بل علينا الالتزامُ به بكامل إخلاصنا ودأبنا، مؤمنين بأننا قادرون على إحداث فرق... بل لا بدَّ لنا من إحداث فرق.

سيكون ذلك صعباً، لأن القَسَمَ الذي تؤدّيه عند استلامك منصباً ما قد يَضعُكَ أمام حالةٍ مستحيلة. قد يحدث لك ما حدث مع هيلفيديوس: يأمرك الإمبراطور بأنْ تتنحَّى جانباً، بينما واجبك واحترامك لنفسِك يُحرِّمان عليك طاعَتَه. سوف تقعُ في تَضَارُبٍ متوترٍ بين المصالح، وسوف تواجهُ نقداً ومخاطر.

ولكن؟

وماذا بعد؟

أتدري ما الذي يحدث عندما نتجنَّبُ الأشياءَ الصعبة؟ عندما نُحدِّث أنفسَنا بأنها ليست مهمّة؟ أتعلمُ ما الذي يحدث عندما يُخفقُ أحدُهم في أداء واجبه في اللحظة المناسبة، أو يدفعُ بالقرارِ الصعبَ نحو من هو أعلى منه رتبةً؟ أو يؤجِّلُه على نيّة التخلّي عنه؟ ما سيحدث هو أنَّ أحداً ما سيُضطرُّ إلى فعله لاحقاً، وستكون كُلفته أكبرَ حتى. إنَّ تاريخ الاسترضاء والتسويف يُثبتُ لنا ذلك: لا بدَّ من دفع الفاتورة في آخر المطاف، ومع الفائدة المُترتّبة عليها أيضاً.

ومما يُربِكنا في شأن الواجب أننا نملكُ خيارَ عدم الالتزام به، طبعاً، ولكننا في الوقت نفسه نعلَمُ أنْ لا خيارَ آخر أمامنا فعلياً. أو بالأحرى: لا يوجد إلا خيار واحد.

اشتعلتْ معركةُ ترافالاجار مدةَ خمس ساعات ونصف الساعة، حيثُ اشتبكَ الأسطول البريطاني مع الأسطولَين الفرنسي والإسباني في صدامٍ رهيب. ومثّلتْ هذه المعركة ذروةَ مخطط نابوليون لاجتياح أوروبا، ودخلتْ التاريخَ بصفتها واحدةً من أشرس المعارك البحرية على الإطلاق.

كان بإمكانِ هوراشيو نيلسون أنْ يُراقبَ مسيرَ المعركة عن بُعد، وبما أنَّهُ قد فقدَ ذراعاً في معركةٍ سابقةٍ، فلعلّ هذا القرار حكيمٌ... ولكنَّ العواقب التي تترتَّبُ على نتيجة هذه المعركة أكبرُ من أنْ يسمحَ لنفسه بالقيادة عن بُعد. كما أنَّ على القائد أنْ يستبسلَ في مواجهة الأخطار ذاتها التي يَطلبُ من جنوده مواجهتها. ولذلك أخذَ يمشي في أرجاء سفينته وكأنه منيعٌ ضدّ الأخطار، مُصدِراً الأوامر والتعليمات، ومُشرفاً على التعديلات اللازمة. رمى كلّ ما بجعبته في وجه العدو، وأهرقَ كلّ قطرةٍ من روحه القتالية في تلك اللحظة.

ومن ثم... اخترقت رصاصةٌ عمودَ نيلسون الفِقري.

حَملَهُ رجاله إلى غرفة السفينة السفلية الأكثر أماناً حيثُ نَطقَ كلماته الأخيرة: «حمداً للّه أنني أدّيتُ واجبي».

يجب علينا جميعاً أنْ نفتخرَ إذا ما استطعنا التفكير بهذه الطريقة في لحظاتنا الأخيرة. يقول جون إف. كينيدي: «أيُّ بقعةٍ خطرةٍ قابلةٌ للدفاع عنها إذا ما جعلها رجالٌ شجعانٌ كذلك».

ويجعلُها كذلك أولئك الذين يؤدُّون واجبهم: رجالٌ يلبّون النداء، مثل سيربيكو الذي واجه الضبّاطَ في قِسمه الفاسد، ونايتينجيل التي تَحدَّت البيروقراطية واللا اكتراث المُهيمنَين على عصرها. وروزفيلت الذي واجهَ عاصفةَ الرأي العام كي يدعو بوكر واشنطن إلى العشاء.

وتشرشل أيضاً، الذي لم يسمح لشعلة بريطانيا بأن تنطفئ، وجمعَ الحلفاءَ حولها رافضاً الاستسلام، وكلُّ ذلك في سبيل إنقاذ بريطانيا. مثلُه في ذلك كمثل نيلسون: لقد آمنَ بوجود «شيءٍ ما في الزمان والمكان، بل أبعد منهما حتى، وهذا الشيء -سواء أعجبنا الأمر أم لم يعجبنا- هو الواجبُ».

الواجب ناداه، فلبّى النداء، كما فعل الكثيرون غيره. فهل ستلبّي نداءك أنت؟

يُمكِنُكَ أن تهزم الفُرَصَ الضئيلة

لقد كان حلَّاً من صنعه، ولكنَّ ذلك لا يجعله حلاً أقل إشكالية.

غزا الكوريون الشماليون جنوبَها، وسرعان ما سحقوا قوات جمهورية كوريا الجنوبية. ووقع الجنرالُ دوجلاس ماكآرثر، وهو قائدُ عمليات الحرب في تلك المنطقة، في مأزقٍ لم يكن مستعدّاً له في اليابان، فاستفادَ من دعم الأمم المتحدة وملأ كورياَ الجنوبية بالجنود، ولكن ذلك بالكاد كان يكفي للصمود.

سقطتْ العاصمةُ سيول، وبدأَ الخناقُ يَضيقُ. أما الجنود الأمريكيون العالقون في ما يُسمّى «طوق بوسان»، فوصلَتهُم الأوامرُ بـ«الصمود أو الموت».

بات الأمل بالنصر خافتاً، خافتاً في عيون الجميع إلا الجنرال ماكآرثر.

فقد خطرت له فكرةٌ: تحريك اجتياحٍ برمائيٍ نحو ميناء إينشون الذي يقعُ على بُعد مئةً وخمسين ميلاً من شاطئ كوريا الجنوبية، بحيثُ تنزلُ القوّاتُ من وراء الغزاة. وارتأى بأنَّ مفاجأة العدوّ على حين غِرَّة قادرة على قلب مسار الحرب.

لكنه واجه مشكلةً أخرى هي المدّ والجزر: إذا حاولتَ تصميمَ ميناءٍ بهدف جعلِه منيعاً ضد الاجتياح، فمن الصعب جداً أنْ تُفلِحَ في تصميمِ ميناء أكثر مناعةً وتدبيراً من ميناء إينشون، فالميناءُ يحتوي على كل عقبةٍ جغرافيةٍ قد تخطرُ في خيالك: مسطحاتٌ طينيةٌ، وشواطئ صخريةٌ، وتحيط بهما جدران بحريةٌ وأرصفةٌ إسمنتيةٌ. ولو حَدث الإنزالُ في حالة الجَزْر مُنخفض المياه، فإن هذا الميناء عبارةٌ عن ميدان إعدام رهيب، وأمَّا في حالة المدِّ وارتفاع مستوى المياه، فإنه يعجُّ بالتيارات السَّاحِبَة الغدّارة، وهي أشبهُ ما تكون بالقبور المائية. وعلاوةً على ذلك، لا يُمكنُ الوصول إليه إلا في يومين محددين فقط من كل شهر، وحتى في هذين اليومين، فإنَّ نافذة العبور لا تتجاوز بضع ساعاتٍ... هذا طبعاً إنْ لمْ تكن المسافةُ مزروعةً بالألغام.

عبَّرَ كلُّ الحاضرين عنْ تحفظاتهم.

باستثناء ماكآرثر الذي مشى بخطواتٍ واثقةٍ نحو اللوح الأسود وكتب بالفرنسية «De Qui Objet?» أي ما هو الهدف؟. إنَّ الهدفَ مفاجأةُ العدو، ووضعُه تحتَ الضغط. رَسَمَ الجنرالُ دائرةً حول الميناء، وقال: «علينا الإنزالُ هنا، في إينشون، علينا أن نُوجِّه ضربتنا إلى العُنقِ فوراً». من ثم قالَ لهم إنهم يجب ألا «يستشيروا مخاوفهم»، فالقضية قضية شجاعةٍ وقوّة إرادة.

أخذ رؤساؤه يُراجعُون تفاصيلَ العملية ويُدقِّقون فيها، ولمْ تلقَ إعجابهم. قال نائبُ أدميرال البحرية لماكآرثر: «هذه العمليةُ ليست مستحيلةً، ولكنني لا أوصي بها».

من المتوقَّع أن تُحبطَ جملةٌ كهذه عزيمةَ ماكآرثر، ولكنها بدلاً من ذلك أثارتْ حماسته: فَهُم في الواقع يخبرونه بأن هنالك فرصةً للنجاح، إذْ هذا ما يعنيه قولُهم إنَّ العملية «ليست مستحيلةً». وسواءٌ أكانت فرصةً قدرها 1% أم فرصةً قدرها 0.0001%، فإن الشجاعةَ لا تحتاج إلا إلى أن تسمعَ بوجود الإمكانية.

أهي صعبةٌ؟ غيرُ مرجّحةٍ؟ لا يهمّ ذلك.

وكما تبيّن، فإنَّ الاحتمالات الضئيلة جداً هي تلك كانت سببَ منح ماكآرثر أملاً بالنجاح، حيث قال: «إنَّ الكوريين الشماليين يعتبرون محاولةَ الإنزال العسكري في ميناء إينشون مستحيلة، ولذلك فإنني أستطيع أن أفاجئهم على حين غِرّة».

إن العقبات الشاهقة، ولكن غير المستحيلة مئة بالمئة، هي الفرصةُ المثاليةُ التي تسمحُ للشجاع بتحقيق الانتصارات المذهلة.

ما كانتْ أيُّ لجنةٍ قادمةٍ من أمان واشنطن لتوضيح «وقائع الأمور» ستقدِرُ على تغيير رأي ماكآرثر. لقد تَذكّر كلمات والده: «اسمع يا دوج، مجالسُ الحرب تُولِّدُ التردُّدَ والانهزامية». أما تقديرُ ماكآرثر الخاص لاحتمال نجاحه فقد كان واحداً من خمسة آلاف.

وكان ذلك يكفيه. يقولُ: «أكادُ أسمع دقات الثواني في ساعةِ القدر، علينا أن نتصرَّفَ الآن وإلا سنموت... اجتياح إينشون سوف ينجحُ، وسوف يُنقذُ مئة ألفٍ من الأرواح».

في 15 سبتمبر من عام 1950، أطلقت المدافعُ قذائفَ الاجتياح الأولى. وخلال نافذةٍ زمنيةٍ لا تتجاوزُ بضع دقائق، تمكّنَ ما يقارب ثلاثة عشر ألف جنديّ من جنود المارينز من الهبوط في إنزالٍ ناجح. وحينَ وصل ماكآرثر إلى الشاطئ، فإنَّ أولَ ما فعله كانَ أنْ تقيَّأ على الرّمال. ولكنّه فَعلَها: هزمَ ماكآرثر الاحتمالات. الأقدارُ ابتسمت في وجه الشجعان[22].

أين سنجدُ أنفسَنا لولا أُناسٌ شجعان بما يكفي لتحدّي الفرص الضئيلة؟ لو أنَّ كل رائدِ أعمالٍ، وناشطٍ سياسيّ، وجنرال، ينصاعون جميعاً للتوقّعات المُقدَّمة إليهم، فأيُّ عالَمٍ ذاك الذي سنعيشُ فيه؟ لو أنَّ كلَّ مُختصٍ في الأورام السرطانية واجهَ وقائع تشخيصاته، لما استطاعَ إنقاذَ حياةَ أي مريض. لو اعتقدَ كلُّ فريقٍ رياضيّ في الربع الأخير من المباراة أنه هُزِم وحسم الأمر، فما كنا سنشاهدُ تلك الانقلابات الجذريّة في مسارِ الألعاب والبطولات. لو أنَّ كلَّ طيّارٍ حربيّ بريطاني نَظَرَ إلى الأرقام التي تُمثّلُ احتمال نجاته في عام 1940 (حيث احتمالُ الرجوع من كل طلعةٍ جوّيةٍ واحدٌ من عشرة)، فهلْ كانت بريطانيا ستقدِرُ على الصمود؟

لو أننا لم نفعلْ إلا ما كنا واثقين منه، لو أننا لم نُقدِمْ إلا على المجازفات المرجَّح نجاحُها، لما كُتِبَ التاريخُ قط. لطالما كانت المتوسّطاتُ الحسابيّةُ ضدَّ كل شيءٍ حدث في التاريخ، ولذلك نسمّيها المتوسّط الحسابي (the mean)[23].

علينا تَذَكُّر أنَّ استطلاعات الرأي تلك، والتقديرات تلك، والنماذج الإحصائية تلك... كلُّها أشياء جامدة. وما لا تستطيعُ أنْ تتوقَّعَه، ما لا تستطيعُ أن تحسبَ حسابَه، هو الفردُ الذي يمارسُ السُلطةَ على حياته: ذلك الإنسانُ الذي يجعلُ الأمور تحصلُ بدلاً من الاستلقاء برخاوةٍ وترك الأمورِ تحصلُ له.

إنك تحتاجُ إلى الشجاعةَ كي تنظرَ إلى المتوسّطات الحسابية وتقول: «أنا لست متوسّطاً». أنْ تقول: «سوف يكون أحدٌ ما استثناءً في هذه الظروف، ولماذا لا أكونُ أنا هذا الشخص؟».

هذه هي الشجاعةُ. بل في الواقع لا شجاعةَ من دون الاحتمالات الرَّديئة، لأنه من دون المخاطرةِ بالإخفاق: في العمل، في اللعبة، في الصفقة، في حياتك. لو كانَ الأمرُ مؤكّداً.... فأين الشجاعة في فِعْلِهِ أصلاً؟

عليك أنْ تُدركَ أنك لست متوسّطاً. بل لمْ تكن في يومٍ كذلك. إنك واحدٌ من واحدٍ: إذْ لم يوجد في التاريخ من يماثلك في جيناتك أو في تجاربك، وقدْ

امتلكتَ طوال حياتك كلّ ما يلزمُ لتحدّي الفرص.

وإذا لم تستطع الإيمانَ بذلك، فلعلَّ من الواجب علينا تذكيركَ بأنَّ وجودَك بحدّ ذاته قد يكون أقلَّ الأشياء احتمالاً! إن احتمالَ وِلادَتك، كما يُقدِّر العلماءُ، هو حوالى واحد من أربعمئة تريليون... ولكن الحقيقةَ هي أنَّ حتى هذا الاحتمال الضئيل مبالغٌ فيه، إذْ لا بدَّ لكَ من أنْ تأخذَ في الاعتبار كلّ الأشياء التي لزِمَ أن تَحدُثَ حتى يلتقي والداك، وكلَّ الأشياءِ التي أبقتك على قيد الحياة، أو تلك الحوادثَ التي أوصلتك إلى هنا في هذه اللحظة، حين تجلسُ مُفكّراً في الأشياء التي تريدُ أن تنجزها. أنتَ أكثرُ من معجزةٍ، أنت معجزةٌ ضمن طيفٍ من المعجزات النادرة. ومع ذلك، ها أنت هنا.

هل ستتركُ ندرةَ النجاح الذي لا يتعرَّضُ للعقبات تثنيك عن عزمك. هل ستتركُ ذلك المتوسّط الحسابي، ذلك اللئيمَ، يُملي عليك ما تستطيعُه وما تعجزُ عنه؟ هل ستدعُهُم يرهقون عزيمَتَك حتى يقنعوك بقبول الخيار بين اللّعبِ السهلِ الآمنِ وبين عدمِ فعلِ أيّ شيء؟ ليستْ هذه بوصفةٍ للحياة، أو للعظَمة، أو للخير.

وبالطبع لا يمكنك تجاهلُ الأخطار لمجرد أنها لا تلائم أهدافَك، وخصوصاً عندما يعتمدُ عليك أناسٌ آخرون. كما قُلنا سابقاً، إن رائدَ الأعمالِ الذي يستمرُّ دوماً بخوض «رهاناتٍ بحجم الشركة كلها» سوف يُفلِس. ولربما يستطيع هو، أو هي، أنْ يُكملَ طريقَهُ ويقامرَ مجدداً، ولكنَّ الموظفينَ سوف يتلقّون الضربةَ القاسيةً.

على الرغم من كلِّ ذلك لا مفرَّ أمامنا: سوف نُضطرُّ أحياناً إلى الاستعانة بالشجاعة في مواجهة الفرص والاحتمالات الضعيفة، وذلك فقط عند وجود فرصةٍ حقيقيةٍ للنجاح. كما أننا نادراً ما نفعل ذلك... عندما لا نملك خياراً آخر.

اجعلهم يفتخرون بك

آخر كلمةٍ لفظها ماركوس بوركيوس كاتو عندما واجه الموت بشجاعةٍ في ساحة المعركة كانت اسم والده.

والكلمات الأخيرة لبوركيا[24]، وهي ابنة كاتو التي ماتت نتيجة دورها في التآمر على قيصر كانت: «إنني ابنة كاتو».

لقد وضع والدُهما مثالاً يقتديان به، فما كانا ليخذلاه، فقاتلا حتى النهاية.

على الرغم من أن قلّةً منا وحسب ترجِعُ في نسبها إلى سلالاتٍ مشهورةٍ مثل أبناء كاتو الأصغر، ذلك الرجل المنيع ضد الإفساد، وذو العزيمة الفولاذية، إلا أننا، على الرغم من ذلك، جميعاً أحفادُ تقليدٍ عريقٍ ومجيدٍ. فنحن أيضاً ورثة كاتو وكلّ الأبطال الذين عاشوا من قبل، ولو بشكلٍ غير مباشر، لأننا ما كنا سنصل إلى هنا لولاهم.

كيف لنا إذاً أن نبرّر خذلاننا إياهم؟

كما كتب الشاعر لونجفيلو:

حياة العظماء تُذكِّرنا

بأننا قادرونَ على السموّ

وبأننا، إذْ نغادرُ، نتركُ خلفنا

آثار أقدامنا في رمال الزمن.

هنا والآن، في خضمّ هذا الزمان الصعب -على المستوى الشخصي والمهني والسياسي- نستطيعُ أن نستلهم القوّة التي نحتاج إليها من أمثلة الماضي. يمكننا أنْ نعتنقَ الأعمالَ العظيمة والكلمات المُلهمة كي نُمتِّنَ عزيمتنا ونَقوّي انضباطنا.

عندما انجرفت شركةُ آبل بعيداً عن جذورها الخلاقّة والثورية، استعملَ ستيف جوبز التكتيك نفسه لإعادة الشركة إلى المسار الصحيح، فقال: «إحدى طرق تذكُّرِ من أنت، هي أن تتذكّر من هُم أبطالُك».

لعلّ السيد المسيح هو قدوتك، فقد رفضَ الهروبَ، متوجّهاً بشجاعةٍ نحو الصليب. أو لعلّه أودي مورفي (وهو الجندي الأكثر تكريماً في تاريخ الولايات المتحدة) الذي تسلّقَ مدمّرةَ دباباتٍ تحترق واستعمل رشاشها الآلي من عيار 500 لأكثرَ من ساعةٍ، فمنعَ العدوّ من التقدُّم على الرغم من إصابته، رافضاً أن يتخلّى عن سنتيمترٍ واحدٍ من الأرض، وتمكّنَ من السيطرة على ساحة المعركة حتى وصلت التدعيمات. أو قدْ يكون محمد علي كلاي هو قدوتك، ذلك الإنسانُ الذي خاطر بكل شيءٍ ليحتجّ على الحرب في فيتنام. أو لعلّها فلورنس نايتينجيل التي قاومت قيودَ أهلها، وحطّمت أغلال عصرها، كي تُبشِّرَ بعالمٍ جديدٍ.

لم يرغب هاري برنز في تدمير مسيرته السياسية، لأنه كان يُعيل أمَّه الأرملة التي تعتمد عليه. ولكنّ والدته في آخر المطاف لم تكن عائقاً في طريقه، بل كانت إلهاماً يُرشُده. لقد فعلَ الشيءَ الصحيح لأجلها، على الرغم من أنَّ بعض المخاطر كانت تحيْقُ بها أيضاً. والأمر ذاته صحيحٌ في عائلاتنا نحن. إننا ننهضُ ونتحمَّلُ المسؤولية لأننا نريدُ أنْ نُشعرهم بالفخر. لأننا غير مستعدّين لأن نخونهم أو نخذلهم.

معظمُ أسلافنا الشجعان قد رحلوا الآن، ولكن أفعالهم تتردد دائماً كأمثلةٍ تُحتذى؟ ألا تطوفُ ذكراهم حولنا، بحيثُ نمدُّ أيدينا إليها عند الحاجة؟

علينا أنْ نتطلَّع إليهم في لحظاتنا الأكثر ظُلمةً. أنْ نتطلّعَ إلى هذه الشجاعة المسبوكة مسبقاً والتي نستطيعُ أن نستمدَّ منها شجاعتنا كلّما شعرنا بأن شجاعتنا تخبو. فكر بأولئك الذين عاشوا حيواتٍ شجاعةً قبلك، وفكّر في صلتك بهم. كتبَ والدُ سينيكا آملاً في إلهام أبنائه وأحفاده: «لقد كانَ جدُّكم الأكبرُ رجلاً شجاعاً، فاحرصوا على أن تكونوا أشجعَ منه».

تخيّلْ أنْ أسلافكَ (من حيث رابطةِ الدم، ورابطة الشجاعةِ، كلتيهما) يقفونَ أمامكَ، ويشاهدونَكَ، ويحمونَك. تذكّرْ دوماً أنْ تسألَ نفسكَ ما الذي كانوا سيفعلونه هنا والآن. لا يجوزُ لك أن تخذلهم.

ولذلك كُنْ أكثر شجاعةً. الآن، وهنا، في هذه اللحظة الحاسمة.

عندما نتفوّق على أنفسنا...

الإنسانُ تدفعه الغرائز. ولكن تشده القيم.

- فيكتور فرانكل

لقد انتبهنا من قبل إلى أنّ ثمةَ شيئاً غير عقلانيّ في الشجاعة، ولكنّ أمامنا الآن شيءٌ يفوقها صعوبةً في التفسير: الغَيْريّةُ. نكرانُ الذات. وبالفعل، لقد عانى علماءُ السيكولوجيا التطورية والبيولوجيون وكُتّاب الدراما، كلّهم على حدٍّ سواء، في محاولة فهم هذه القضية لسنواتٍ طويلة.

لاحظ المؤرخ ثيودور رييد فيرينباخ أنَّ «الحماقةَ الإنسانيةَ أسهلُ تفسيراً من البسالة الإنسانيّة».

وذلك لأنَّ الشجاعة ذات فوائد واضحة: إنَّ الإنسانَ يخاطرُ أملاً في مكسبٍ... مكسبٍ يخشى الآخرون المُخاطرة للوصول إليه. ولكنْ ما حكايةُ التضحية بالنفس؟ أو التضحية بالكثير من أجلِ شيءٍ ما؟ لقد تحدَّثنا عن الشجاعة، ولكننا الآن أمام البطولة، وهي الصيغةُ الأرقى من الشجاعة، وهي النوعُ الذي يتجسَّدُ في الأشخاص المستعدين لتقديم شيءٍ -بل كلّ شيء أحياناً- من أجل شخصٍ آخر.

وقف قائدٌ رعديدٌ جبانٌ ذات مرةٍ في مقبرةٍ عسكريةٍ، ونظر إلى قبور الذين رحلوا في حروب دولته على مدى القرون، وقال: «لستُ أفهمْ، ماذا أفادهم ذلك؟». عندما يسألُ معظمُ الناس هذا السؤال، فإنه ينبعُ من بعض التواضع والاحترام، ينبعُ من رغبةٍ في فهم تلك الظاهرة المذهلة. ولكنَّ عندما يصدرُ هذا السؤالُ عن الوُصوليّ والجبانِ والأنانيّ، فإن حيرَته تكون صادقةً: لماذا يُقدِّم أيُّ أحدٍ حياته كُرمى لشخصٍ آخر؟ أي نوعٍ من الصفقات هذا؟

إن منطق الحفاظ على الذات قويٌ، وخصوصاً عند ذوي الميول البرغماتية، ويتطلب الأمر شخصاً أقوى لتجاوز هذا المنطق. لأن في الأمر تناقضاً غريباً: أولئك الذين لا يملكون إحساساً قوياً بالذات من غير المرجّح أن يكونوا شجعان، إلا أنّ الصيغة الأرقى من الشجاعة تتضمّن نوعاً من الغيرية المُنكِرة للذات التي تكون، في بعض الحالات، انتحارية. كيف يكونُ ذلك؟ لعلّ الأمرَ غيرُ

قابلٍ للتفسير بالكلمات. لعلّهُ أبعدُ من حدودِ فهمنا إذا ما كنّا بعيدين عن اللحظة التي تحدث خلالها التضحية، تماماً كما هي حال تلكَ الأفعال الجسدية الخارقة التي تقومُ بها الأمهاتُ عندما يرفعنَ سيارات مُحطّمةٍ لانتشال الأطفال من تحتها.

وعلى الرغم من ذلك، فإننا نعلم أنَّ هذا جوهريٌ لنجاة جنسنا، ناهيك عن نجاة الأخيار منّا. ثمةَ سببٌ في أنَّ أعظم نتاجنا الفنيّ يحتفي بالبطولة، وأنَّ أسماء الأبطال تبقى محفورةً في الذاكرة بعد قرونٍ طويلةٍ من أفعالهم.

إن الشجاعة نادرةٌ بما يكفي، ولكنّ البطولة هي تلك الصيغةُ الأندرُ من الشجاعة، وهي صيغةٌ بالغةُ الجبروت بحيث يَصعُبُ علينا أن نُحدِّق إلى عينيها مباشرةً. إنك تَسمعُ عنها من الجنود في خطابات استلامهم لأوسمة الشرف، أو في مقابلةٍ مع بطلٍ قفز مباشرةً وبشكلٍ عفويٍ أمام قطارٍ لينقذَ أحدهم: «لقد فعلتُ ببساطة ما كان أيُّ شخصٍ آخر ليفعله». ولكن لو كان ذلك صحيحاً، لما أثَرنا كل هذه الضجة والنقاش حولَ المسألة.

البطولةُ الحقيقيةُ تُشعِرنا بالعار، تُشعِرُنا بالتواضع. تُحرِّكُنا نحوَ ما هو أبعدُ من المنطق، لأنها تأتي من شيءٍ أبعدَ من المنطق. وذلك هو السببُ الذي نُبجِّلُها لأجله.

من الواضحِ والجليّ أن معدّل نجاةِ أولئك الذين يلامسون تلك العظَمة منخفضٌ للغاية. لكن جمال البطولة، مجدداً، يكمُنُ هنا بالذات، في بعض الحالات يموت هؤلاء الأبطال كي نتمكّن نحن من العيش. وإننا نخذلُهم ونخذلُ أنفسَنا إن لم نسعَ لإدراك معنى هذه التضحية.

الجزء الثالث
العمل البطوليّ

في ساحة معركة العالم الواسعة،

وفي الحياة المؤقتة،

لا تكُنْ كالقطيع الغبيّ الذي يُساق!

كُن البطلَ الذي يناضل!

- هنري لونجفيلو

إذا كانت الشجاعةُ، الأخلاقيةُ منها والجسدية، هي وضعُ نفسك في موضع الخطر، فإن تعريف البطولة بسيطٌ جداً: أن تخاطرَ بنفسك من أجل شخصٍ آخر. أنْ تضعَ حياتك في خطرٍ، ليس من أجل مصلحتك الخاصة وحسب، بلً من أجل مصلحة شخصٍ ما، أو شيءٍ ما، أو قضيةٍ ما أكبر منك. أليستْ هذه واحدةً من أروع تعبيرات الجنس البشري؟ حين

نمرُّ بحالات الخطر المحدقِ الحقيقي، حيث يختفي الأملُ: لا أحدَ يصرخُ طالباً مقابلةَ المدير. لا أحد يصرخُ طالباً عالمَ المنطقِ والرياضيات ليُقدِّم تحليلاً عقلانياً ومحسوماً. بل إنَّ الناس يصرخون طلباً للفعل: مُطالبِينَ ببَطلٍ، مُطالبينَ بشخص يُنقذهم، يتقدَّم ويفعلُ ما نعجزُ عن فعله بأنفسِنا. وعند تلبيته

لهذا النداء، فإن البطلَ يَدخلُ مستوى أعلى من الوجود (مهما قَصُرَت مدة إقامته فيها)... إنه يَلمسُ وجوهَ الآلهة. كان الرواقيُّون يسمّون هذه الحالة Megalopsychia أي: عَظَمةُ الروح. ولعلَّه يجدرُ بنا أن نسمّيها الشجاعة العليا.
سُئِلَ ديغول ذات مرةٍ عندما كان يتحدَّث: (ما هي «عظَمةُ» فرنسا التي يذكرها دائماً؟)، فأجابهم: «إنها الطريقُ الذي يسلُكُه المرء كي يتفوَّقَ على نفسه».
هذه... هذه هي الشجاعة التي يجُب أن نُعليَ شأنها فوق الأخريات، لأنها شديدةُ الندرةِ، وأكثرُ روعةً وعمقاً بكثير، وهي شيءٌ لا نلمَحُهُ إلا بشكلٍ عابرٍ.
وللوصول إليها لا بدَّ لنا من الانتصار على الخوف، لا بدَّ لنا من تنمية الشجاعة في الحياة اليومية، ولا بدَّ لنا من أن نكون جاهزين لاقتناص الفرص التي تُقدِّمُها لنا الحياةُ، صغيرةً كانت أم كبيرةً. إن حاجتنا إلى الأبطال ماسّة. فهل سوف تكون أحدهم؟

ما هو أبعدُ من النداء...

لم يكن اليونانيونُ القدماء مثاليين، وعلى وجه الخصوص الإسبرطيّون منهم.

غيرَ أنهم لم يكونوا لاعقي أحذية، وكانوا خيراً من الملك الطاغوت الشرهِ الذي زَحفَ باتجاههم عام 480 قبل الميلاد.

حَكَمَ إحشويروش الإمبراطوريةَ الفارسيةَ الشاسعةَ، وسعى إلى الإخضاع والانتقام، فاليونانيون أهانوه: طَردُوا رُسُله باحتقارٍ، وأحبَطُوا اجتياحَ والده في العقد السابق. وها هو الآن يزحف مع جيشٍ عملاقٍ نحو اليونان.

ارتأتْ بعضُ المدن-الدول اليونانية أنَّ الأمر لا مناص منه، فاستسلمتْ، وحصلتْ أخرى غيرها على رشواتٍ كبيرةٍ لتغيِّرَ ولاءها. وباتتْ كونفدرالية الدولُ اليونانية المتأزِّمةُ أصلاً (من إسبرطة إلى أثينا إلى طيبة إلى أرجوس وكورينثيا) على حافة الانهيار، ومستقبل الحضارة الغربية بأسرها يعتمدُ عليها، وإن لم يكن اليونانيون يدركون ذلك في تلك اللحظة. هل سيستطيعُ إحشويروش اجتياح الغرب؟ هل سيقدرُ ملكٌ كليّ القدرة، ويُعبدُ كإلهٍ، من سحقِ جمرات الحرية والمساواة، مُخمِداً أسلوبَ الحياة الذي مازلنا محظوظين كفايةً بحيث نعيشُ في كنفه اليوم؟

لقد عانى الحلفاءُ في سبيل توحيد رايتهم، وعانوا في التحضير للحرب، ومن ثم اتّخذوا القرار: سوفُ ينطلقُ جيشٌ صغيرٌ يقوده ثلاثمئة محارب إسبرطيّ وقائدُهم ليونيداس، نحو ثيرموبيلاي (التي يعني اسمها «البوابات الحارّة») بهدف صدِّ الهجوم الفارسي أكبرَ وقتٍ ممكن، وإذا استطاعوا أنْ يصمدوا بقوة، فإنَّ ذلك قدْ يُلهِمُ اليونان نحو التأهُّب إلى الحرب.

قال ليونيداس لجنوده: «يقولونَ إنَّ البرابرة قد اقتربوا وإنهم قادمون بينما نُضيّعُ نحن الوقت، والحقيقةُ هي أننا قريباً إما سنقتل البرابرة وإما سنُقتَل نحن». وعلى أثر كلامه ارتحلَ مع ثلاثمئةٍ من أقوى جنود النخبة الإسبرطية (وكل واحدٍ منهم، بلا استثناء، أبٌ لابن لا يزال حياً) وعَبرَوا ما يقارب 250 ميلاً ليواجهوا المعركة الأقل توازناً، ربما، في تاريخ الحروب كلها. استطاعوا ضمَّ بعض الدعم من الدول المجاورة، ولكنْ يُعتقَدُ أنَّ عدَدَهم كان بين خمسة آلاف

وسبعة آلاف مقاتل يوناني واجهوا جيشاَ فارسياَ ادَّعى بعض المؤرخين القدماء أن تعداده مليون مقاتل.

وماذا كانت الأفضليةُ الوحيدة التي يملكونها؟ إنها ثيرموبيلاي: ذلك الممرُّ الضيّقُ الساحليُّ قربَ بحر إيجة، وهو قابلٌ لأن يُبطِلَ مفعولَ تفوّقِ الفارسيين العددي العملاق. كما أن الإسبرطيين، على عكس غزاتهم، يحاربونَ لأجل شيءٍ ثمين: كانوا مستعدين للقتال والموت كي يبقى الآخرون أحراراً.

قال ليونيداس للملك إحشويروش: «لو كان لديك أيُّ معرفةٍ بالأشياء النبيلة في الحياة لامتنعتَ عن اشتهاء ممتلكات الآخرين، أما أنا فإنني أفضِّلُ أنْ أموتَ من أجل اليونان على أن أبقى الحاكم الوحيد لكل أفراد عِرقي».

ولكن طبعاً، فإنّ المُحتلِّين الجشعين على مدار التاريخ لا يفهمون مثلَ هذه الأمور، فأوَّلُ ما فعله إحشويروش هو رشوةُ الإسبرطيين، وقد نجحَ ذلك في حالة بعض المدن-الدول الضعيفة، ومن المؤكد أن هذا النوعَ من الإغراء كان سيغوي إحشويروش نفسه بحيث يقفز باتجاهه لو كان في وضعهم نفسه.

ولكن ليس ليونيداس. ليس سليلَ هرقل. أمِثْلُهُ يختارُ الخيارَ السهل؟ أيخونُ غيرهُ من أجل مصلحته الخاصة؟ أيحصلُ على أفضليةٍ ولكن عبر الخيانة؟ أجاب ليونيداس: «لقد تعلَّمَ اليونانيون من آبائهم أن يكسبوا الأراضي، ليس بالجبن، بل بالبسالة».

اختار الفضيلة. اختار الشجاعة.

إنَّ فكرة البسالة، أي ليس مجردَ الشجاعة، بل الالتزامُ بشيء أكبرَ من الإنسان بحدّ ذاته، هي التي أقنعت اليونانيين بأنَّ هذه المهمةَ تستحقّ المحاولة. كيفَ لك أنْ تُخاطرَ بالقلّة ضدّ الكَثرة؟ هكذا قال أحدُ الحلفاء سائلاً ليونيداس. فأجابه: «إذا كنتم تعتقدون أنني أعتمدُ على الأعداد، فإنَّ اليونان برمّتها لن تكفي، لأنها ليست إلا كَسرة ضئيلة من أعداد غزاتنا، ولكن إذا اعتمدنا على بسالة الرجال، فإن هذا العددَ يكفي». وهكذا عندما طالبَ إحشويروش الإسبرطيين بالاستسلام، وتسليم سلاحِهم أتاهُ الردُّ البليغ: «تعالَ وخذه».

ولأربعة أيام كاملةٍ، لم يستطع الفارسيون التقدَّمَ، ولم يمنعهم من ذلك إلا خطرُ الاشتباك مع الإسبرطيين. وفي وقتٍ ما من 18 أغسطس، بدأ الهجوم. ارتمتْ صفوفُ الجنود الفارسيين رتلاً تلو الآخر أمام تشكيلة الـ«فالانكس» اليونانية، وهناك اصطدموا بالصخور، وحاربَ الإسبرطيون في صفوفٍ مرصوصة، ليس من أجل بلادهم وحسب، بل كما يفعل البطلُ دوماً: يحاربُ من أجل الرجل الذي بجانبه.

ولما اقتربتْ نهاية اليوم الأول، أَمرَ إحشويروش أعتى جنوده، والملقبين بالآلاف العشرة الخالدين، بالزحف نحو المضيق. ونبَّهَ إسبرطيٌّ ليونيداس بأن الخالدين أصبحوا قريبين. فطمأنه ليونيداس: «أجل، ونحن أيضاً أصبحنا قريبين منهم». وقد ذُعِرَ إحشويروش حتى انتفض ناهضاً من مكانه ثلاث مرّات غاضباً وعاجزاً، إذْ حتى جنود النخبة هؤلاء قد ارتدّوا خائبين بعد أن عانوا خساراتٍ فادحة.

ومع بدايةِ اليوم الثاني، لم ينخدعْ ليونيداس بالانتصارات التي حقَّقَها، فقد كان يعلمُ دوماً، وبصرف النَّظر عن الأملِ بوصول الإمدادات، أنَّ هذه مهمةٌ لا عودة منها. إلا أنه حَضَرَ إليها طوعاً على أي حال، وكان يحاربُ ليكسب الزمن. كما أنه أيضاً حاربَ ليثبت نقطةً معينةً. كان يريد من إقدامه على طقس «ديفوتيو»[25] (Devotio) أن يغذّيَ شجاعةَ اليونانيين القابلين للتردُّد والاستسلام بدلاً من المقاومة. ولكنهم استمرّوا في المقاومة، وكان اليوم الثاني أكثر وحشيةً وضراوةً من اليوم الأول.

ولكن مع مجيء اليوم الثالث، باتَ واضحاً أن الفرس عثروا على طريقةٍ للهجوم من خلف القوّات اليونانية. وصلَ تحذيرٌ بخصوص قوّات العدوّ: سوف يُطلقُ نشَّابة إحشويروش عدداً ضخماً من السهام بحيث تَحجبُ أثناء تحليقها نورَ الشمس، فأجاب ليونيداس: «سوف نقاتل في الظلّ إذاً»، ومن ثم أمرَ رجاله بأن يأكلوا جيداً، لأن عشاءهم القادم من المرجّح أن يكون في الحياة الآخرة. حاولَ أنْ يختارَ ثلاثةَ رجالٍ جرحى كي يعودوا إلى إسبرطة حاملينَ الأخبار، آملاً في سِرةٍ أنْ يُنقذَ حياة هؤلاء الثلاثة أيضاً. إلا أنَّ الثلاثة جميعاً رفضوا الفرصةَ الذهبيةَ. قالَ الأوّلُ: «لم آتِ مع الجيش لأحمل الرسائل، بل لأقاتل». وأما الثاني فقال: «سوف أكون رجلاً أفضلَ إذا ما بقيتُ هنا». وأما الثالث: «لنْ أكونَ خلف هؤلاء، بل سأكون في الصفِّ الأول من القتال».

لم يبقَ ما يقالُ، فوقفَ الإسبرطيون صامتين. منْ مِنهُم لا يَحملُ جُروحاً من معركة اليوم السابق. من مِنهُم غيرُ مرهق؟ من مِنهُم لا يُفكّرُ في أطفاله؟ أو يُفكّرُ في بلادَه التي تَركَها خلفه؟

مع حلول الساعة التاسعة، ارتفعت الشمسُ في كبد السماء وارتفعت الحرارةُ معها، فباتوا يتعرّقون في دروعهم. وسرى في أجسادهم كلُّ ما تبقى من الأدرينالين والوطنية. لن يروا إسبرطة أو عائلاتهم مرّةً أخرى.

أمر ليونيداس بالزحف نحو الأمام، فتقدَّم الإسبرطيّون إلى خارج البوابات الحجرية ليلتقوا بعَدوّهم في ساحةٍ مفتوحةٍ، فتسبَّبوا بإصاباتٍ إضافيةٍ للعدوّ أثناء وقفتهم الأخيرة تلك. وجَّهَ الفرسُ ضرباتهم بغضب، فجلدوهم من الخلف باستعمال سيّاس العبيد، ومن ورائهم عددٌ ضخمٌ من الجنود بحيث أمكنهم دهس الجرحى أو الساقطين بينما تتالت موجات المقاتلين الفرس واحدةً تلو الأخرى.

قاتلهم الإسبرطيّون بشكل منهجيّ، وبالضراوة ذاتها التي استعملوها من قبل، حتى إنهم تظاهَروا بتَفكّكِ صفوفِهم أحياناً، تاركينَ الفارسيين يتقدَّمون نحو الأمام، فيرصّون صفوفهم من بعدها ويذبحونهم. وفي كل مرةٍ كانت صيحةٌ مبتهجةٌ بالنصر تعلو في الفضاء. في تلك اللحظة القصيرة كانت البسالةُ النادرةُ فضيلةً متوفّرةً بكثرة. استطاعَ هؤلاء الرجال أن يتجاوزوا أنفسهَم. حاربوا واستبسلوا بتفوّق يكاد لا يمتّ لهذا العالم. ولكن الإسبرطيين كانوا يعلمون، كانوا يعلمون. فهذه هي النهاية.

لن يكبُرَ العمرُ بهم ويشيخوا، وسيسقطُ كلُّ رجلٍ منهم في هذه المعركة. وسرعانَ ما قُتِلَ ليونيداس في منتصف اليوم الأخير، مُحقّقاً النبوءة التي آمن بها منذ زمن بعيد: إن ملكاً إسبرطياً سوف يموتُ كي لا يستطيع مُحتلٌّ تدميرَ اليونان. وهرع رجالُه إليه، في محاولةٍ، ومحاولتين، وثلاثٍ، لاسترداد جثته. أما في المحاولة الرابعة فتمكّنوا من استعادوا جثّته، وعادوا من فورهم إلى القتال.

تحطّمتْ رماحهم من فَرط الطّعن، ولم تأتِ الإمدادات، فانتشرَ الخبرُ بين الصفوف. لقد حان الوقت. تراجعوا إلى خلف البوابات، وهناك حاربوا باستعمال سيوفهم وحدها، وعندما تحطّمت السيوفُ استعملوا قبضاتهم وأسنانهم.

في النهاية، في آخر المطاف، تمكّنَ العدوُّ من اكتساحهم. ثلاثةَ أيامٍ استمرّت خلالها المعركة، علاوةً على الأيام الأربعة التي سبقتها. دافعوا عن بَلَدهم مدة أسبوع، وقد كلّف ذلك إحشويروش عدداً لا يحصى من الرجال، ولكنَّه كلفه الوقت أيضاً... وقتاً لم يكن يملكه. وعلاوةَ على ذلك فقد اهتزَّتْ ثقته. كم يوجدُ من مثل هؤلاء الإسبرطيين في اليونان؟ كذلك سألَ أحدَ مستشاريه. أكلُّهم

يحاربون هكذا؟ وجاءه الجواب: ثمة الآلاف منهم، وليس فيهم واحدٌ يساوي من سقطوا في هذه المعركة، ولكنهم جميعاً يقاتلون بكفاءةٍ مماثلة.

كما أن اليونانيين أيضاً فهموا الخطر الذي يحيق بهم. ما عاد أحدٌ يستطيعُ أنْ يُنكرَ المثال الذي ضربه الإسبرطيون، وما عادَ أحدٌ يستطيع أن يستنكر الدعوةَ لأداء واجبه.

بعد قرونٍ تلت ذلك، قال وينستون تشرشل عن دفاع القوّات الجوية البريطانية الرهيب خلال معركة بريطانيا: «لم يحْدُث من قبل أنَّ أصبح عددٌ هائلٌ كهذا من الناس يدينون بحياتهم لعددٍ قليلٍ إلى هذا الحدّ من الناس». لكنَّ ذلك لم يكن صحيحاً تماماً، فحتى المواجهة التي أقدمَ عليها أولئك القليلون تدينُ أولاً للإسبرطيين الثلاثمئة. وليس من المبالغة الجدالُ بأن كلّ إنجازات الحضارة الغربية، من عصر النهضة إلى الثورة الأمريكية، ما كانت ستحدث لولا تلك التضحية في ثيرموبيلاي.

وهكذا فإن هؤلاء الجنود الثلاثمئة الذين ضحُّوا، كما ضحّى الجنود في جيتيسبيرج، كما ضحى طيّارو القوّات الجوية البريطانية، أصبحوا أكثر من مجرد رجال. أصبحوا مقدسين.

لقد باتت العبارة التاليةُ تثير الامتعاض بسبب تكرارها مرّاتٍ ومرّاتٍ ومرّات: «الحريةُ ليست مجانية»[26]، لكنها عبارة تعبّر عن الحقيقة. إنَّ تلك الهزيمة المجيدة في ثيرموبيلاي قد اشترت لليونانيين نصراً تلو الآخر في سلاميس وبلاتيا. وترجع جذور الوثيقة العظمى (The Magna Carta)، وإعلان استقلال الولايات، وإنشاء الأمم المتحدة إلى تلك المعركة عند البوابات الحارّة. ماذا عن تلك الحرية التي يحبّها الجميع ولكن الكثيرين يستغلّونها في السوء؟ لقد كُسِبتْ هناك أيضاً... كسبَها آباءٌ حاربوا جنباً إلى جنب عارفين ومُتيقّنينَ من أنهم لن يعيشوا ليرَوا ثمارَ جهدهم، تماماً كما أنَّ الشجرة التي تجلس تحتها زرعَها قبلَ وقتٍ طويل إنسانٌ يكترثُ بالمستقبل.

لم يكنْ في بالهم التفكير في الأسباب، بل في أن يفعلوا وأن يموتوا. كما هو محفورٌ منذ القدم عند موقع المعركة: «قل للإسبرطيين العابرين إننا هاهنا مدفونون طاعةً لقوانينها». إن مثالَ الشجاعة والغيرية الذي قدّموه أبديٌ. لم ينجُ أحدٌ منهم، ولكن تبيّن أنهم أكثر خلوداً بكثير من الجنود الفرس الذين قتلوهم.

«بوّابات النار» (Gates of Fire)، الروايةُ التاريخيةُ الملحميةُ من تأليف ستيفين بريسفيلد، التي تحكي قصّة هذه المعركة، باتت اليوم تنتقل من جنديّ إلى جنديّ، ومن شخصٍ إلى آخر، كنوعٍ من الإجلال لذلك المثال. السؤالُ الجوهريُّ في الكتاب: ما هو نَقيضُ الخوف؟ لا يكفي أن نقهرَ الخوفَ أو نُخمده ببساطة. عندما كتب بريسفيلد الكتاب، أرادَ أن يعرفَ، كما عرفَ الإسبرطيون، ما الذي يوجد وراء الخوف؟ إذا كانَ الخوف هو الرذيلة، فما هي الفضيلة؟ إنها ليست الشجاعةَ وحسب، لأنك قد تكون شجاعاً لأسبابٍ أنانية. عليك أن تتجاوزَ الخوف لتقفزَ من على متن طائرة، هذا مؤكدٌ، ولكن هل تفعل ذلك للمتعة، أم أنه شيءٌ له معنى حقيقي؟

ليس الرجالُ بأسلحتهم وحدَهم من حقّقوا إنجازات ثيرموبيلاي، بل أيضاً الزوجات اللاتي لم يسمحنَ لأزواجهنَّ بالذهاب وليس ذلك فحسب، بل كانتْ شجاعتُهنَّ وانضباطُهنَّ الفولاذي العمودَ الفقري للبلاد. إن صلابةَ النساء الإسبرطيات وعزيمتهنّ وغيريتهنّ أسطورية. عندما قُتِلَ ملكٌ إسبرطيُ في انقلابٍ خبيثٍ، سارعتْ زوجتُه إلى جُثّته، وعندما عَرضَ القتلةُ عليها الإبقاء على حياتها مقابلَ صمتها وقفتْ وتحدَّتهم. كانت كلماتُها الأخيرة بينما قدَّمتْ لهم عُنقها: «فليكنْ ذلك في خدمة إسبرطة».

إننا نخطئ إذ نرى الإسبرطيين مجرّدَ محاربين، ومجرّدَ مقاتلين شجعان. فكما استخلص بريسفيلد: إن نقيض الخوف، تلكَ الفضيلةُ التي تتناقض مع رذيلة الخوف، ليست انعدامَ الخوف. نقيض الخوف هو الحبّ. حبُّ الإنسان لآخر. حبُّ الأفكار. حبُّ الأوطان. حبُّ المستضعفين والمظلومين. حبُّ الجيل القادم. محبّة الجميع. أليسَ هذا ما تَقشعرُّ له أبدانُنا عندما نسمعُ كلماتِ ليونيداس الأخيرة الدامعة التي أوصى بها زوجته: «تزوّجي رجلاً جيداً يعاملُك جيداً، وأنجبي له أطفالاً، وعيشي حياةً جيدةً».

وهو هذا الحبُّ المتوقّد، ذلك الحبُّ الذي يبلغُ أعمقَ نقطة في روحنا، والذي يسمحُ للإنسان بأنْ يرتفعَ فوق منطق الحفاظ على الذات والوصول إلى العظَمة الحقيقية، سواء أظَهَرَ ذلك في حماية شخصٍ ما من رصاصةٍ باستعمال جسدك، أو المخاطرةِ بوظيفتك لرفع صوتَك دفاعاً عن الخير العام، أو المناضلةِ رغم ضحالة الأمل من أجل قضية تعلم إنها محقّة.

عطفتْ فلورنس نايتينجيل بحنانٍ على معاناة المرضى في بلادها. وحاربَ ديغول بضراوةٍ مُجهدةٍ ليحفظَ فرنسا. أما الإسبرطيون عند البوابات الحارّة، فقد تجاوزوا ذلك، إذ كانوا غيريّين فعلاً، ومنحوا أكثر ما يمكن للإنسان أن يمنحه. من المؤكّد أنَّ الغيرية لا تتطلَّبُ تضحية كبرى بالضرورة، ولكن لا وجود

للغيرية من دون تضحية. كانت تضحيتهم شيئاً لا يصدّق، ويزيدُ من ذلك أنها لم تكن من أجل أنفسهم أو من أجل شعبهم. فقد كانَ ليونيداس قادراً على البقاء حياً لو اختار ذلك. وكان قادراً، بصحبة الإسبرطيين، على أنْ يَحكمَ اليونان كلّها. وعلى الرغم من ذلك، فقد ذهبَ وماتَ كي تستطيع اليونانُ كلها أنْ تبقى حرّة. كي نستطيع نحن جميعاً أن نكون أحراراً.

إذا كانت الشجاعةُ نادرةً، فإن هذا النوعَ من البطولة من أكثر الفصائل المعرَّضة للانقراض على وجه الكرة الأرضية. إذا كانت الشجاعة في حد ذاتها غير عقلانية، فإن الحب في صفته الأرقى هذه (هذا النوع الغيري تماماً من الحب) لهُوَ شيءٌ مجنونٌ تماماً. إنه محيّرٌ في جلالته. إنه العظَمةُ الإنسانيةُ الحقيقيةُ. إنه نحنُ عندما نرتقي فوق المنطق، وفوق مصلحة الذات، وفوق ملايين السنين من طبيعتنا البيولوجية، كي نعثرَ على الرحمة، مهما كانت عابرة، في مملكةٍ أرقى.

الإسبرطيون هم أولئك الأبطال الذين نعترف بأنهم تجسيدٌ لتلك الفكرة، ولكنّ علينا أن نتذكَّرَ أنهم أيضاً يمثّلوننا: يمثّلون الشجاعةَ المجهولةَ لعددٍ لا يُحصى من المقاومين على مرَّ الزمان، لأناسٍ شهدوا في المحاكمات وواجهوا الانتقام، وأناسٍ تقدّموا للحصول على الحقّ في التصويت فتعرّضوا للضرب بسبب ذلك، ولمُنظّمي النقابات الذين وقفوا في وجه أرباب الصناعة المُحتكِرين، والروّاد الذين انطلقوا بشجاعةٍ في مهامِ إنقاذ، والرياضيينَ الذين لعبوا على الرغم من إصاباتٍ قابلةٍ أنْ تُنهي مسيرتهم كي يحافظوا على فرصةِ فوزِ فريقهم وعلى طعامِ عائلاتهم. هذه لحظاتٌ غيريةٌ من عظمة الروح... الـ (megalopsuchia).

ما نحن مستعدّون لمنحه، أي كاملُ مقدارِ إخلاصِنا، إخلاصِنا للجهد، لإنسانٍ غريبٍ، لشيءٍ لا بدَّ من فعلِه، هذا ما يَجعلُنا بشراً أرقى. هذا ما يحوّلنا من شجعان إلى بطوليين. ربما للحظةٍ واحدة، وربما في نظر شخصٍ واحدٍ فقط، وربما ليحفظنا التاريخ في سجلاته إلى الأبد.

الهدفُ هو كلّ شيء

عندما اختنقَ موقعُ جاوكر تحت الضغط السريّ الشديد الذي مارسَهُ بيتر ثيل، بدأ العاملون فيه يشعرون بالإحباط، فهم يحتاجون إلى توليد المزيد من المشاهدات على الموقع. يحتاجون إلى إثبات قدراتهم في التعدّي على حياة المشاهير الشخصية. لعلّهُم كانوا يشعرون بأنَّ الزمان قد تغيَّر، ولكن بما أنهم لم يخضعوا في يومٍ من الأيام لمحاسبةٍ حقيقية، فقد ظلّوا يعتقدون أنهم منيعون.

في يوليو 2015 جاءت لحظتهم الكاشفة: نشرَ الموقعُ مقالةً تفضحُ مديراً تنفيذياً في عالم الميديا بخصوص ميوله الجنسية الشاذة، والرجلُ له طفلان ويتعرَّضُ للابتزاز من قِبَلِ رَجُلٍ يعملُ في الدعارة. لقد كانت واحدةً من تلك القصص اللئيمة، ولكن المثيرة، والتي كانوا في الماضي يسارعون إلى نشرها في كل مرة، وهي نوعُ القصص التي تخافُ بقية المواقع الصحفية من الاقتراب منها. ولكن الأمرَ بات مختلفاً الآن: لقد أرغمت الوقائعُ الماليةُ والعلاقات العامة مَالِكَ موقع جاوكر على سَحبِ القصّة، وحاول أن يشرح لطاقم العمل أنهم قد ابتعدوا كثيراً عمّا يقبله الرأيُ العام، بل عما هوَ مستعدٌ لقبوله شخصياً بصفته شاذاً.

استقالَ مُحرِّران من الموقع اعتراضاً على تدخّل الإدارة، رافضَيْنِ أنْ يقومَ أيُّ إداري بإعادة النظر في عملهما والتشكيك فيه. لنْ يقبلا بممارسة الرقابة الذاتية على ما يكتبان. ولذلك فقد قرَّرا أنهما سيدفعان الثمن بالاستقالة من مبدأ الإصرار على حقّهما في حرية الصحافة.

يُمكننا أنْ نعترفَ بأنَّ الاستقالة بناءً على مبدأ شيءٌ يتطلَّبُ الشجاعة: أنْ تُنهي مسيرَتَك المهنية من أجل مقالة. ومن الواضح أيضاً لأي شخصٍ يَملكُ بوصلةٍ أخلاقيّة أنَّ هذه ليست معركةً سليمةً تستحقُّ التضحية من أجلها، بل هي معركةٌ ما كان يجدر بهما خوضها في المقام الأول.

بالطبع، كانتْ الشجاعةُ الحقيقيّةُ تكمنُ في النظر إلى المرآة والاعترافِ بأنّ ما فعلاه في حياتهما الصحفية ليس شيئاً حميداً. ولكنهما لمْ يستطيعا ذلك، ولهذا

أصرَّا على موقفها، وقامرا بوظيفتهما من أجله.

ثمة شجاعةٌ في ذلك، ولكن كما قال الجنرال الفرنسي أثناء مُشاهدته مسيرةَ اللواء الخفيف غير العقلانية وغير الضرورية نحو الموت: «C’est magnifique... c’est de la folie» (هذا رائعٌ... هذا جنونٌ). بل كانَ الأمر برمته جنوناً في الواقع. إذْ من يتذكرُ السببَ الذي اشتعلتْ لأجله حربُ القرم؟ ما كان أحدٌ يتذكر آنذاك أيضاً.

إن الاستقلالَ من رقابة المُحرّرين شيءٌ مهم، ولكن من أجل ماذا؟ لأيّ سبب؟

ما كان المحرّران المستقيلان من جاوكر يستطيعان إجابَتَك عن هذا السؤال.

لقد كانت الكونفيدرالية تملكُ الكثيرَ من الجنود الشجعان، والحالُ نفسها في الجيش البريطاني أثناء حروبِه في الهند وأفريقيا. وكذلك الجيشُ الياباني في أثناء دفاعه عن الجُزُرِ التي استولى عليها في المحيط الهادئ.

إنك عندما تقرأ عن بعض هذه الإنجازات تفتحُ فمك مندهشاً.

ولكنك، وبشكلٍ فطريّ، تعلمُ أنَّ في هذه الشجاعة شيءٌ فارغٌ ما. إنها شجاعةٌ فارغةٌ بسبب الأهداف الجبَانة والخاطئة التي حاربوا من أجلها.

كما يقول اللورد بايرون:

إن القضيةَ هي كلّ شيء،

فهي التي تحطُّ من الشجاعة أو تقدّسها.

ليست الشجاعةُ شيئاً جيداً إذا كانت مستقلةً عن كل شيءٍ آخر، فالأبطالُ دوماً لديهم سببٌ. ما نفعُ الفعلة إذا فعلتها كي تفعلها وحسب؟ أي قيمةٌ في الشجاعة إذا ما كانت مجرد حيلةٍ للتسلية أو استعراضاً مغروراً؟ أو إذا كانت شجاعةً في سبيل الطاعة التي لا تُشكّكُ في أيّ شيء؟ ماذا لو كانت شجاعةً في سبيل شيءٍ خاطئٍ أخلاقياً؟

يروي جون إف. كينيدي في كتابه «ضروبٌ من الشجاعة» (Profiles in Courage) حكاية الموقف السياسي الذي اتَّخذه إدموند جي. روس، الذي انفصلَ عن حزبهُ وصوَّتَ ضدَّ عزل الرئيس أندرو جونسون. من بين كل فصول

هذا الكتاب، فإن هذا الفصل يسوءُ كلّما مرّ عليه الزمان. من الصعب دوماً أن تقفَ وحيداً، ولكن إدموند روس في هذه الحالة كان يقف وحيداً مدافعاً عن الحفاظ حرفياً على التفوّق الأبيض العنصري. وما هو أسوأ من ذلك، فإن إدموند روس عبر مقاومته لذلك التغيُّر المثير للجدل في وقته (إذ هي أول حالة عزلٍ لرئيسٍ في تاريخ الولايات المتحدة) قدْ ساعدَ في إرساء سابقةٍ قانونية/ تشريعية جعلتْ إزالةَ كل الرؤساء السيّئين اللاحقين أمراً صعباً حدَّ الجنون.

المديرُ التنفيذيُّ الذي يُحدِّق في الفرص الصعبة كي يتوسَّعَ في تجارةٍ استغلاليةٍ سامةٍ، والشخص المعادي للقاحات الذي يُخاطر بالمرض والشعور بالخزي ويمضي حرفياً بعكس اتجاه القطيع، والديكتاتورُ الذي يستولي على السلطة بانقلابٍ جريءٍ مذهلٍ، وضُبَّاطُ الشرطة الذين يستقيلونَ تضامناً مع ضابطٍ تعرَّضَ للعقاب لأنه آذى رجلاً عجوزاً في مدينة بافلو من دون سببٍ وجيه، والجنودُ الذين آثروا الذهاب إلى الاحتجاز، رافضينَ الشهادةَ ضد الملازم وليام كالي بخصوص دوره في المجزرة الرهيبة التي حدثت في ماي لاي، فيتنام.

كلّ هذه شجاعةٌ... لكنّها شجاعةٌ فارغةٌ خاويةٌ.

كما يشرحُ مدرّبٌ في أكاديمية البحرية الأمريكية: إنَّ قفزَكَ فوق قنبلةٍ لهُ قيمةٌ إذا ما كُنتَ تقفزُ فوق القنبلة لتحقيق هدفٍ ما: كأنْ تُنقذَ أحداً. الفرقُ بين الشجاعة الخام وبين البطولة يتعلَّقُ بسؤال مَنْ. لأجل «مَنْ» فعلت ذلك؟ هل كان فعلاً غيريَّاً حقاً؟ هل كان الغرضُ منه الخيرَ العام؟ ثمة منطقٌ في البطولة، على الرغم من انعدام المنطق في تجاوزِ غرائزك التي تحضُّك على النجاة بنفسك.

كتب سيسيرو: «يُعرِّف الرواقيون الشجاعةَ على نحوٍ صحيح بأنها الفضيلة التي تُدافِعُ عن قضية الحقّ... لم يحصلْ أحدٌ على مجدٍ حقيقي باكتسابه سمعةَ الشجاعة عبر الخيانة والخبث».

من الجيّد أن تكون شجاعاً. فالعالمُ يريدُ أنْ يعلم إذا ما كنت تمتلكُ العزيمةَ ورباطةَ الجأش.

ولكنّ الـ(لماذا)، والـ(أين)، والـ(متى)... هذه هي التي تُهمُّ حقاً.

إنها تصنع كلّ الفرق.

مِنَ الأشجعِ ألا تقاتِل

انتصرَ لنكولن في الحرب الأهلية. ولكن الانتصارَ الذي لا يحظى بالكثير من الاحتفاء هو جهوده لمنع انطلاقة الحرب من الأساس[27].

على الرغم من انتصارِهِ العادلِ في انتخاباتٍ ديمقراطية، وعلى الرغم من تطميناته المستمرة بأنّه لا ينوي تجاوزَ صلاحياته الدستوريّة، فقد انفصلَ الجنوب وانسحبَ من الاتّحاد قبلَ أن يُقسِم لنكولن قَسَم الرئاسة حتى.

فكيف تتخيّل أنّه أنهى خطابَه الرئاسيّ الأول؟ لقد أنهاهُ بأنْ يدعو الجميعَ إلى أنْ يُحكّموا الملائكةَ فيما بينهم، وهي دعوةٌ صريحةٌ إلى التفاهم، فقال بصوتٍ شغوف: «لسنا أعداءً، بل نحن أصدقاءٌ، وعلينا ألا نكون أعداءً. على الرغم من أن العواطفَ الجيَّاشة قد تتَّقِدُ، فلا يجوز أنْ نسمحَ لها بأن تَكسِرَ الروابط الوجدانية الموجودة بيننا».

وحين بدأ الجنوبُ بحصار حُصونِ الفيدراليين ومعاقلهم، حافَظَ لنكولن على خطّه الهادئ: رَفضَ أن يَرفعَ نبْرَتَهُ غاضباً، ولم يَقبلْ بأن يَنجحَ أحدٌ باستفزازه. حتى في أثناء أحداث حِصْنِ سُمْتَر في جنوب كارولينا، فقد اختارَ لنكولن أنْ يُرسِلَ المواردَ والطعامَ اللّازمين بشدّة إلى الرجال المحاصرين، ولكنَّه لم يُرسِلْ سلاحاً أو جنوداً، لأنه لم يرغب في التصعيد غير الضروري لوضعٍ متوتّرٍ جداً أصلاً.

إنَّ المواجهة التي لا يلزمُ حدوثها يجبُ ألا تحدث. المعاناةُ، والإزعاجُ، والقلقُ: كلُّ هذه الأشياء تتطلَّب منا الشجاعة كي نَحتَمِلَها. إلا أنَّ الحكمة والتعاطف يقضيان بما هو أكثر مِنْ تَجنُّب هذه الأشياء إنْ لم تكن ضروريةً، بل يقضيانِ أيضاً بمحاولة حماية الآخرين منها. هذا هو السببُ الذي يجعلُ الأبطالَ يحاربون لمنع الصراع بنفس الضراوة التي يبدونها أثناء الصراع النادر الضروري.

قال غاندي إنَّهُ يفضل العنفَ على الجبن، ولكن الذي اختاره هو بدلاً من ذلك، واتَّبعَهُ فيه اللاعنفيون الآخرون، كان شيئاً أكثر روعةً وبطولةً: إنّك تحتاجُ

شجاعةً أكبر كي تحاربَ من دون أسلحة، كي تحارب برُوحِكَ ضد أعداءٍ مسلحين وغاضبين. تخيّلْ شجاعةَ مالالا يوسفزي الصغيرة التي استهدفها تنظيم طالبان وتركها للموت لأنها حاولت الوصول إلى المدرسة. قالت: «حتى لو كانَ في يدي مسدسٌ، وكان هو واقفاً أمامي، فإنني لنْ أُطلقَ عليه النار».

أليس ذلك أقوى من أقوى المحاربين؟

تكمنُ المشكلةُ عادةً في أنَّ هذا النوع من البطولة أقلُّ سينمائيّةً من اندفاع الخيَّالة في المعركة. يرغبُ الناسُ في قراءة كتبٍ عن الحروب... وليس عن الدبلوماسية التي منعتْ حصولَ الحروب. إنَّ الناس يريدون أن يسمعوا عن أولئك الذين فضَحَوا الممارسات الشنيعة أو غير القانونية... ولا يريدون أن يسمعوا عن القادة الذين تمكَّنُوا من إصلاح الشركات بشكلٍ فعّالٍ من الداخل ومن دون أن يحتاج الأمر إلى الوصول لفضائح. إننا نصنعُ الأفلام عن مُحطّمي الأصنامِ والعاداتِ الباليةِ الشجعان، الذين يفعلون كل شيءٍ على نحو مختلف... ولكن ماذا عن الإنسان الذي يصنعُ فرقاً حقيقياً بينما يعيشُ مندمجاً في مجتمعه وفعالاً فيه على نحوٍ طبيعي؟

تذكّر: لا أحدَ يحصلُ على مجدٍ في أشياء لم تحدث. إنَّنَا نتذكّرُ فرانكلين ديلانو روزفيلت في موقفه الذي تحدَّى الكسادَ الكبير في الثلاثينات. والواقعُ أنَّ إنجازاته الحقيقية هي الإصلاحات التي درأتْ عدداً لا يُحصى من الكسادات المستقبلية، وقد تضمَّنت القبضَ على النصّابين والمتلاعبين في مجال الأسواق المالية، وهي إصلاحاتٌ ما زالت قيد العمل في صمتٍ، في خلفيّة المشهد، حتى يومنا هذا.

لا بدَّ للأمّة من جنود شجعان (شجاعة جسديّة) ورجالِ دولةٍ حكيمين (شجاعة أخلاقيّة). الأولُ يحاربُ في المعارك، والثاني يُنَمِّي العلاقاتِ والسياسات التي تُقلِّلُ من ضرورة المعارك. إننا نحتاجُ إلى الجنرالات، ونحتاجُ معهم إلى المُعترِضِينَ عليهم بوعيٍ وضمير، لأن كُلّاً من الطرفين محاربٌ شجاعٌ بطريقته الخاصة، ويُحاربُ لأجل قضايا مهمة.

كما قُلنا سابقاً فإن نصف الشجاعة ليست شجاعة. والرجولةُ الفارغةُ والمقتصرة على العضلات كثيراً ما تُخفي خلفها مازوشيّةً. ليس ثمةَ كثيرٌ من الشجاعة في البحث عن القتال بغرض القتال وحسب، ولا شيء مثيرٌ للإعجاب في لعبة الروليت الروسية. ليس ثمَّة أيُّ مجدٍ في الانتصار بمعركةٍ، جسدياً كانت أم لفظية، إذا ما كان الهدفُ منها غير أخلاقي. ولا شيء أقلُّ أخلاقاً من الصراع بلا ضرورة.

ليس مِن المُهم من هو على صوابٍ. ليس مِن المُهم أنْ تعاني بعضَ الإحراج العلني. هل يحتاجُ أحدٌ إلى الموت في سبيل ذلك؟ هل يحتاجُ أحدٌ إلى خسارة سُمعَتِهِ من أجل ذلك؟ ألا تستطيعُ قراراتٌ أفضل أن تَحُلَّ هذه المسألة في المستقبل؟ ماذا لو سمحَ الطرفُ الأول للثاني بأنْ يحفظَ ماءَ وجهه؟ وماذا لو كنت أنت ذاك الطرفَ الأول؟

ثمة أسئلةٌ بطوليةٌ في هذه الدنيا، وإذا كان بالإمكان تَجنّبُها... فعلينا ذلك. إن التعقُّلَ هو الجزءُ الأكبر من البسالة، كما يقول التعبير الشائع.

وهو جزءٌ من البسالة لأنه يتطلّبُ شجاعةً: يتطلّبُ من المرء أنْ يكون مستعدّاً للظهور بمظهر الأحمق، وأن يتعرَّضَ للانتقاد، وأنْ يَتلقَّى ضربةً، وأنْ يفعلَ ما يَعلمُ أنه الشيء الصحيح. لا يقدر كلّ الناس على ذلك. كما شَرحَتْ هانا جونستون بالي، الناشطةُ في مجال حقوق المرأة (ومن ضمنها معركةُ الحصول على حقّ التصويت): «إنَّ الرجلَ لا يملكُ الشجاعةَ الأخلاقيّة للدعوة إلى السلام، لأنَّهُ يخافُ من اتهامه بالأنثوية والجبن». هذا هو بالضبط الفخّ الذي وقع فيه الرئيس ليندون جونسون في فيتنام: كانَ يَعلمُ أنّه يدخلُ في مسألةٍ خاسرة، ولكنه لم يرِد أن يبدوَ طريّاً.

آمنت هانا جونستون بالي بأنَّ لدى النساء استعداداً خاصاً لتجنُّبِ هذه المشكلة، ولكنْ لماذا؟

ربما هو التعاطف، فبدلاً من تفكيرهنَّ بكيف سيظهرنَ عند اتخاذ الموقفِ الصحيح، فإنهنَّ يَفْعلنَ شيئاً أكثرَ بطولةً، وأكثرَ غيريّةً: إنهنَّ يُفكّرنَ في العواقب التي يُمكن أنْ تَؤثّر على الناس الآخرين.

إذا عمِلتَ من مُنطلقِ الخوف أو الأنانية، فستُخفِقُ في الانتباه لذلك. ستجدُ نفسك عالقاً في فخٍ من التصعيد المستمرّ. لا أحدَ يريدُ حرباً، لا مجازيةً ولا حقيقيةً. يقول صن تزو، وهو صاحبُ كتاب «فنّ الحرب» (The Art of War)، إنَّ من الأفضل الانتصار من دون قتال: أنْ تُناورَ بحيثُ يَخسرُ العدو من قبل أن تبدأ المعركة.

إنّه على حق.

وعلى فكرة، فإن هذا هو ما حدث مع لنكولن. على الرَّغم من جهوده الشجاعة، لم يستطعْ أنْ يُوقفَ أولئك الذين فَضَّلوا أن «يَدخلوا حرباً بدلاً من

أن يتركوا الأمّةَ تنجو». ولكنَّهُ تمكّنَ، على أيّ حال، عبر انضباطه، من مناورة الجنوب حيثُ وَضَعهُ في موقفٍ لا يمكنُ الانتصار فيه: موقفُ المُعتدي في حربٍ أهليّة. سارعَ القادةُ الجنوبيّون بغباءٍ إلى إطلاق الرصاصة الأولى في حربٍ يدَّعُونَ أنهم الضحيةُ فيها، وكانَ ذلك تناقضاً أخلاقياً لم يستطيعوا تجاوزه قط.

ما هو أهمُّ من ذلك، فقد فَاتَهَم أنّهم في موقعٍ ضعيفٍ واقعياً، إذْ تَنقُصُهم الموارِدُ، وتَنقُصُهم الرؤيةُ الاستراتيجية، ويَنقُصُهم الحلفاءُ والدَّعمُ الدّوليُّ الضروريان للانتصار على الشمال. وقد كان يَنقُصُهم أيضاً أنْ يفهموا كم ستكون هذه الثورةُ مكلفةً ومُدمّرةً. لقد اغتنمَ الجنوبُ المبادرة مع انطلاقة الحرب، بينما كانَ لنكولن يَجْمعُ بهدوءٍ المكوّنات الجوهرية التي حقّقَتْ له الانتصار.

نعم، علينا أن نكون مستعدّينَ للتفاوض. إننا مستعدونَ للمساومة. أما الهروب؟ فلا.

إننا نتجنَّبُ القتالات الضئيلة والسخيفة كي نكون جاهزين للصراعات ذات القيمة الحقيقيّة. وعندما جاءَ الجنوبُ حاملاً لواءَ الحرب في آخر المطاف، فقد حاربَهُ لنكولن بضراوةٍ توازي شراسة تشرشل وديغول. لقد حاربَ بالضراوة التي علينا أنْ نُحارب بها.

كيف يُمكننا حلُّ هذا التناقض؟ كيف يمكننا أن نُحوِّل هذه الدائرة إلى مربّع؟ متى نعملُ على تهدئة التصعيد؟ ومتى نندفعُ نحو الهجوم؟[28]

سواءٌ أكانت معركةً جسدية أم أخلاقيةً، فعلينا أن نتَّبِع نصيحة شكسبير في حوار هاملت المشهور: «مع نفسك، كُنْ صادقاً»:

.....احذرْ

من الدخول في صراعٍ، ولكنك إنْ دخلت،

فاحرصْ على أن يخشاكَ مَنْ يُصارعك.

عليك أن تختبرَ حياة البرية

نُفي سينيكا كما نُفي إبكتيتوس. وألقى الغيستابو القبض على الفيلسوفة السياسية الأمريكية الألمانية الأصل التي ذاع صيتها في القرن العشرين، حنة آرنت فقضت ثمانية أيامٍ في السجن وسبع سنوات في المنفى. كما قضى جاليليو ما تبقّى من حياته في الإقامة الجبرية بعد أن تجرّأ على التأكيد بأن الأرض تدور حول الشمس رافضًا التراجع عن هذا الادعاء، وما من أحد كان سيلومه لو أنه تراجع.

أُرسلت إليانور روزفيلت بعيدًا من قبل والديها عندما كانت فتاةً صغيرة، ومن ثم عاشت لعقود طويلة في كنف زوجها. من جهته، تعرّض هرمان ملفيل لهجومٍ وحشيّ من قبل النقّاد، في حين طُرد ستيف جوبز من شركة آبل. أما تشارلز داروين فقضى ثلاثة وعشرين عامًا في المطهر قبل أن يتمكّن من نشر أفكاره حول التطوّر.

لا بد من أنك تظنُّ بأنّك ستحظى بالحبِّ والتقدير على كلّ ما تفعله، أليس كذلك؟

كم كان سيكون رائعًا لو قدّرنا أبطالنا حقّ تقديرهم وفَرَشنا السجادة الحمراء لعباقِرَتنا المُبدعين. غير أننا اخترنا عوضًا عن ذلك أن نضعهم في مواجهة الكثير من التحدّيات، ونعذِّبَهم ونُرغِمَهم على الرحيل بعيدًا.

لم يكن تشرشل في شبابه أسيرَ حربٍ فحسب، بل تمّ أيضًا إبعاده عن الحياة العامة في ذروة حياته السياسية. ما هي الجريمة التي ارتكبها؟ أنه كان على حقٍّ إلى حدّ ما بشأن ألمانيا، في وقتٍ لم يكن أحد يرغب في خوض حربٍ أخرى، أو يتمنّى أن يكون محقًا بشأن الخطر الذي يشكّله هتلر. لذلك، كان من السهل التخلّص منه أكثر من إثبات خطئه.

قبع تشرشل في ملكيته خارج لندن ما يقارب العشر سنوات. أو هذا ما اعتقده أعداؤه. غير أنه كان في الحقيقة يقرأ، ويكتب، ويستريح. كما كان يجري اتصالاتٍ قيّمة، منتظرًا اللحظة المناسبة.

في هذا السباق، أوضح تشرشل قائلًا: «ينبثق كل نبيّ من حضارةٍ معيّنة، ولكن ينبغي على كلّ نبيٍّ أن يختبر حياة البرّية. وعليه أن يترك انطباعًا قويًا في مجتمع معقّد... كما عليه أن يقضي فتراتٍ من العزلة والتأمّل. هذه هي العملية التي تؤدّي إلى تكوين الديناميت النفسي».

والديناميت النفسي هو ما كان يملكه ستيف جوبز، وإليانور روزفلت، وما طوّره سيربيكو وفلورانس نايتينجيل. ولو أن مساراتهم كانت سهلة لما اضطروا للجوء إلى تلك الأمور.

كم من الوقت يمكن أن تتحمّل أن يُساء فهمك؟ كم من الوقت تستطيع الصمود؟ هل أنت على استعدادٍ لأن تكون الشخص الوحيد في شركتك الذي يعبّر عن مواقفه علنًا؟ والشخص الوحيد في حزبك الذي يجاهر بانتقاداته؟ ما الذي بإمكانك أن تتحمّله لتكون صادقًا مع ما تؤمن به؟ ولتقوم بما عليك القيام به؟

كان تشرشل يستطيع، لأغراضٍ أنانية، أن يستسلم، تمامًا كما بإمكانك الاستسلام في أيّ وقت. كان تشرشل يبلغ من العمر أربعةً وخمسين سنة عام 1929، ما يعني أنه كان قادرًا على التقاعد، وممارسة هواياته والانغماس في ملذّاته نكايةً بالجميع.

ولكنه اختار ألا يفعل ذلك.

وعندما نادته إنجلترا في نهاية المطاف، لم يكن مستعدًا لتلبية النداء فحسب، بل كان على أهبة الاستعداد لمعالجة الأزمة التي أرسلوا بطلبه من أجل حلّها. فقد كان تشرشل أشبه بالشحنة المتفجّرة التي يحتاجون، أو يحتاج العالم برمّته إليها.

لا ريب في أن المجازفة، والدفاع عما تؤمن به، والاستعداد للمعاناة من أجل معتقداتك هي القواعد الأساسية لاختبار الشجاعة... والأرض الخصبة لها. فعدد القادة الذين يتماشون مع عصرهم قليل جدًا، لأن العدد الأكبر منهم يسبق بوجهٍ عام عصره. ما يعني أنه عليهم النظر حولهم ليدركوا بأن لا أحد يقف بجانبهم، في انتظار ظهور الحشود الصغيرة والمؤيدين القلائل.

من الممكن في هذه الحالة أن يلجأوا إلى الاعتدال في معتقداتهم خوفًا من التعرّض للنبذ من مجتمعهم، وعلى أمل أن يتمكّنوا من إيجاد مكان لهم في وسطه.

لا أحد يرغب في أن يكون منبوذًا، إلا أن النبذ قد يكون تحديدًا ما يحتاجون إليه (ولهذا السبب لا يمكننا أن نسمح للخوف من هذه النتيجة بمنعنا من القيام بما ينبغي القيام به بشكلٍ يومي). وفي نهاية المطاف، ستجد نفسك لا محالة منسلخًا عن أقرانك، وعن الاتجاه العام لعصرك سواء أكنت مستقلًا، أم صاحب رؤية أو صاحب مبادئ. ومن الممكن أن تتعرّض للفصل، أو الطرد من المكتب أو حتى النبذ. وفي أفضل الحالات، يمكن أن يلاطفوك ولكنهم سيتجاهلونك حتمًا.

من الممكن أن تسمح لما حدث بسحقك أو برسم شخصيةٍ جديدة لك، شخصية يدعوك القدر لأن تكون عليها. فأنت تدرك بأن العمل الذي تقوم به ينطوي على درجةٍ عاليةٍ من الأهمية، وهو أكبر مما تتصوّر.

تعوّد ديغول التحدُّث بشيءٍ من الألفة المميزة مع السياسيين الذين «عَبَروا الصحراء». فهو نفسه عَبَر الصحراء في إنجلترا، ليس خلال الحرب فحسب، بل بعد انتهائها أيضًا. إذ بقي ممسكًا بزمام السلطة ما بين عامي 1946 و1958 فيما كانت تعصف بفرنسا موجةٌ من الاضطرابات كادت أن تقضي عليها. ولتمكينها من استعادة عظمتها، طُلب إلى ديغول التخلّي عن السلطة بعد نفيهِ إلى الصحراء حيث عانى لسنوات طويلة من الوحدة. وعلى الرغم من تخلي فرنسا عنه، أبى التخلي عن أمله في إنقاذها. فتكونت لديه ما يعرف بالديناميت النفسي الذي انبثق من تحت أنقاض هذا الرفض والإخفاق.

علينا أن نتذكر دومًا بأن الوديان تستكين بين الجبال. من الممكن أن تتعثر وتقع من عليائك، أو من الممكن أن يدفعك أحد ويرميك في القعر، أو بكل بساطة من الممكن أن تتوه عن الدرب الصحيح. ولكنك ستجد نفسك هنا، في أدنى نقطة. ما الحلّ؟

صحراء ممتدة إلى ما لا نهاية، ووادٍ سحيق...في كلا الحالتين، عليك أن تتحلى بالصبر، والأهم من ذلك كله، بالحبِّ، لتتمكّن من عبورها. لا يجوز أن تسمح لتلك المرحلة بأن تجعل منك شخصًا قاسيًا، بل احرص على أن تجعل منك شخصًا أفضل.

فالكثير من الناس يعتمدون عليك.

لا تفقد الأمل، ولا تتخلَّ عنهم. لأنهم لا يعرفون ما يفعلون. أما أنتَ، فتعرف ما تفعله، وهذه الصحراء البرية التي أُرسلت إليها، عليك أن تجتازها لأنها تشكّل

جزءًا من رحلتك.

فالنضال يزيد من روعة الوجهة ويجعلها بطولية.

الإيثارُ في الحبّ

في صيف العام 1969، كان الكابتن جايمس ستوكدال في السادسة والأربعين من عمره. كان الضرب المبرح والحرمان قاسيين عليه. راح يكافح وهو يشعر بالخوف.

جلّ ما أرادوه منه هو أن يحلق ذقنه وأن يعتني بهندامه للظهور أمام الكاميرات. جلّ ما أرادوه منه هو أن يرافِقَهم وأن يجلس أمام الكاميرات ويقول إنّ الأمور كلّها على خير ما يرام.

لكن، وبدلاً من ذلك، استخدم جايمس ستوكدال شفرة الحلاقة التي زوّدوه بها ليفتح جرحًا بطول سبعة سنتيمتراتٍ في جبينه. وشعر بأنّ هذا ليس كافيًا، فحمل مقعدًا خشبيًا وهشّم وجهه به بشكل متكرّرٍ حتى بالكاد أصبح قادرًا على أن يرى.

وهكذا، بدأت حملته لتحدّي سجّانيه في فندق هيلتون في هانوي.

لم يكن أسيرَ حربٍ بل كان أسيراً في الحرب. كان يحارب من أجل رجاله، أكثر من محاربته من أجل بلاده.

ومع حلول خريف ذاك العام، ومع تزايد تعذيب رفاقه، قرّر ستوكدال أن يضع حدًّا لذلك. سيقدّم تضحيّة من أجل الفريق. سيقّدم حياته.

تهادى ستوكدال المقيّد إلى كرسيّ ليصل إلى النافذة ذات الزجاج المزدوج الوحيدة في السجن وحطّمها. واستخدم قطعةً كبيرةً من الزجاج ليقطَعَ مِعصمَه. وقد كتب في وقتٍ لاحق «آخر ما يحتاج إليه الفيتناميون الشماليون هو موتي. كان هناك حشدٌ كبيرٌ من الضبّاط الفيتناميين الكبار في تلك الغرفة، فيما كان يتمّ إنعاشي. وانتهى تعذيب السجن كما شهدناه في هانوي بالنسبة إلى الجميع في تلك الليلة».

حينذاك، أوصل ستوكدال نفسه إلى حافة الهاويّة مرتين. ولم يكن هذا من أجل مصلحته. لم يكن لديه أدنى فكرة عمّا إذا كان سينجو من محاولة الانتحار. لديه زوجة وأولاده ينتظرونه في الوطن كما لديه آماله وأحلامه. كان لديه الكثير ليخسره إلا أنه بدا مستعدًا لأن يبادل هذا بأمل التخفيفِ من عذابات الآخرين!

لم يفهم الحرّاس هذا. وظنّوا أنهم يستطيعون أن يؤلّبوا السجناء بعضهم ضدّ بعض. ظنوا أنّ الألم المفرط والخوف الشديد اللذين يعانون منهما سيجعل الواحد منهم لا يأبه لما يحدث للآخر. إنه ذاك السؤال القديم نفسه: لكن ماذا عني أنا؟

تفاجأوا حين اكتشفوا، بحسب ما يقول ستوكدال، وجودَ قناعةٍ صادقةٍ بفكرةٍ قديمة بقِدَم النصوص المقدّسة. يقول ستوكدال «هذه الفكرة هي أنك حامي أخيك. إنه الطرف المقابل لسؤال «وماذا عني أنا؟»».

أن تُحبّ جارك شيءٌ، وأن تكون حامي أخيك، هل هو شيءٌ آخر؟ هل يعني أن تضحّي من أجل الآخرين؟ تقول الآية في الكتاب المقدّس «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا: أن يبذلَ الإنسانُ نفسَه من أجل أحبّائه».[29]

لكننا نخشى أن ندافع عَلَنًا عن شخصٍ آخر لأننا تعبنا كثيرًا وجهدنا لنصل إلى ما وصلنا إليه.

البطل ليس شخصًا يتحدّى وحده أعتى الصعاب. ليست البطولة أن تقفَ أنت في مواجهة العالم. وليست أن تكون غاضبًا من العالم. إنه ما أنتَ مستعدّ لأن تفعله من أجل العالم.

فكّر في تتش كوان دك في ذاك الصراع المأساوي نفسه كالذي عاشه ستوكدال. أغضبه وأحزنه بشدّة الاضطهاد الذي تعرّض له المواطنون البوذيّون في جنوب فيتنام، فقرر أن يقوم بحركة تحدٍّ تثير دهشةً أكبر: أشعل النار في نفسه. لا يمكن لأيّ شخصٍ أن يرى الصورة من دون أن يتأثّر بشجاعة تتش كوان دك المجنونة إذ جلس جامدًا من دون حراك وبرباطة جأشٍ لافتةٍ فيما ألسنةُ النار تلتهم جسده.

أن يعني جذر كلمة «شجاعة» (courage) «القلب» (heart) هو أمرٌ يكاد يكون مثاليًّا. لم يبقَ قلب تتش كوان دك سليمًا خلال فعل المقاومة الخارق الذي قام به، بل استطاع أن ينجو من عملية حرق الجثمان التي جرت لاحقًا. وها هو اليوم معروضٌ كبقايا مقدّسة وكرمزٍ للتحدّي.

ما الذي يمكن أن يدفع شخصًا ما لأن يُقدِمَ على تصرّفٍ كهذا؟

إنه ليس التحدّي من أجل التحدّي. بل هو الحبّ. الحبّ هو السبب. حبّ البريء، حبّ المستقبل حتى وإن لم يتمكنوا من رؤية أنفسهم فيه.

الحبّ يجعلنا أبطالًا.

كان ستوكدال ورفاقه من أسرى الحرب يرسلون إشارات لبعضهم البعض تحمل حرفي U وS. لكن ما معناهما؟ الولايات المتحدة (United States)؟ لا، فهذان الحرفان يرمزان إلى الوحدة قبل الذات (Unity over Self). كانوا يقولون هذا بعضهم لبعض عندما يشعرون بالوحدة، عندما يُبعَدون بعضهم عن بعض كي يُعذَّبوا وعندما يجلسون في الزنزانات والغضب يتآكلهم بسبب ما قالوه تحت التعذيب.

ما الكلّ الموحَّد الذي أنتَ جزءٌ منه؟

ما هو الحبّ الذي يمنحك القوة؟

البلد؟ القضيّة؟ الرفاق؟

إنها الجهة المقابلة لسؤال «ماذا عني أنا؟». هذا ما يجعلنا نسمو فوق حدودنا الشخصيّة ونتجاوزها.

اجعل الناس من حولك عظماء

سَمِع معظم الناس بمارتن لوثر كينغ جونيور. لكن قلّة هم الذين سمعوا برالف أبِيرناثي الذي تخلّى عن موقعه كقسّ بناءً على طلب كينغ ليكون الرقم الثاني من بعده. كما لم يسمع الكثيرون عن ستانلي ليفينسون الذي موّل العديد من جهود كينغ وكتب له خطاباتٍ، والذي قطع علاقاته بكينغ بصمتٍ ومن دون أنانيّة حين اتّهَمَه مكتب التحقيقات الفدراليّ بأنه جاسوس شيوعيّ، وذلك لئلا يُلحِق الأذى بحركة كينغ.

حين سمع أنّ الرئيس يهدّد كينغ بسبب علاقته بليفينسون ، قال: «لن أدَع مارتن يقوم بهذا الخيار». كانت ضربةً مؤلمةً للغاية إلا أنه أبعَدَ نفسَه من دون أن يطرح أيّ أسئلةٍ، ومن دون أن يتذمّر، رافضًا حتى أن يترك صديقه يتعذّب.

نجد في الرياضة نوعين من اللاعبين. هناك أصحاب المواهب التي لا تعرف حاجز الأجيال، أولئك الذين يتميّزون جينيًا وجسديًّا، والقادرون على جعلنا نحبس أنفاسنا بسبب أدائهم. وهناك النوع الآخر، أي أولئك الأقلّ موهبة بقليل، والأقلّ إبهارًا، لكن اللعبة لا يمكن أن تقوم من دونهم.

هؤلاء هم أصحاب الدور الفاعل، الزملاء في الفريق، القادة الذين يجمعون الآخرين معًا ويمنحون الفريق «القلب» الذي يحتاج إليه كي يفوز. تحدّث جون وودن عن أنّ المسألة ليست عِظَم طولك بل العَظَمة التي تلعب فيها. ويبقى الأكثر إبهارًا هو الرياضيّ الذي يجعلُ الفريقَ كلّه أكبر وأعظم. عندما نفكّر في فريق شيكاغو بولز لكرة السلة، نفكّر في مايكل جوردن، وننسى بيل كارترايت، وهو قائد الفريق الذي شكّل حرفيًا ومجازيًا قلب الفريق ومحورَ في البطولات الثلاث الأولى المتتاليّة.

أبيرناثي وليفنسون جعلا كينغ أعظم. وجعلا حركته أقوى.

هل يمكن أن نقول الشيء نفسه عنك وعن الناس من حولك؟

لا تتخلَّ عن رفيقك، هذا هو أساس الشجاعة العسكريّة. لكن البطولة تذهب أبعد من ذلك. وجوهر العظَمة يتِجاوز الموهبة أو المهارة. وكما يقول جاكي

روبنسون: لا معنى للحياة إلا بتأثيرها في حياة الآخرين. الرياضيّ الذي يجعل فريقه أفضل؟ اللاعب الذي يجعل فريقَه أفضل خارج الملعب أيضًا؟ القائد أو الزعيم الذي يجعل المحيطين به يعطون أفضل ما عندهم؟ الفنّان الذي يُلهِم جمهوره؟ الجنديّ الذي يكون هدوؤه مُعديًا؟

هذا ما نتحدّث عنه.

صوّر لونغفيلو بطولة فلورنس نايتينجيل الحقيقيّة في قصيدة. لم يجسّد شجاعتها فقط أو الحرمان الذي تحمّلته من دون شكوى بل بما فعلته من أجل الناس.

المجدُ لأولئك الذين تُعينُنا كلماتُهم وأفعالُهم

على تلبيةِ حاجياتنا كلّ يوم

أولئك الذين يرفعوننا بعطائهم المتدفّق

فوق كلّ ما هو متدنٍّ.

لقد جَعَلَتِ الناسَ أعظم. جعلَتهم أفضل.

وقف الإسبرطيون عند الترموبيل، أي البوابات الحارة، في موقف وحدةٍ وإيثار فجعلوا اليونان أكبر وأعظم: أراقوا دماءهم ليثبّتوا وحدة المدن اليونانيّة. ويتوجّب حتى على منتقدي ديغول أن يعترفوا بما فعله الرجل: لقد أراد لفرنسا أن تنتفض وتنتصب بعد أن بلغت الحضيض.

تحدّثنا عن أنّ الهدوء معدٍ. ما نفعله في الواقع هو أننا نأخذ ما هو فائض -التعاطف في حالة نايتينجيل، والشجاعة في حالة أبيرناثي والفطنة في الأعمال في حالة ليفنسون- وننشره من حولنا من أجل الناس الذي يحتاجونه.

ويمكن تحقيق ذلك بتقديم المثال أو القدوة. يمكننا أن نقدّم الكلام الملهم كما فعل تشرشل. يمكننا أن نوجّه ونرشد. أن نتحدّث إلى شخص ما ونعيده عن حافة الهاوية. يمكننا أن نزرع الأمل، ونُطَمئن، ونخفّف العبء، ونساند وندعم. يمكنك أن تقرّر القيام بالأعمال الصعبة وغير السارة التي لا يبدي الآخرون استعدادًا للقيام بها لأنّ الفريق يحتاج إلى إنجازها. يمكنك أن تكون الشخص الذي يقول الحقائق التي ينبغي قولُها: للسلطةِ، للعالم، لأحد الأصدقاء.

...

تذكّر: قطرة واحدة تجعل الإناء يفيض. لعبة واحدة تثير ردّ فعلٍ وتحقّق العودة. كلمة واحدة من شخص واحد يمكن أن توقف الانسحاب... أو أن تتسبب به... يمكن أن تهدّئ الحشود الهائجة أو أن تطلق لها العنان.

يمكن لأيّ إنسان أن يكون هذا الشخص. يمكنك أن تقوم بهذا العمل، أن تلعب تلك اللعبة، أن تكون تلك القطرة.

لا حاجة لأن نشير مجدّداً إلى جذر كلمة تشجيع والكلمات الأخرى المشتقّة منه.

تحدّث لونغفيلو عن ترك آثار خطى على رمال الزمن. لكن ما الغاية من ذلك؟ الهدف هو الأثر الذي نتركه وليس الخطى في حدّ ذاتها.

خطى، ربما يراها بحّار آخر، أخ آخر

مهجور، متحطّم السفينة على شاطئ الحياة الكئيب

يراها فتُشعل في قلبه من جديد

شعلةَ أملٍ جديد

هذا ما يفعله الأبطال. يتركون أثرًا. يشكّلون فارقًا اليوم وإلى الأبد.

ولا يهتمّون ما إذا تمّت مكافأتهم على ذلك أم لا، فالنجاح ليس الدافع وراء أعمالهم. يقول سينيكا «هنيئًا للرجل الذي يستطيع أن يجعل الآخرين أفضل، ليس فقط حين يكون برفقتهم بل حتى عندما يكون في فكرهم». يستحقّ الأمر العناء حتى وإن أدّى إلى مقتَلِنا، حتى وإن لم نبقَ لنستمتع بقطاف ثمار تضحياتنا لأننا تعرّضنا للطرد أو القتل أو حتى لما هو أسوأ. تعيش ذكرانا في أذهان الشهود.

هذا ما جئنا من أجله في أيّ حال. ليس من واجبنا فقط أن نُظهر أفضل ما فينا بل أن نساعد الآخرين على إدراك أفضل ما فيهم، حتى لو جاء هذا الجهد، كما الحال أحيانًا، على حسابنا نحن.

لا وقتَ للتردّد

لدى انفجار بركان جبل فيزوف، فرّ من كان قادرًا على الركض، ولم يرَ من كان بعيدًا سوى أعمدة الدخان والرماد.

أثار ذلك فضول الأميرال والعالِم الهاوي بلينيوس الأكبر، بحيث عقد العزم على إجراء تحقيقٍ في الأمر، إلى أن وصل مبعوث حاملًا معه أخبارًا عاجلة من صديق له عالق عند سفح الجبل. فاستدعى بلينيوس الأسطول وشدّ الرحال متوجّهًا إلى مكان الحدث ومتحلّيًا بالجسارة اللازمة لإنقاذ من يمكن إنقاذه بالقوارب.

لدى وصوله، لم يتمكن من الوصول إلى الشاطئ بسبب الحطام المتراكم. فنصحه قائد الدفة بأن يعود أدراجه.

تحدثنا في مرحلةٍ سابقة عن أن «القدر حليفُ الشجعان». هل تعرف من ابتكر هذا المثل الشائع؟ إنه بلينيوس الذي أبى أن يعود أدراجه، قائلًا «القدر يفضّل الشجعان» وأمر رجاله قائلًا: «فلنذهب لإنقاذ بومبونيانوس»، صديقه العالق عند سفح الجبل.

ثوانٍ قليلة من الشجاعة، ثوانٍ خالية من أي تردد، ارتأى خلالها أن يضع واجبه تجاه الآخرين فوق سلامته الشخصية.

وبحسب ما جاء على لسان ابن شقيقه: «بدأ بلينيوس رحلته بدافع الفضول وانتهى بتتويجه بطلًا». والمؤسف في الرواية هو أن بلينيوس لم يتمكّن من النجاة، فعلى الرغم من أن القدر يفضّل الشجعان، إلا أنه لا يقدّم أيّ ضمانات.

والحقيقة الوحيدة المؤكدة هي أن التردد في أوقات الأزمات، سيمنعنا من تحقيق الإنجازات أو إنقاذ حياة أي أحد.

عام 2008، كان العريفان جوناثان يال وجوردن هيرتر، يؤدّيان خدمتهما في مركزٍ للحراسة في مدينة الرمادي عند ارتطام شاحنةٍ ملغومة بالقاعدة الصغيرة التي يقومان بحراستها وانفجارها. كان المخرج إلى برّ الأمان على بعد أمتار قليلة، ولم يتردد رجال الشرطة المحلية في استخدامه لدى رؤيتهم الشاحنة مقبلة نحو القاعدة. أما عنصرا المارينز اللذان التقوا بهما للحظات قليلة خلت، فتقدما معًا إلى الأمام وبدآ بإطلاق النار. فانفجر ألفا رطلٍ من المتفجّرات أثناء تفريغهما الرصاص في الشاحنة المسرعة.

ستّ ثوان انقضت بين دخول الشاحنة الزقاق وانفجارها المميت.

بلَغَ عرضُ الحفرة حيث لقي الرجلان البالغان من العمر عشرين سنةً واثنتين وعشرين سنة فقط حتفَهما، أكثر من ثمانية عشر متراً وبلغ عمقها متراً ونصف المتر. كتب الجنرال جون كيلي، الذي أجرى مقابلات مع شهود عيان، عبارات مؤثرة عن التضحية التي قدمها البطلان دون تردّدٍ أو اعتبار، فقال: «كان بإمكانهما الفرار للنجاة من الموت ولكنهما لم يفعلا. ولا أعتقد أن أحداً كان سينعتهما بالجبن لو فرّا. اختارا أن يأخذا المهام والواجبات الملقاة على عاتق عناصر المارينز على محمل الجدّ، فأبيا مغادرة موقعهما حتى لا يتمكّن بشرٌ أو حجرٌ من المرور. خسرا حياتهما بسبب تفانيهما، وإصرارهما على أن تنكسر قلوب أفراد أسرتيهما بدلًا من أن تحزن أكثر من خمسين أسرة. ولن تنسى تلك الأسر أبدًا أن الموت كان على مسافة قريبة جدًا منها في تلك الليلة».

بضع ثوان من الشجاعة، هذا كل ما يحتاج إليه الأمر. قد يكون ذلك كلّ ما تملكه.

نعم، سأتبرّع بالنقود التي يحتاجون إليها، على الرغم من أنني غير قادرٍ على تحمّل تلك الأعباء. نعم، سـأتحمّل كامل المسؤولية، على الرغم من أنّ ذلك قد يؤدّي إلى دخولي السجن. نعم، سأتخلّى عن وظيفتي لأعتني بوالدتي المريضة، على الرغم من أنني لا أعرف كم من الوقت قد يستمر ذلك أو ماذا ينتظرني في الجانب الآخر.

لو كان لديك الوقت الكافي، لأعدت التفكير في الأمر، ولتوصّلت إلى مبرر منطقي، حيث يمكن أن تتغلب الرغبة في الحفاظ على النفس. وستشعر عندها بالخوف ولن تأتي بأي حركة.

ماذا سيحل عندها بأصدقائك؟ ورفاقك؟ وقضيّتك؟

لا، عليك أن تمضي قدمًا، وتضغط على زر الإرسال. عليك أن تدفع بالطفل لتبعده عن الطريق، وتتقدّم نحو الأمام. عليك أن تتحدث بصوت عالٍ بحيث لا يوجد وقت كافٍ لتتنحنح أولًا.

لا يمكنك التفكير في الأمر ودراسة كافة السيناريوهات. كما لا يمكنك أن تطلب المشورة، لأن الناس يعتمدون عليك، وهذا ما تدربت من أجله. فالموقف والمثل العليا التي تدافع عنها تتطلب منك ذلك.

ثِق بحدسك وافعل ما يُمليه عليه واجبُك.

من الممكن أن ينجح ذلك أو لا.

والبطل يفعل ذلك في أي حال.

ونقلًا عمّا قاله كيلي عن عنصرَي المارينز، استغرقت العملية التي وقعت في الزقاق ستّ ثوانٍ، منها ثانية واحدة لإدراك ما يجري، وثانيتان لشهر الأسلحة وإطلاق النار، وثانيتان أخريان لتأتي الرصاصات بثمارها وتوقف تقدّم الشاحنة، بحيث بقيت ثانيةٌ واحدةٌ للتكفير في النجاة، أي أقلّ من الوقت الذي استغرقته لقراءة هذه الجملة.

ستّ ثوانٍ.

وعلّق كيلي في وقتٍ لاحقٍ قائلًا: «لم يكن الوقت كافيًا للتفكير في عائلتيهما، وبلدهما، ورايتهما، أو في حياتهما وموتهما. ولكن الوقت كان أكثر من كافٍ بالنسبة لهذين الشابين الشجاعين ليقوما بواجبهما...وصولًا إلى الأبدية. هما وأمثالهما يسهرون على أمانكم في مختلف أرجاء العالم هذا المساء».

لا تخذلوهم.

نحن نصنع حظّنا

يتحدّث علماء الاجتماع والمؤرّخون عن شيءٍ يُعرف بـ«الحظّ الأخلاقي».

لا يجد الجميع أنفسهم في موقعٍ يسمح لهم بالكشف عن سرّ للدولة قد يغيّر العالم. ولا يحدث للجميع أن يجدوا أنفسهم في اللحظة والمكان المحدّدين اللذين يسقط فيهما شخصٌ لا يجيد السباحة في الماء. ولا يجد كل من كانت لديه دعوة للعمل في التمريض أن الحقل بدائي جدًا بحيث إن مجرّد القليل من المعرفة قد يكون وقعه ثوريًا.

لسنا جميعنا «محظوظين» بالقدر الكافي لنكون في سنّ الخدمة العسكرية عند اختيار ليونيداس رجاله الثلاثمئة، أو نكون كاتب سيناريو استُدعيَ لتقديم شهادته ضدّ زملائه في هوليوود، أو ناشطة نسائية أثناء حركة المطالِبات بحق اقتراع المرأة. إذا كان هذا ما تريد تسميته بالحظّ...

أشار تشرشل بشيءٍ من الحزن، أثناء كتابته عن رجل الدولة إيرل روزبيري، إلى أن الرجل عاش في «عصر الرجال العظام والأحداث الصغيرة». والحقيقة أن نوعاً من الهدوء المملّ قد ساد العهد الفيكتوري (عاش روزبيري من 1847 إلى 1929)، غير أنه من الواضح أيضاً مدى جاذبية هذا النوع من التبرير المنطقي.

وقعت أحداث كبرى في منتصف القرن التاسع عشر، وأطلقَت المظالم الهائلة التي حصلت نداءات الاستغاثة.

فأين كان هؤلاء الرجال «العظام»؟

لم تلغِ الولايات المتحدة العبودية حتى العام 1865، والبرازيل حتى العام 1888. وطوال مدة حياة روزبيري كانت ظروف العمل في مصانع إنجلترا شائنة ومريعة. واستمرّ النظام الاستعماري البريطاني وكافة تجاوزاته بدون اعتراضات تُذكر. ألقت القضية الإيرلندية بظلالها على السياسة البريطانية ورأى معظم القادة أنها قضية ميؤوس منها. خاضت بلدان عدّة الحروب في غياب أسباب وجيهة، ومن دون أيّ تفكير يُذكر بالناس الذين عانوا من جرّائها.

جاع الملايين. تعرّض الملايين للإساءة والتعسّف. وبقيت أشياء لا عدّ لها ولا حصر دون أن تُخترَع أو تُصلح أو تُنصر.

كان هناك الكثير «ممّا يمكن فعله» في تلك السنوات. ويصحّ ذلك أيضًا حتى في الأحداث الكبرى في زمن تشرشل. لمَ لم يتنبّه إلى «مجاعة البنغال» ويهتمّ لها؟ لمَ أساء فهم نداء غاندي الأخلاقي إلى هذا الحدّ؟ كانت لتشرشل لحظاته العظيمة ولكنه لا يستطيع أن يتهرّب من اللوم الملقى عليه بسبب تلك اللحظات التي تأخّر فيها. ويبقى ذلك صحيحًا اليوم. مهما كنت، وأينما سكنت، ومهما كانت الأحداث الجارية، يمكنك دائماً القيام بالمزيد.

البطل هو شخصٌ يفعل ما ينبغي فعله، ليس فقط من أجله هو ولكن أيضًا من أجل الآخرين. أي أن البطل يصنع حظّه الخاص. لا تحدث الأشياء للأبطال بمحض الصدفة. قال شكسبير إننا نقابل الوقت في سعيه إلينا. ولكن علينا أيضًا أن نبحث عن الوقت وعن اللحظات.

لا يمكننا أن نكون سلبيين غير فاعلين. لا يمكننا الانتظار. ينبغي علينا أن نتواصل مع الآخرين.

وكما كتب ماركوس أوريليوس، فإن «حُسْن الحظّ الحقيقي هو ما تصنعه لنفسك. حُسن الحظ هو خُلقٌ حَسَن، ونوايا حسنة، وأفعال حسنة».

ليست أيدينا مقيّدة أبدًا كما نظنّ. هناك دائمًا شيء يمكن للبطل أن يفعله، هناك دائمًا شخص يمكن للبطل أن يساعده.

قد لا نوضع طبعًا في مكان ديغول أو صوفيا فارّار أو فردريك دوجلاس. قد لا تكون لحظتنا ملحمية إلى هذا الحد، والمخاطر التي نتعرّض لها كبيرةً إلى هذا الحد. هذا على الأرجح أمر جيّد. لكنّه لا يعفينا من المسؤولية.

ينبغي علينا أن نصنع حظّنا الخاص، كبيرًا كان أم صغيرًا. لمجرّد أننا لا نسمع صوتًا كالذي سمعته نايتينجيل لا يعني أننا لسنا مدعوّين للقيام بشيء، محليًا أو عالميًا.

هل نلعن العتمة أو نضيء شمعة؟ نتحسّر على البحار الساكنة أو نبني محرّكًا؟

نحن نريد فتصبح غايتنا في حيّز الوجود. نحن نختار أن نصبح أبطالاً.

وإن لم نصبح أبطالاً، فالمسؤولية مسؤوليتنا.

ألهِم الآخرين الشجاعةَ المطلَقة

كانت هذه، حتى لرجلٍ مشهورٍ بمغامراته، ربما أكبرها.

في 30 أغسطس 1945، هبط الجنرال دوجلاس ماكآرثر في اليابان. قبل عقدٍ من الزمن على ضربته الجريئة في كوريا، لم يكن الوضع في اليابان أقلّ خطورة. ولم يكن قد مضى الكثير على توقّف القتال بين الحلفاء وقوى المحور. خلال ستّ سنوات من الحرب العالمية، لم تطأ أحذية العدو قطّ أرض اليابان.

وقد حذّرت كل التقارير الاستخباراتية من الخطر في كلّ مكان. وأوصى جميع المستشارين بأن ينتظر.

ومع ذلك، تقدّم ماكآرثر إلى عمق أرض العدوّ، أعزل. عندما شاهد أفراد فريقه يضعون مسدّساتهم في أجربتها قبل مغادرة مقرّ القيادة من أجل أخذ الطائرة إلى طوكيو، أصدر الأمر. فقال «انزعوا مسدّساتكم. إذا قصدوا قتلنا، فستكون الأسلحة الشخصية بلا جدوى. لا شيء قد يبهرهم أكثر من إظهار شجاعة مطلقة. وإن لم يعرفوا أنهم هُزِموا، فهذا سيُقنعهم».

إذا كان هناك مَن يتساءل كيف حقّقت اليابان بهذه السرعة الانتقال غير المسبوق من داعية حربٍ انتحاريةٍ إلى أمّةٍ مسالمة ومنفتحة، وحليفةٍ لا تتزعزع للبلد الذي قصم ظهرها، فذلك اليوم هو الجواب. هبط ماكآرثر ولم يبدِ ولو لمحة من الخوف أو الشكّ. كانت كل بادرة صغيرة قام بها مقصودة ومدروسة. أكل من غير أن يتحقّق ليرى ما إذا كان طعامه مسمومًا، ورفع الأحكام العرفية. جاء بسلام. كان واثقًا تمامًا.

لم يكن الأمر مشابهًا تمامًا لمواجهة نار المدفعية، لكنه تطلّب على الأرجح قدراً أكبر حتى من الانضباط والالتزام. سمّاه تشرشل العمل الأشجع على الإطلاق في الحرب العالمية الثانية. لم يفكّر ماكآرثر ولو مرّة واحدة في

سلامته الشخصية ولكن فقط في إرساء الأسس من أجل السلام وإعادة البناء.

كم من حياةٍ أنقذها هذا التصرّف؟ كم من حرب عصاباتٍ ردع؟ ما حجم أعمال المقاومة التي سمح بتجنّبها؟ في كلّ جزيرةٍ من جزر المحيط الهادئ دارت حربٌ مريرة وقاتلة، ولكن طوكيو نفسها أُخِذت بدون طلقةٍ واحدة. قالت لهم طريقة دخول ماكآرثر إن كل شيء انتهى... وصدّقوه. لما استطاع قائدٌ يتملّكه التوتّر والتخوّف من النجاح في ذلك، ولا قائد غاضب أو توّاق إلى الانتقام.

هل كانت هناك لحظة شعر فيها ماكآرثر بالرعب؟ بينما دارت الطائرة فوق المطار مثلاً؟ بينما أطلّ برأسه من الطائرة للمرة الأولى، أو عندما أخذ القضمة الأولى من عشائه في فندق يعمل فيه أشخاص كانوا ليقتلونه قبل بضعة أيام فقط؟ هل تمنّى في تلك اللحظة لو أن في استطاعته العودة إلى مقرّ القيادة؟ بالتأكيد، ولكن من أجل رجاله، من أجل قضية السلام في العالم، كان عليه أن ينحّي كل ذلك جانبًا. كان عليه إظهار شجاعةٍ تامّةٍ وكاملة. كان عليه أن يقفز إلى الأمام برباطة جأش.

كل القادة العظام يفهمون هذا. فديغول أيضًا مارس ما أسماه بـ«حمّام الحشود»، أي الغوص بين حشودٍ من المواطنين الفرنسيين المتحمّسين، والانغمار في حيويّتهم وحبّهم المتبادلين. وتمامًا مثلما حذّر مساعدو ماكآرثر من هذه الظهورات العلنية، شعر فريق عمل ديغول بالقلق الشديد حيال سلامة قائدهم، ولكن بسبب شدّة خطورة ذلك بالتحديد، علم أن عليه القيام به..

إن قرار السير في الشانزليزيه بعد التحرير، بالرغم من تربّص القنّاصين ومع أن الاشتباكات المسلحة كانت لا تزال مستعرة، ساعد فرنسا الحرّة. وقد ساهم هذا القرار -الذي كان من الممكن أن يكلّفه حياته- في إقامة علاقةٍ متينةٍ مع الشعب الفرنسي اعتمد عليها طوال حياته السياسية. منح ذلك الفرنسيين شجاعةً لا تزال تقوّيهم إلى الآن.

لا يمكن للقائد أن يجلس في برج عاجي أو وراء جدران سميكة محصّنة. ولا يمكنه حماية نفسه من كل خطرٍ وتهديد بينما يترك مناصريه أو موظّفيه أو جنوده يتحمّلون وطأة كل ما يواجهنا به العالم.

لا. يجب على القائد أن ينخرط انخراطًا مباشرًا وحقيقيًا في مجريات الأمور. وسواء عنى ذلك أن يضع ماله الخاص في المؤسّسة عندما تكون الأمور قد وصلت إلى الحضيض أو يركب سيّارة مكشوفة، أن يبقي باب مكتبه مفتوحًا أو

يفصح بهشاشة عمّا كان ليخبّئه الآخرون، فإن الروابط التي تبنيها مثل هذه المبادرات تمنح أمانًا أكثر بكثير مما يمكن أن يضمنه تفادي المخاطر. يتقدّم الزعيم إلى الميكروفونات ويجيب عن كلّ سؤالٍ عدائي من الجمهور، حتى تلك المحرجة منها بشأن الأخطاء التي ارتكبها، متحمّلاً أيضًا مسؤولية الأمور التي لم تكن تقع على عاتقه. لا يمكن للقائد أن يبقى في الخلف، فالقائد يقود الجنود في المعركة. لا يكتفي الأهل بالقول لأولادهم إن عليهم مواجهة مخاوفهم، بل عليهم أن يبيّنوا لهم في حياتهم اليومية ما الذي تعنيه مواجهة المخاوف.

ينبغي عليك أن تهتمّ بالأشخاص الذين هم في رعايتك. عليك أن تضعهم في المقام الأول. عليك أن تريهم من خلال أفعالك. ادفعهم نحو ما هو أسمى.

كانت اللحظة التي ذهب فيها مارتن لوثر كينغ إلى السجن هي اللحظة التي رأى فيها أتباعه أنه أكثر من مجرّد واعظ. كان معهم. خاطر بحياته من أجلهم. كان واحدًا منهم.

لا يمكننا أن نخاف وإلّا فلن نتمكّن من فعل ما ينبغي فعله. ولكنّنا أيضًا، من خلال هذه الشجاعة المطلقة، من خلال استعدادنا لتمثيل القضية، بشخصنا، في مواجهة كل المخاطر، نُظهر للآخرين جميعًا أنهم سيكونون بخير أيضًا.

يخاطر القائد بنفسه من أجلنا. يتقدّم إلى الجبهة. ويجعل شجاعته معدية.

ما الثمن الذي أنت مستعدّ لدفعه؟

يقول برتراند راسيل ما معناه «أن تُنعت بالأحمر أو الشيوعيّ خيرٌ من أن تصبح في عداد الأموات». لا يُفترض بنا أن نحكم على شجاعة رجلٍ آخر لكننا نستطيع التأكيد أنّ هذه المقولة التي لم ينطق بها من برجٍ عاجيّ محصّن وحسب، بل لعلّ زير النساء راسيل قالها من سرير زوجة رجلٍ آخر، هي قمّة الجبن.

يبدو أنّ الحياة في نظر راسيل أهمّ من الكرامة. فما من مبدأ أهمّ من الحفاظ على الذات وعلى الحياة، حتى إذا خسر المرء حرّيّته. وهو يفضّل أن يفسح الطريق للتوتاليتارية السوفياتيّة على أن يموت.

وبالعودة إلى أبيقور، تساءل بعض الفلاسفة عن السبب الذي يجعل شخصاً ما يتخلّى عن حياته من أجل شخصٍ آخر. طرحوا الأسئلة بشأن المخاطرة من أجل قضيّة فكيف بالموت من أجلها. وسألوا ما العيب في أن يكون الإنسان متملّقاً إن كان ذلك سيسمح له بأن يحافظ على أنفاسه وحياته؟ ما الفائدة من المبادئ إن كانت ستكلّفنا حياتنا؟

ثمة منطقٌ في هذا الكلام إلا أنّه منطقٌ مثيرٌ للشفقة.

يُقرّ الفيلسوف (الأكثر شجاعةً) جون ستيوارت ميل بأنّ الحرب شيءٌ بشع -ويمكن للطموح أن يكون بشعاً أيضاً- إلا أنّه قال «إنّ انحطاط وانحلال الحالة الأخلاقيّة والشعور الوطني بحيث لا يعود شيءٌ يبرّر شنّ حربٍ من أجله، لَهوَ أسوأ بكثير». عليك أن تهتمّ بما يكفي كيف ترسم خطاً في مكان ما، والفشل في ذلك أقبح بالتأكيد من معظم تجاوزات التاريخ.

والخبر الجيّد هو أننا ندرك في أعماقنا أنّ ثمة أموراً أسوأ بكثير من الموت. ولهذا السبب، إننا نكنّ الإعجاب للأبطال الذين حاربوا وتحدّوا وراهنوا وضحّوا من أجل ما يؤمنون به، سواء أكانوا مشهورين أم لا.

لقي كاتو حتفه بسبب مقاومته ليوليوس قيصر. وسقط كل من ثراسيا ولاحقاً سينيكا بسبب معارضتهما لنيرون. وفضّل الإسبرطيون أن يقاتلوا كرجال أحرار

على أن يعيشوا كعبيد أثرياء تحت حكم خشايار أو أحشويروش. أليس هذا ما نراه في عَظَمة سقراط؟ كان بإمكانه أن يُفلِتَ من العقاب، أن يجد السبيل للخروج من السجن إلا أنه لم يفعل. وماذا عن المسيح؟

دعونا نتوقّف قليلاً لنستذكر أبطالاً أقلّ شهرة: السود المجهولون الذين لم تُعرف أسماؤهم والذين تعرّضوا للضرب وخسروا وظائفهم وتمّت مطالبتهم بقروضهم لكنهم تسجّلوا رغم ذلك كي يصوّتوا في الانتخابات. الكثير من الأزواج الذين تحدّوا النازيّة أو نظام الفصل العنصريّ وتزوّجوا زواجاً مختلطاً. لوري جيلبرت كاي وهي أم تبلغ من العمر ستين عاماً، رمت بنفسها أمام الحاخام أثناء حادث إطلاق نار في العام 2019 لتحميه من الموت بجسدها وحياتها. ليوناردو روي هرمون، وهو طاهٍ أسود على متن سفينة تابعة للبحريّة، استعمل جسده ليحمي الجرحى الذين يتم إجلاؤهم في جوادالكانال، فمات من أجل بلدٍ كان يحرمه من حقّه في أن يصوّت ويعيش حرا. آن ديفورمانتيل، الفيلسوفة الفرنسيّة التي ماتت وهي تنقذ طفلين يغرقان أثناء إجازتها. ويلفرد أوين، الشاعر الذي ذكرناه سابقاً في هذا الكتاب، والذي عاد إلى الخدمة الفعليّة في الحرب العالميّة الأولى بعد أن تعرّض صديقه وزميله الشاعر سيغفريد ساسون لجروح بليغة. كان أوين معارضاً للحرب على غرار برتراند راسيل لكنه شعر أنّه على أحد ما أن يوثّق فظائع الحرب ومآسيها. وقد قُتل في إحدى المعارك قبل أسبوع من وقف إطلاق النار. مات في حرب عارضها لكنه أنجز واجباً شعر أنّ عليه أن يؤدّيه.

يقول سينيكا إنّ «علينا أن نقدِّر الجسد ونحبَّه ونوليه رعايةً كبيرة». وينطبق الأمر نفسه على مهنتنا ومكانتنا وسمعتنا والحياة التي بنيناها لأنفسنا. ويُكمل: «كما علينا أن نكون مستعدّين لأن نقدّمه لألسنة النار لتلتهمه عندما يتطلّب منّا المنطق واحترامنا لذاتنا والواجب تقديم مثل هذه التضحيّة».

ذكرنا من قبل أنّ الخوف يسأل «لكن ماذا لو...؟» وهو يجعلنا نقلق بشأن الثمن الذي سندفعه نحن بشكل خاص. لكن البطل لا يفكّر في هذا بل يتقبّل الثمن الذي يتطلّبه القيام بالأمر الصائب.

فكّر في الزعيم الذي تقدّم في السن وتقاعد ليُفسح في المجال أمام الجيل التالي (كما حاول أن يفعل الجنرال ماتيس في العام 2016 أو ما فعله لو جيرج ما إن شعر بأن مستواه في اللعبة يتراجع). فكّر في السياسيّ الذي لم يكترث للعواقب السياسيّة لقراره من أجل أن يمرّر القانون الذي يراه ضرورة لشعبه (قال ليندون جونسون وهو يوقّع قانون الحقوق المدنيّة: «أعتقد أننا سلّمنا الجنوب للتوّ للجمهوريين»). فكّر في الفنان الذي يُغضب الجمهور أو ربّ عمله

من أجل دعوته الإبداعيّة (في قمة مسيرته المهنيّة، تخلّى نورمان روكويل عن مصدرٍ يدّر له الكثير من المال، وهو رسومه على غلاف مجلة «ساتيرداي إيفنينج بوست» (Saturday Evening Post) بحثاً عن حريّة فنيّة أكبر... حريّة سرعان ما استخدمها ليرسم لوحاته الأكثر إيلاماً وتأثيراً عن العنصريّة في أميركا). يُقال إنّ اعتراض محمد علي على التجنيد كلّفه حوالى 10 ملايين دولار على صعيد المكاسب من مسيرته المهنيّة.

أثناء جائحة كوفيد-19، أبدت بعض الشركات استعداداً للتضحيّة في سبيل الصحة العامة فيما رفض البعض الآخر. قد يبدو الخيار الصحيح واضحاً لكنه لو كان كذلك لطبّقه الجميع.

تحدّثنا عن شجاعة بعض رجال الأعمال الكبار الذين اتّخذوا خياراتٍ صعبة، لكن لعلّ الخيار الأصعب بالنسبة إلى أيّ شركة هو قرار تقديم المصلحة العامّة على الأرباح. تطلّب قرار ريد هاستينغز التخليّ عن نشاطه التجاري في مجال أقراص الفيديو الرقميّة الكثيرَ من الشجاعة، لكنه كان ليظهر شجاعةً أكبر لو أنه رفض ما قيل عن طلب المملكة العربية السعودية بحذف البرنامج المثير للجدل الذي عرض على نتفلكس عن حادثة قتل الصحفي المعارض. وبدلا من ذلك، فكر هاستينغز في سعر أسمهمه وصرّح قائلاً: «نحن لا نحاول اتخاذ اي مواقف، نحن نحاول أن نرفه عن الناس».

ما الفائدة في أن تكون فاحش الثراء إن كنت لا تستطيع أن تستخدم ذلك لتتخذ موقفاً مباشراً وواضحاً ضد قتل الصحافيين؟

لكن للأعمال واجبات متعارضة تماماً كالأناس العاديين. ثمة أمور أكبر من المال في نهاية الأمر، ونحن كبشر لدينا واجبات أبعد من قاعة اجتماعات مجلس الإدارة، على غرار ما فعلت CVS عندما توقّفت عن بيع السجائر على الرغم من أن التبغ يحقّق لهذه السلسلة حوالى ملياري دولار أمريكي من الأرباح سنوياً. هذه الخطوة لا تضاهي رفض جوناس سولك لبراءة اختراع لقاح شلل الأطفال، إلا أنها مثيرة للإعجاب لأنها أحدثت فرقاً بالفعل. فالكثير من الزبائن لا يتسوّقون من أيّ مكان آخر، ما جعل العديد منهم يتوقّف عن التدخين. تراجع مبيع التبغ على مستوى القطاع كله -على الرغم من أنّ أحداً من كبار تجّار التجزئة لم يقم بخطوة مماثلة- لأنّ متجراً واحداً كان مستعداً لأن يضحّي بالمردود الماديّ من أجل ما يراه تصرّفاً صائباً.

هذا ما يفعله الأبطال: تلقّي الضربة بدلاً من شخص آخر أو شيء آخر. أما الجبناء فلا يفكّرون إلا في أنفسهم.

تُجبرنا الشجاعة على أن نسأل «إن لم يكن الآن، فمتى؟»، و«إن لم أكن أنا، فمن؟». إنها تدفعنا لأن نكون جسورين. وهي تسأل أيضاً: ماذا لو كان الكلّ أنانياً؟ كيف كانت الأمور لتبدو؟ إنها تشجّعنا على أن نخاطر بأنفسنا، أن نرسم درباً غير تقليديّ. لكننا لا نستطيع أن ننسى الناحية الأخرى من سؤال الحاخام هليل الأكبر المهم أيضاً وهو «إن كنت هنا من أجلي أنا فقط، فمن أنا؟»

نحن نقاوم العدميّة الزاحفة، ونأخذ الحظّ والقدر على عاتقنا، إنما لماذا؟ لا يمكن أن يكون السبب سعينا للبقاء وحسب. قالت الشاعرة مايا أنجيلو ذات مرة إنّ الشجاعة هي أن تدافع عن نفسك وعن الآخرين.

وهذا ما نفعله هنا. في الواقع، هذا هو سبب وجودنا هنا.

السببُ المهمّ

تغاضت عن اعتراضات والديها، وأحكام المجتمع، وقرّرت اختبار حياة البرية، مستجيبة للنداء؟ إننا ندرك أن هذا الأمر تطلّب شجاعةً هائلةً من فلورنس نايتينجيل، شأنها في ذلك شأن أيّ فتى أو فتاة من بلدةٍ صغيرةٍ يسعيان لتحقيق أحلامهما في المدينة الكبيرة.

تخيّل مثّلا الوكلاء والمعلنين وهم يحاولون إقناع مايكل جوردان بعدم التخلّي عن كرة السلّة لصالح البيسبول. عندما شرح جيف بيزوس لربّ عمله في وول ستريت فكرةَ إنشاء موقع أمازون، اصطحبه ربُّ عمله في نزهةٍ وقال له: «إنها فكرةٌ جيّدة لكنها تناسب شخصاً لا يملك وظيفة فعلية».

هل كان من الممكن أن نعبّر عن مدى إعجابنا بفلورنس إلى هذا الحد لو أن الغرض من تمرّدها كان عيشَ حياةٍ بوهيميةٍ في القرن التاسع عشر؟ أو لو تخلّى بات تيلمان عن كرة القدم ليصبح رأسمالياً مغامراً؟ لا ريب في أن الانحراف عن المسار التقليدي يتطلّب الكثير من الشجاعة، كما أن القيام بذلك لأسبابٍ خالية من الأنانية أمرٌ بطولي.

من جهتها، نجحت مايا مور في بلوغ القمة في مجالها، بحيث فازت ببطولة الدوري الأمريكي لكرة السلّة للمحترِفات أربع مرّات، واستحقّت لقب نجمة الدوري الأمريكي ستّ مرّات. تميّزت باستحواذها على لقب الهدّافة، والمدافعة، وجائزة أفضل لاعبة صاعدة في الرابطة الوطنية لكرة القدم إلى جانب جائزة جون وود.

إلا أنها قرّرت بعدها أن تأخذ استراحةً وتبتعد عن الأضواء. ولم تفعل ذلك رغبةً منها في كسب المزيد من المال من خلال التلفزيون أو للاستراحة من العمل المضني. ولكنها فعلت ذلك لتحرير رجل سُجن ظلماً، ونجحت وهما حالياً متزوّجان.

تحدّث دايفيد بروكس عن «الجبل الثاني» الذي نكرّس حياتنا لتسلّقه لأسبابٍ تتخطّى حبّ التحدّي الجيّد أو المكاسب المترتّبة عن تحدّي الصعاب التي من شأنها ردع أيّ شخصٍ آخر. فالجبال التي نتسلّقها بعد التغلّب على صعوبة الجبل الأول وإدراكنا بأن النجاح لا يكفي، لا تلبّي تطلّعاتنا.

عندما نفرّق ما بين الشجاعة والبطولة، فهذا ما نقصده جزئيّاً. فالأمر لا يتعلّق بالقضيّة ونبلها، بل بأن ثمة شيئاً مختلفاً تماماً في أن تكرّس نفسك لشيءٍ قد يتعارض مع مصلحتك الشخصية.

وكلما عظمت التضحية، كلّما كان المجد أعظم. حتى لو لم تكن الإنجازات مثيرة للاهتمام....

الأمّ التي تتناسى أحلامها لرعاية طفلها المريض...

... المهاجر الذي يرتدي المئزر يومياً على الرغم من حيازته إجازةً في الطب من بلدٍ آخر.

... الموظّف الذي يتخلّى عن وظيفةٍ براتبٍ عالٍ أو مرتفعة المستوى في ميدان صناعيٍّ يُعتقد حالياً بأنه يساهم في جعل العالم مكاناً أسوأ.

... الشخص الذي تتدهور سمعته أمام الناس لمجرّد أنه يحمي شخصاً آخر من دون الإعلان عن ذلك.

ترتّب عن القرار الذي اتّخذته مور التخلّي عن الملايين من الدولارات، وخسارة إمكانية الظهور على شاشات التلفزيون في السنوات الأولى من حياتها المهنية. فتكلفة القرار الصائب كانت باهظة، ومع ذلك لم تتردّد أبداً في اتخاذه.

أثار ذلك شكوك الجمهور الذي انهال عليها بالانتقادات. ولم تُجمع بالتأكيد الآراء على أن الرجل الذي كانت تسعى لإطلاق سراحه بريءٌ؛ فمن كان بريئاً لا يمكن أن تستغرق المعركة القانونية لإثبات براءته كل تلك السنوات. ولكنها قرّرت مواجهة ذلك التحدّي وهي تدرك أن الاتجاه التصاعدي غير مؤكّد، في حين أن السيناريو السلبي يضع مستقبل حياتها المهنية وحياتها برمّتها على المحكّ.

في أواخر حياته، علّق ديغول قائلاً: «قوّة الشخصية تعني قبل كل شيء القدرة على تجاهل الإهانات أو تخلّي ناسك عنك. على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد لخسارة كل شيء، لأن أنصاف المخاطر لا وجود لها».

هذا تعريفٌ جيّدٌ للبطولة أيضاً.

العودة إلى الوادي

عام 1939، وصل ديتريش بونهوفر، الذي كان يراقب من منبره صعود هيتلر والرعب يملأ قلبه، بسلامٍ إلى أميركا حيث أصبح بأمان. ولم يكد يمرّ وقتٌ قصير على وصوله إلى مرفأ نيويورك، حتى بدأ يشعر بالندم وصُوَر ما يجري في ألمانيا والناس الذين تركهم وراءه لا تفارق ذهنه، متسائلاً عما كان بإمكانه أن يفعله من أجلهم.

شعر وكأنه في إجازة فيما بلاده تحترق.

ولمّا قرّر في نهاية المطاف أن يعود أدراجه، قال موضّحاً: «توصّلت إلى استنتاجٍ بأنني أخطأت بمجيئي إلى أميركا. عليّ أن أواجه هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا الوطني إلى جانب الشعب الألماني. أعلم أنه لن يحقّ لي المشاركة في إعادة بناء الحياة المسيحية في ألمانيا بعد انتهاء الحرب إذا لم أشارك محن المرحلة الحالية مع شعبي...ولا ريب في أن المسيحيين في ألمانيا سيجدون أنفسهم أمام خيارٍ مريع، بحيث عليهم أن يقرّروا ما إذا كانوا على استعدادٍ لتقبُّل هزيمة بلادهم ليتسنّى للحضارة المسيحية البقاء أو انتصار بلادهم وبالتالي تشرذم الحضارة برمّتها. أعرف جيداً الخيار الذي يبدو مناسباً لي ولكنني لا أستطيع اتّخاذَ قرارٍ مماثل وأنا في برّ الأمان».

فيما كان هتلر منصرفاً إلى زجّ أوروبا في الحرب، اختار بونهوفر أن ينصرف طوعاً إلى شنّ حربه الخاصة ضد هتلر، على الرغم من أنه كان يدرك تماماً أن العودة إلى ألمانيا تعني الذهاب بملء إرادته إلى حبل المشنقة.

وتمّ في نهاية المطاف توقيفه، وسجنه وشنقه بتهمة التواطؤ ضد هتلر، إذ كاد ينجح في اغتيال أسوأ وحشٍ عرفه التاريخ. كُتب على النصب التذكاري الذي بُنِيَ تكريماً لبونهوفر ورفاقه ما يلي: «في المقاومة ضدّ الديكتاتورية والإرهاب، قدّموا أرواحهم من أجل الحرية، والعدالة والإنسانية».

يحتاج المهاجر واللاجئ على حدّ سواء إلى درجةٍ عاليةٍ من الشجاعة ليتمكّن من مغادرة دياره والسعي لتوفير حياةٍ أفضل لأسرته. ففي حين أن قَدَرَ بعض

الأشخاص هو عبور المحيطات والصحارى، قد يكون قدرُنا نحن أن نبقى، بالمعنى الحرفي أو المجازي.

بحثت والدة فرانك سيربيكو عن مراعٍ أكثر خضرة في الجانب الآخر من مياه الأطلسي القاسية، فيما حلم سيربيكو، الذي أُلقيَ القبضُ عليه بتهمة الفساد في قسم الشرطة في نيويورك في ظلّ الثقافة المسمومة هناك، مرّاتٍ عديدةً بالانسحاب. إلا أنه اختار البقاء والنضال...حتى بعد أن اطلقوا النار في وجهه لإدلائه بشهادته. قال في إحدى المرّات: «ما الداعي للانسحاب؟ لست أنا من ارتكب الأخطاء».

بقي أليكس نافالني في روسيا على الرغم من المخاطر السياسية والشخصية الشديدة التي كانت تهدّد حياته. وكان بإمكان شو شيونغ أن يجد سبيلاً لمغادرة الصين ولكنه لم يفعل. من البديهي أن يجدَ الغرباء ذلك مثيراً للحيرة، لا سيما أنه يتمّ توقيف المعارضين، ويتعرّض بعضهم للاغتيال، كما هي الحال مع نافالني، الذي نجا من الموت وعاد بعد تعافيه لوداع زوجته، التي كانت تمسح دموعه، فواجه مهزلة قضائية رغم كفاحه المستمرّ من أجل إحياء روح بلاده.

لمَ اختار هؤلاء عدمَ الرحيل؟

إن الجواب عن هذا السؤال، كما هي الحال في كثير من الأحيان مع الأشخاص المنادين بالإصلاح، هو إيمانهم بأن بقاءهم سيكون أكثر فائدةً من رحيلهم، وبأن العودة أفضل من العيش في المنفى. كانوا على استعدادٍ لتحمّل المخاطر، مدركين تمام الإدراك كيف ستستجيب القوى، وقادرين على التمسّك بمواقفهم بشجاعةٍ كافية، مهما كلّف الأمر. سُئل مرة المغنّي والناشط الاجتماعي بول روبسون عن سبب رفضه الفرار من أميركا العنصرية والانتقال إلى أوروبا الأكثر ترحيباً بأمثاله، فأجاب قائلاً: «لأن والدي كان عبداً، ولقِيَ شعبي حتفه وهو يبني هذه البلاد، لذا سأبقى هنا وأكون جزءاً منها [....] ولن أسمح لذوي العقول الفاشية بإخراجي منها. هل هذا واضح؟».

هذا هو السبب الذي يدفعنا للتوجّه إلى عملنا في كل يوم على الرغم من عدم شعورنا بالترحيب بنا، وعلى الرغم من أنّ حضورنا قد يشكّل خطراً علينا. لم نكن نحن من ارتكب الأخطاء، فلماذا يريدون إبعادنا؟ إذا أراد أيّ شخص آخر الرحيل، أو الاستقالة، أو وجد أن طريق المستقبل غير واضح المعالم، فاعلم بأنك لست مضطراً للموافقة. يمكنك البقاء، كما يمكنك العودة.

من الممكن أن يكون ذلك القرار الأكثر شجاعةً على الإطلاق.

عند التضحية بهذه الطريقة، على غرار ما فعل روبسون ونافالني، فلإننا نوجّه دعوةً للآخرين للسير على خطانا، سواء لجهة رفض التخلّي عن صديقٍ أصبح موضعَ جدلٍ بسبب أزماته الشخصية أو التمسّك بخط من التحقيقات نعلم جيداً بأنه سيأتي بثماره، حتى لو فقد الجميع إيمانهم. فليهرب من يرغب في الهروب، لكننا لن نسمح لذلك بإحباط عزيمتنا بهذه السهولة. لن نتخلّى عن حزبنا السياسي أو مسقط رأسنا، بل سنبقى ونصلح ما أُفسد، لأننا ندرك أننا نفعل الصواب.

عندما اتّخذت الشرطة إجراءاتٍ صارمةً خلال مقاطعة الحافلات، فرّ مارتن لوثر كينغ الابن إلى أتلانتا لينعم بالحرية والأمان. وناشده والده وآخرون أن يبقى هناك ويتولّى زمام الأمور عن بعد. قال لهم كينغ: «عليّ أن أعود إلى مونتغمري. وحده الجبان يبقى بعيداً. لن أسامح نفسي إذا بقيت هنا مختبئاً بينما إخوتي وأخواتي يُعتقلون في مونتغمري». كان ذلك الالتزام الذي قطعه على نفسه في حياته. إذ كان من الممكن، بعد أن أصبح رجلاً معروفاً، أن يبقى في الشمال ويقود حركة الحقوق المدنية حتى نهاية حياته. ولكنه اختار عوضاً عن ذلك، كما ردّد مراراً وتكراراً في خطاباته، بأن «يعود إلى الوادي». هذا ما أملته عليه مهمته...مسترشداً بإيمانه.

إننا مدعوّون في بعض الأحيان للرحيل. لكن القدر يتدخّل أحياناً ويرغمنا على البقاء، والعودة طوعياً إلى أنياب الوحش للنضال والمقاومة، من أجل أعمالنا، وقضيتنا، وحياتنا، وأسرتنا أو حتى جيراننا.

والأبطال يدفعون تكلفةً باهظةً مقابل ما يفعلونه بأيديهم.

الصمتُ عنف

أُلقيَ القبض على أحد المتآمرين ضد نيرون وتمّ استجوابه: لماذا فعلت ذلك؟

أجاب الجندي ردّاً على سؤال الإمبراطور الذي تعذّبه شياطينُه وأوهامُه: «تلك كانت الطريقة الوحيدة لمساعدتك».

ذلك هو السؤال الذي يُطرح على جميع المخبرين والجواسيس والناشطين من جميع الفئات. لماذا تفعلون ذلك؟ ألا ترون المشكلة التي تتسبّبون بها؟ لماذا تبالغون هكذا؟ لماذا لا تدعوننا نغسل غسيلنا الوسخ بأنفسنا؟

والجواب هو أنهم يحبّون كثيراً. يهتمّون كثيراً. إنهم يهتمّون بـ«ذلك الأمر» أكثر من اهتمامهم بأنفسهم. والسكوت أو عدم القيام بأيّ شيءٍ حيال ذلك يُلحق في الواقع ضرراً أكبر من أيّ مشكلة يمكن أن تنتج عن التشدّد في المواقف أو عن لفت انتباه الشعب إلى قضية غير سارة.

في لحظةٍ حرجةٍ من الحرب الكورية، تحدّث مساعدٌ شاب إلى وزير الخارجية دين أتشيسون. كان قلقاً لأن أوامر ماكآرثر، التي وضعتها هيئة الأركان المشتركة، غامضةٌ للغاية، وعدم وضوحها هذا كان ليمنح ماكآرثر فرصةً لتصعيد الحرب بلا مسوّغٍ شرعي. أجاب أتشيسون الكثير الانشغال والمرتبك قائلاً: «بالله عليك كم عمرك؟ هل أنت مستعد لمواجهة هيئة الأركان المشتركة؟».

لم يكن المساعد الثلاثيني مستعداً لذلك أبداً فلم يُكمل اعتراضه. كانت مسيرته المهنية أكثر أهمية.

بعد أيام قليلة، أرسل الصينيون، بفعل تحركات ماكآرثر العدوانية، قوات جرّارة إلى كوريا. وكادت الحرب العالمية الثالثة أن تندلع.

عندما نرفض التدخّل، أو المخاطرة بأنفسنا أو سمعتنا، علينا أن نفهم أن الأمر لا يتعلق فقط بوظائفنا أو حياتنا. منذ ألفي عام، وقبل فترة طويلة من

الاقتباس الشهير حول ضرورة أن يسود الشر، كان ماركوس أوريليوس يذكّر نفسه بأنه «يمكنك أن تكون ظالماً أنت أيضاً ما لم تحرّك ساكناً حيال الظلم».

هل تريد أن تفكّر في عالم لم تُحدِث فيه فلورنس نايتينجيل ثورة في عالم التمريض؟ لأنها لم تكن تريد أن تغضب والديها، أو لأنها لم تكن تريد مواجهة البيروقراطيين المسؤولين؟ عالم ظلّ فيه ديغول ضمن فريق بيتان؟ عالم لم يتّخذ فيه الإسبرطيّون موقفهم في ثيرموبيلاي لأنهم أبرموا صفقةً رائعة لأنفسهم؟

ربما لم نكن اليوم هنا لو أنّهم قرروا التفكير في أنفسهم أولاً، لو أنهم التزموا الصمت.

بالتأكيد ما كنّا هنا اليوم لولا التضحيات التراكمية للفنانين الذين تجاوزوا الرقابة، والعلماء الذين تحدّوا الكنيسة، والمخترعين الذين أعلنوا عن اختراعاتهم رغم التحذيرات، والمحتجّين الذين رفعوا الصوت واستمرّوا في تقدّمهم رغم الغوغاء والكلاب.

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من هؤلاء الرجال والنساء لم ينجوا في رحلتهم الشُجاعة هذه.

الحقيقة المؤسفة هي أنه في بعض الأحيان يكون الموقف الصحيح مهمةً انتحاريّةً، ليس بالضرورة انتحاراً جسدياً لكنه غالباً ما يكون معنوياً. أحياناً يجب أن ينكسر رمحنا على الدرع. أحياناً يجب أن نكون على استعداد للمتابعة حتى النهاية. يجب أن نكون مستعدين لخسارة الوظيفة أو الزبائن أو المكانة الاجتماعية وللانفصال عن أصدقائنا. يجب أن نكون مستعدين للتضحية.

هذا مخيف بالطبع، فنحن نواجه مخاوفنا وغريزة الحفاظ على الذات.

لكننا ننمّي الشجاعة في حياتنا لسبب ما. لا نفعل ذلك حتى نحقّق نجاحاً أكبر ولا حتى نتمكن من اختبار الأمور التي تقدمها الحياة، تلك المتاحة في الجانب الآخر من الخوف.

نحن ننمّي الشجاعة فينا حتى نتمكّن من القيام بعملٍ مهمّ يعتمد عليه الناس.

وعلى حدّ ما جاء على لسان مارتن لوثر كينغ جونيور: «يأتي وقت يكون فيه الصمت خيانة».

كان يعرف هذا شخصياً لأنه مدينٌ لكينيدي بالمكالمة التي أنقذته من السَّجن أو الإعدام خارج نطاق القانون، ولكن أيضاً لسارجنت شرايفر، صهر كينيدي، الذي رفع الصوت لأجل ذلك. كان عددٌ من رجال حملة كينيدي الانتخابية قد حذّروه من مغبّة التدخل. ونجحت تحذيراتهم في ردع كينيدي بالفعل. لكن شرايفر قرّر أن الأمر يستحق المخاطرة بكل شيء. وقد قال لكبير مستشاري حملة كينيدي: «أنا لا أستخدم علاقاتي العائلية أبداً ولا أطلب خدمة، لكنك مخطئ يا كيني. الأمر مهمّ للغاية. أريد موعداً معه على انفراد».

هناك، في غرفة فندق، وضع شرايفر مركزه وسمعته على المحكّ وتمكّن من تحريك بوصلة كينيدي الأخلاقية في الاتجاه الصحيح. ثابر حتى تجاوز العوائق، على الرغم من التحذير الذي تلقّاه، «إذا نجح الأمر، فلن يعترف أحد بفضلك؛ وإذا فشل الأمر فسيقع اللوم كله عليك». في الواقع، كانت تلك مكافأته: لقد تعرّض للتوبيخ في البداية لأنه أفشل حملة كينيدي... وبعد أن أثبتت نتائج الانتخابات أنه كان على حق تم نسيان دوره على الفور. في الحالتين كانت النتيجة سلبية بالنسبة له... ومع ذلك تحدّى ونجح.

إنه لعمل بطولي أن تراهن هذا الرهان الخاسر.

إذا لم نفعل الشيء الصحيح، فمن سيفعل؟ وإذا لم يفعله أحد، فكم من الناس سيعانون؟

لا يمكننا التزام الصمت. لا يمكننا أن نظل سلبيين.

علينا أن نكون مستعدين للمواجهة.

إنها الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها تقديم المساعدة.

جرأة الأمل

سنة 1961، وجّه رجلٌ إلى جون لويس لكمةً أفقَدَته وعيه لأنه كان يحاول الدخول إلى غرفة انتظار «للبيض فقط» في محطة حافلاتٍ في جنوب كاليفورنيا. كانت تلك واحدةً من ضرباتٍ عدّة تلقّاها طوال حملاته الشجاعة كأحد «ركاب الحرّية» وكناشطٍ في مجال الحقوق المدنية. وكان يمكن أن تكون الضربة التي تفطر قلبه وتحطّم روحه معنويا.

كان جون يتوقّع الحدّ الأدنى من التعامل الإنساني لكن أحدهم حاول قتله بسبب ذلك. في الواقع، ذهب عددٌ غير قليل من أصدقائه وعددٌ أكبر من الأطفال الأبرياء ضحية إصرارهم الجريء على حقوقهم التي مَنَحَهُم إيّاها الدستور.

كيف لا يؤثر ذلك في إنسان؟ كيف لا يتسبّب بإحباطه؟ ومع ذلك، بعد ثمانية وأربعين عاماً، أتيحت الفرصة للويس لمقابلة مهاجِمِه وجهاً لوجه، وهو رجلٌ يدعى إلوين ولسون، وكان هذا الأخير مستعداً للاعتذار.

والمثير للدهشة أن لويس كان على استعدادٍ لقبول اعتذاره.

يتخلّى معظمنا عن الإنسانية بعد الضربة الأولى أو الرابعة أو الخامسة عشرة. فكم مرة يمكن أن نتحمّل دخول السجن؟ (تمّ إلقاء القبض على جون لويس خمساً وأربعين مرة!). كم سنة من التقدّم المتعثّر يمكن أن نتحمّل؟ ألن يكون من الطبيعي أن نشعر بالغضب واليأس؟

الحبّ؟ التعاطف؟ التفاؤل؟ هل نثق مرة أخرى؟ كفى!

إن أكثرَ الأمور جنوناً وشجاعةً التي يمكنك القيام بها في هذا العالم اللعين هو الاستمرار في الأمل لأن الحياة تمنحك أسباباً عديدة لتفقده:

الألم.

الإخفاقات.

الأخيار الذين يُعاقَبون.

الاستعراض الدائم للجشع والأنانية والغباء والكراهية[30].

من السهل جداً أن تقول: «ما الهدف ممّا أفعله؟»

لكن الاستسلام يعني الخسارة.

لا يمكنك الانتصارُ بمعركةٍ انسحبتَ منها ولا إحداثُ تغييرٍ تخلَّيتَ عنه.

جون لويس رفض الاستسلام. بحضور إلوين ولسون في مكتبه، راح يكتب إهداءً على كتابٍ قدّمه للمعتدي السابق عليه. «إلى إلوين ولسون بإيمانٍ وأمل: أبقِ عينيكَ على الجائزة».

كان لهذا الإيمان سرّ. فعندما تؤمن بقضيةٍ ما، يَسهُل عليكَ الإيمانُ بالناس. ذلك يساعدك على تحمّل الألم وأوجه القصور فيك. في الحقيقة ما كان لأحدٍ أن يكتب عبارةً أكثر صدقاً وذكاءً، لا سيما أن الاسم الأوسط لولسون هو «أمل».

كتبت آن فرانك الشابة الحكمة التالية: «العمل والحب والشجاعة والأمل. تلك القيم تجعلني صالحة وتساعدني على التأقلم!». فإذا كانت تلك الفتاة لم تتخلَّ عن إنسانيّتها، حتى في ذلك الوقت، في تلك العلّية التي اختبأت بها من كتيبة العاصفة، فما هو عذرنا نحن؟

هو ليس أملاً محدّداً: سينتهي الأمر بحلول ديسمبر. الأوضاع ستتغيّر قريباً. كلّ هذا الألم سيختفي بطريقة سحرية. وهو ليس تخيّلات سخيفة أيضاً («احلم إذا كنت تستطيع لكن لا تدع أحلامك تسيطر عليك»). ينبغي أن يكون الأمل أكثر عمقاً ورسوخاً. إنه أمل شاكلتون بأنه سينجو رغم الصعاب ويعود لإنقاذ رجاله. أمل ديغول بأنه لن يعود وحيداً إذا ثابر حتى نهاية المطاف. هذا النوع من الأمل هو الذي يمكن أن يتحوّل إلى حقيقة مؤثرة.

حتى بعد الطلاق، حتى بعد التعرّض للسرقة، حتى بعد الفشل غير المتوقّع والإفلاس اللاحق، لا يمكننا الاستسلام. لا يمكننا التخلّي عن الناس، ولا عن

الإيمان بمستقبلٍ أفضل. أرفض أن أقبل أن العدالة عاجزة. أرفض أن أقبل بأن الإنسان لا يمكن إصلاحه. أرفض أن أكون عاجزاً عن جعل العالم مكاناً أفضل.

لن أتوقّف حتى أجد معنىً لهذه المعاناة.

عدم التحلّي بالأمل هو هروب. إنه العدمية، كما تحدّثنا عنها... سببٌ ظلاميّ لتبرير عدم الاهتمام أو المحاولة. لكنّ الأملَ... الأمل التزام. إنه أيضاً نور. الأمل جناح من ريش، كما قالت إميلي ديكنسون. يحمل روحنا. يرشدنا في العاصفة. يبقينا دافئين. كما أنه لا يطلب مناً شيئاً، تضيف ديكنسون.

لكن هذا ليس صحيحاً تماماً. الأمل يتطلّب شجاعةً وأكثر. نحمل النار معرّضين أنفسنا لخطر الاحتراق. لكننا نشعر بالسعادة رغم الخوف واليأس. نبقي قلوبنا مفتوحة، بعد أن كُسرت. نواصل السعي متجاهلين الاحتمالات الرهيبة.

الأمل يمدّنا بالقوّة وحين ننشره نكون قد أنجزنا عملاً بطولياً.

تذكّر أن القادة الحقيقيين يوزّعون الأمل. لا أحد يريد أن يعيش في عالمٍ بدون غد، وبدون سببٍ للاستمرار، وبدون نقطة في الأفق يسير المرء باتجاهها. إذا أردنا شيئاً علينا تحقيقه بأنفسنا، لهم ولنا، ببطولة.

مهما فعلنا، لا يمكننا الاستسلام للمرارة. علينا أن نرفض بدعة اليأس. لا يمكننا التخلّي عن أنفسنا أو عن الآخرين. علينا أن نروي لأنفسنا قصّةً، عن التاريخ، عن حياتنا، تؤكد على الفاعلية والتقدّم وفرصة الخلاص.

علينا أن نتحلّى بالأمل حتى لو لم يكن هنالك مبررٌ للأمل. تلك هي نواة العَظَمة.

ذلك هو المفتاح لغدٍ أفضل.

أحرِق الراية البيضاء

إن مقارنة القدرة على الاحتمال ورفض الاستسلام غير جائزة.

يُروى أنه بينما كان أبكتيتوس يتعرّض للتعذيب على يد معلّمه الذي كان يتوقّع منه أن يتوسّل إليه ليتوقّف، حذّره مراراً وتكراراً برباطة جأش بأن رجلَه تكاد تنكسر، إلى أن كُسرت بالفعل في نهاية المطاف. فقال له: «ألم أحذّرك من ذلك؟».

لا ريب في أن ذلك التفاني وتلك المثابرة سميا فوق القدرة البسيطة على التحمّل، إذ لم يكن أبكتيتوس ليسمح بتحطيم روحه، أو ليرضى بالاستسلام للمرارة واليأس، الأمر الذي ساعده على البقاء وتحمّل ثلاثين سنة من العبودية والمنفى.

لم يرفض كاتو الاستسلام لقيصر خلال نضاله للحفاظ على الجمهورية الرومانية فحسب، بل أصرّ أيضاً على ألا يطالب أحدٌ بالرحمة أو الرأفة نيابةً عنه، مشيراً إلى أن ذلك سيعني هزيمته وسحقه من قبل جيوش الطغيان، في حين أن الحال لم تكن كذلك.

هذه هي شيم الأبطال. فهم لا يحرقون السفن وراءهم فحسب، بل يحرقون الرايات البيض أيضاً.

في خطابها الشهير بعنوان «الحرية أو الموت»، والمستوحى من بطولات كاتو وما أظهره من بأس في المقاومة، تحدثت إميلين بنكيرست عن هذا النوع من التفاني.

ما دامت المرأة راضية بأن تُحكم بطريقة ظالمة، يمكنها البقاء كذلك، ولكن المرأة أعلنت جهارة: سأحجب موافقتي، ولن أسمح بأن يتحكم أحد بي ما دام هذا الحكم غير عادل. لا يمكن أن تستعين بقوات الحرب الأهلية لتتحكم حتى بأكثر النساء ضعفاً. ولا يمكن قتل تلك المرأة، لأنها ستتمكن من الإفلات ولن

تستطيع التحكم فيها. لا يمكن لأي قوّة على الأرض أن تسيطر على إرادة أيّ مخلوق، مهما بلغت درجة ضعفه، في حال حجب أو حجبت موافقتها على ما تفعله.

نحن ندرك بأننا لا نستطيع في المواقف التي تستدعي انسحاباً تكتيكياً، أن نستسلم أبداً.

يمكنهم إعلان هزيمتك.

يمكنهم تكبيلك بالسلاسل.

يمكنهم مصادرة ممتلكاتك.

يمكنهم إذلالك في الصحافة.

يمكنهم مهاجمتك في المحكمة.

يمكنهم استخدام نفوذ شركاتهم للضغط عليك.

يمكنهم نفيك إلى صخرةٍ في عرض المحيط..

يمكنهم أن يأخذوا منك الكثير، ولكنهم لن يتمكّنوا من إرغامك على الاستسلام ما دام في صدرك قلبٌ ينبض.

أحرق مثيرو الشغب الحافلة التي أقلّت على متنها ركّاب الحرية. أتعلم ما الذي فعله الركّاب؟ استقلوا الحافلة التالية، وتوجّهوا إلى المستشفى لمعالجة جروحهم ومن ثم تابعوا طريقهم، آبين التخلّي عمّا كانوا يناضلون من أجله.

قال غرانت لأحد المراسلين الصحافيين بينما كان ينقضّ على لي: «إذا قابلت الرئيس، قل له إنه لا مجال للتراجع». لم يكن واثقاً من الفوز، ولكنه كان يدّعي، تماماً مثل الإسباطين، بأنه سيعود حاملاً درعه معه. لا يستطيع أحد أن يعد صراحة بالنصر، ولكن غرانت تعهد بأن يضحي بكل شيء من أجل تحقيقه، بما في ذلك حياته.

كتب جايمس ستوكدال: «يقلّل الرواقيون من شأن الأذى الجسدي، ولكن ليس على سبيل التبجح. فهم يتحدثون عنه بالمقارنة مع المعاناة المدمّرة للإحساس

بالخزي الذي يمكن للرجال الطيّبين مواجهته إذا ما أدركوا في قرارة أنفسهم أنهم فشلوا في أداء واجبهم إزاء الناس أو أمام الله».

يستمدّ البطل قوته الحقيقية من الروح، حيث إن الأمر لا يتعلّق بمن لديه جيش أكثر عدداً، أو أسلحة أفضل، أو بصاحب القضية الأقوى أو الميزانية الأكبر. وحده من يأبى الاستسلام يكون الفائز، إن لم يكن الآن، فربما في وقت لاحق، وإن لم يكن في هذه الحياة، فربما في الحياة الأخرى.

فمن تخونه ساقاه، يمكنه أن يحارب على ركبتيه. ولا ينفكّ ينهض وينفض عنه الرماد حتى ولو كان ذلك مستحيلاً بالمعنى الحرفي.

لم يكن تشرشل واثقاً من قدرة بريطانيا على الصمود، تماماً مثل الجميع. جلّ ما كان واثقاً منه هو أنه لن يتردّد في مواجهة النازيين في حال قدومهم.

سألته زوجة ابنه: «ماذا علينا أن نفعل؟».

فأجابها قائلاً: «لا شيء يمنعك من إحضار سكين من المطبخ والتخلّص من بعض الأوغاد الذين قد يهاجموننا».

لا أحد يدّعي بأنهم لن يتمكنوا في نهاية المطاف من التغلّب عليك، ولكن الاستسلام هو مجرد خيار. والقرار بالتخلّي عن قضيّتك يعود إليك فحسب.

قاوم حتى.... بكل ما تبقّى لديك لتضحي به.

لفت هامينغواي انتباهنا إلى أن لا أحد يستطيع هزيمتنا حتى لو كانت الحياة قادرة على سحقنا، وكذلك الأعداء أو الحظ العاثر. هذه هي دعوتنا ومَكمن قوتنا. ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا في حال الاستسلام، لأن السبيل الوحيد المؤدي للخسارة يمرّ عبر التخلّي عن شجاعتنا.

الهزيمةُ خيارٌ، وهي خيارٌ لا يرضى به الأبطال.

لا أحد عصيّ على الانكسار

إننا نخال أن الشجاعة تعني عدم قابليّتنا للانكسار.

لا.

فهي تعني معاودة النهوض بعد الانكسار.

لأن أولادك يشاهدونك.

لأن القضية تحتاج إليك.

لأنك لن تسمح للشرّ بالانتصار.

إنها تعني أن تعاود جمع شتات نفسك حتى تستطيع فعل ما يلزم، لأجلك، ولأجل الآخرين.

ولكن يخشى البعض منّا فعل ذلك. لا نخشى مواصلة المسير، وإنما نخشى أن نكون ضعفاء لدرجة الاعتراف بأننا مجروحون، وأننا نحتاج إلى إصلاح حالنا، وأننا واجهنا انتكاسة.

كتب هامينغواي في أحد أجمل مقاطعه:

إن أظهر الأشخاص قدراً كبيراً من الشجاعة في هذا العالم، بحيث لا يعود كسرُهم ممكناً إلّا بقتلهم، فإن العالم سيقتلهم بالطبع. يكسر العالم الجميع وبعد ذلك يتحلى كثيرون بالقوّة في أماكن انكسارهم. ولكن أولئك الذين لن ينكسروا، يقتلهم العالم. إنه يقتل خيرة الأخيار وخيرة اللطفاء وخيرة الشجعان دون تمييز.

العالم مكانٌ قاسٍ ومؤلم. إنه مكانٌ لم يُهزم منذ ما لا يقلّ عن أربعة مليارات سنة ونصف المليار. من كل أنواع الحيواناتِ المفترسة إلى هرقل إلى هامينغواي نفسه، ما فتئ هذا العالم موطناً لكائناتٍ في منتهى القوّة والصلابة. وأين هي هذه الكائنات الآن؟ لقد رحلت. أمست تراباً. ورحل العديد منها قبل أوانه، من دون ضرورة.

لأنها خلطت بين القوّة والمرونة.

الرواقية -الشجاعة العميقة جداً- متوفّرةٌ لتساعدَك على التعافي حين يكسرك العالم، وخلال التعافي، تجعلك أقوى على مستوى أعمق بكثير. يشفي الرواقيون أنفسهم عبر التركيز على ما يسعهم التحكّم فيه: استجابتهم. الإصلاح. تعلّم الدروس. الاستعداد للمستقبل. إحداث فارق لدى الآخرين. طلب المساعدة. التغيّر. التضحية في سبيل الصالح العام.

هذه الفكرة ليست حكراً على الغرب. ثمة شكلٌ من أشكال الفنون اليابانية يسمى «كينتسوجي»، يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر. ويُعنى أرباب هذا الفن بتصليح الأطباق والأكواب والزبديات المكسورة، وإنما عوضاً عن مجرّد تصليحها بإعادتها إلى حالتها الأصلية، يقومون بتحسينها. لا يتمّ فقط لصق الأجزاء المكسورة ببعضها، بل تُلصق بواسطة ورنيش خاص ممزوجٍ بالذهب أو الفضة. تفيد الأسطورة بأن هذا الشكل الفني اختُرع إثر إرسال زبديةٍ شاي إلى الصين لتصليحها. ولكن بدت الزبدية المُعادة بشعة على حالتها السابقة نفسها، ومتصدعة أيضا. فتمّ حينها اختراع الكينتسوجي كطريقةٍ لتحويل علامات التصدّع إلى شيء جميل.

هذا هو السؤال الذي يطرحه العالم أحياناً. يعلم أننا شجعان، لذا يودّ أن يعرف: الموت أم الكينتسوجي؟

هل ستجد طريقةً لتمسيَ أقوى في أماكن انكسارك؟ أم أنك ستتعلّق بأساليبك القديمة فتتهالك؟

البطل يعاود النهوض. يُشفى. ينمو. لأجل نفسه ولأجل الآخرين.

يختم أودي مورفي كتاب مذكّراته بهذه الفكرة. دمّرت الحرب هذا الرجل. كان يدرك ذلك. فقد رأى أشياء ما وجب أن يراها. كحال العديد من المحاربين القدامى والناجين من الصدمات، عانى اضطراب ما بعد الصدمة (PTSD). ولكنه قرر أن هذا لن يحدّد هويته. كتب قائلاً: «فجأة، تواجهنا الحياة. أقسمت لنفسي أن أكون على قدر التحدّي. لعلّ الحرب وصمتني، ولكنها لن تهزمني»

يقول إنه سيذهب إلى دياره، لن يستسلم. لن يسمح لشياطينه بالفوز. سوف يجد فتاة أحلامه، وسوف يتزوّج ويؤسّس عائلة. سوف يجد مهنةً جديدةً وهدفاً جديداً. يقول لنفسه، كما يجدر بك أن تفعل «سوف أتعلّم النظر إلى الحياة عبر عينين غير ساخرتين، والتحلّي بالإيمان، وإيجاد الحبّ. سوف أتعلّم العمل وسط السلام كما وسط الحرب. وأخيراً، أخيراً ككثيرٍ غيري، سوف أتعلّم معاودة العيش».

الشجاعةُ فضيلةٌ
والفضيلةُ شجاعة

«الفضائل أشبه بالموسيقى. إنها تتذبذب على إيقاعٍ أعلى وأرقى».

ستيفن بريسفيلد

يفتتح جوته مسرحيّته «فاوست» بالقول: «في البدء، كانت الكلمة».

ثم يصحّح كلامه فيقول «لا، في البدء كان الفعل».

تمحور هذا الكتاب حول الشجاعة، وهو الكتاب الأوّل في سلسلةٍ تدور حول الفضائل الأساسية.

هنا في آخر هذا الكتاب، تجدر الإشارة إلى أن: الكلمات غير مهمة. الأفعال هي المهمة.

في الواقع، ليس ثمة ما يثبت ذلك أكثر من العلاقة بين الشجاعة والفضائل الثلاث الأخرى ألا وهي الاعتدال والعدالة والحكمة. هذه الأمور مستحيلة، وقد تكون عديمة الجدوى حتى، من دون شجاعة لترسيخها.

كتب سي إس لويس قائلاً: «ليست الشجاعة ببساطة إحدى الفضائل، وإنما هي شكل كل فضيلة عند نقطة الاختبار». جرّب العيش باعتدال. جرّب التحلّي بالصدق. جرّب السعي لتحصيل المعرفة. جرّب أيّاً من هذه الأمور في عالمٍ تخلّى عن الحكمة وضبط النفس والعدالة وسترى.

فَلْتَرَ إلى أين ستصل من دون شجاعة. ستجلب السخرية لنفسك. سيتمّ انتقادك. سيتم تقويضك. وسيُعرقل تقدّمُك. ستجد أن حسابك المصرفي

يقارب الصفر. هذا كله اختبار.

من دون شجاعة، لن تنجح. سينال منك الرعاع... أو ستصبح جزءاً منهم. سيكسرك الإجهاد... أو ستخرق التزاماتك بما يسبب الإجهاد.

الشجاعة هي السبيل الوحيد. إنها الركيزة للبقية.

ستحتاج إليها.

إذ إن التكلّم عن الفضيلة سهل. وقد انساب هذا الكلام بسهولة عبر هذه الصفحات، مسنوداً بقرون من الأعمال الشعرية والأدبية والذكريات. ولكن الهدف من تأليف هذا الكتاب، والساعات التي قضيتها في قراءته، لم يكونا لمجرّد التسلية.

في الواقع، نحن نحاول التحسّن. نحاول الاستجابة لندائنا الخاص، واتّخاذ ذاك الخيار الشاقّ بأنفسنا. اليوم. الغد. في كل لحظة.

ما نفع أيّ فضيلةٍ إن بقيت على الورق فقط؟ ما الجدوى منها إن لم تتحلَّ بالشجاعة لعيشها؟ للوقوف بمفردك معها؟ للإصرار عليها حتى مع وجود مغانم كثيرة على الضفة الأخرى؟

بالطبع، يوجد علاقة بين الدراسة والتمرين، ولكن في مرحلةٍ معيّنةٍ، ستحينُ لحظة الحقيقة. نتفكّر في الحقيقة ثم علينا أن نتصرّف وفقها. نمتصّها في نفوسنا. راق للقدماء هذا التعبير: «شخصية المرء قدره».

ويعني أن معتقداتك تحدد ما ستفعله. تمحورت الفضائل الأربع حول غرس الشخصية -الشخصية الجيدة- بحيث يصبح بإمكان المرء في اللحظة الحسّاسة التصرّفُ وفقَ بديهته. ليست الشجاعة شيئاً تعلنه، مثل الإفلاس، بل هي شيء تكتسبه، ويمسي جزءاً منك. كحال الكاتب الذي يمسي مؤلفاً عبر الكتابة، وكاتباً عظيماً عبر تأليف أعمال تستحق القراءة. «الشجاع» وصفٌ تفضيلي يحصده المرء على امتداد حياةٍ ملأى بالقرارات الشجاعة.

الأشخاص الذين تابعناهم حتى الآن -من شارل ديغول إلى ليونيداس، وفريدريك دوغلاس، وثيودور روزفيلت، وإلينور روزفيلت، وماركوس أوريليوس، وصوفيا فرار، وفرانك سيربيكو، وجيمس ستوكدايل- ما كانوا

مثاليين. إذ أظهروا في بعض الأحيان نقيض الفضائل التي ندرسها، وهو أمرٌ تجدر الإشارة إليه. مع ذلك، لا يمكن إنكار أن شخصيّاتهم دفعتهم في اللحظة الحرجة إلى القيام بأشياء بالغة الروعة. ليس آنذاك فقط، لأجل الأشخاص الذين ساعدوهم أو لأجل القضية التي ناصروها، وإنما كذلك لأجلنا، اليوم، من خلال الإلهام الذي يوفّره ذلك.

لم تكن كلماتهم هي المهمة بل من هم عليه.

هذا ما عّبر عنه لينكولن في جيتيسبيرغ: ليس مهماً ما نقوله هنا، بل المهم ما فعلوه هناك. سواء أكان ما فعلوه في ثيرموبيلاي في العام 480 قبل الميلاد، أو ما فعله الجنود البريطانيون بعد ألفي سنة في الممر عينه والأسلوب عينه ضد الألمان، سواء أكانت استجابة فلورنس نايتينجيل لندائها أو استجابة مايا مور لندائها، سواء أفهموا ملياً التضحية التي كانوا يقدِمون عليها أو تبعات الموقف الذي يتّخذونه، ما زال صدى شجاعتهم يتردّد حتى اليوم.

مازالت فضيلتهم تلمع.

لا يسعنا تكريسها. إنها تقف بشكل أبدي منفردة. تضحية تُقدَّم إلى آخر الحدود.

لأننا ندرك أننا ما كنا لنوجد هنا لولا شجاعة من سبقونا.

ثمة طريقة واحدة فقط لنسدّد لهم هذا الدين.

وهي بإضافة أفعالنا الخاصة إلى أفعالهم، وبتكملة «عملهم غير المنتهي». علينا إكمال التقليد الذي كنا جزءاً منه، سواء أكنا نعرف أم لا. علينا اتباع هرقل.

يبدأ ذلك باختيار الفضيلة. لا يبدأ بالإشارة إلى الفضيلة، وإنما بعيشها.

بوسعنا التعلم حول الفضائل قدر ما نشاء، ولكن حينما نصل إلى مفترق طرق، علينا عندها أن نتّخذ قراراً.

افتتحنا هذا الكتاب بكلامٍ من الإنجيل وبمقتطفات من كلام جون ستاينبيك. دعونا نختتم كلامنا عبر جمعهما معاً. في كتاب ستاينبيك (إيست أوف إيدن)، يخلص إلى أن أقوى لفظة في الديانة المسيحية هي «timshel» أي «لعلّك». حينما نقرأ الوصايا مترجمة إلى الإنجليزية، يُعبّر عنها بأنها وصايا فقط. ولكن يعتقد ستاينبيك بأن التعبير العبري أدق، ليس «عليك» بل «لعلّك».

أشار إلى محرره لدى كتابَتِه لتلك الصفحات «ها هي المسؤولية الفردية واستنباط الضمير. بوسعك أن تفعل إن توفرت النية ولكن الأمر يعود إليك. تبين أن هذه القصة الصغيرة واحدة من أعمق القصص في العالم. لطالما شعرت أنها كذلك، ولكنني الآن أوقن أنها كذلك».

سواء أكانت من الإنجيل أو من هرقل أو (إيست أوف إيدن) أو (فاوست)، تظل رسالة الموعظة هي عينها: الخيار في أيدينا. نحن نختار بين الجُبن والشجاعة، بين الفضيلة والرذيلة.

تنادينا الشجاعة وسط خوفنا. إنها تنادينا في كل فعل بطولة ومثابرة تتطلبه واجباتنا. وتنادينا إلى ما هو أبعد من أنفسنا نحو الصالح العام الأهم.

نحن نتخذ القرار لناحية كيفية الاستجابة للنداء. ليس مرة واحدة فقط وإنما ألف مرة في الحياة. ليس فقط في الماضي والمستقبل وإنما الآن، اليوم.

ماذا سيكون قرارك؟

هل يسعك التحلّي بالشجاعة؟ لأجل من ولمَ ستتحلّى بالشجاعة؟

يودّ العالم أن يعرف.

الخاتمة

لربما كنت أبلغ الثالثة والعشرين من عمري حينما طلب إليّ دوف تشارني، المدير التنفيذي لشركة أميركان أباريل، تسريبَ صورٍ عارية لامرأة كانت تقاضيه.

قلت له إنني لن أفعل ذلك.

اعتَقَد أن هذه الصور والرسائل النصية المرافقة لها ستبرّئه. وكان محقاً إلى حدّ ما. وقد شكّل ذلك ما بتنا نسمّيه اليوم بـ «الإباحية الانتقامية».

قلت إنني لا أريد المشاركة في ذلك.

آنذاك، شعرت برضىً معيّن عن نفسي لأنني اتّخذت ذاك الموقف الأخلاقي الشجاع. ومع تقدّمي في السن، وبعد كتابتي للأسطر التي قرأتموها، لا يزال خياري موجوداً وإنما يبدو أيضاً غير كافٍ على نحو مخز. فمن ناحية، لم يكن أحدٌ في شركة أميركان أباريل ليقدِمَ على تحدّي كلام دوف تشارني: ليس إن أراد الحفاظ على وظيفته، ناهيك عن الرغبة في البقاء إلى صفّ رب العمل. ومن ناحيةٍ أخرى، لماذا لم أستدِر، وأخرج من الباب من دون أن أنظر إلى الخلف أبداً؟ لماذا لم أستقِل من عملي مباشرة؟ لماذا لم يفعل الجميع ذلك؟ لماذا ظللت أرغب في الحفاظ على وظيفتي؟

أتذكّر دخولي إلى مكتبه بعد بضعة أسابيع حيث شهدت على اتصال فيديو بينه وبين مراسلين من وسائل إعلامية كبيرة شاهدوا خلاله الصور. لم أوقف إلا مشاركتي في المكيدة. ولكنني لم أفعل شيئاً لمنعها من الوقوع. وفي غضون دقائق، سيتمّ نشر الصور عبر الإنترنت والإعلام.

لماذا خذلَتني شجاعتي؟

هذا سؤال طرحته على نفسي مرّاتٍ مذّاك الحين. إذ لم تكن هذه الورطة الأخلاقية الوحيدة التي وجدت نفسي في خضمّها في شركة أميركان أباريل.

قلت لنفسي إنني بقيت أعمل هناك على مرّ السنوات لأنني أردت حماية الأشخاص الذين يعملون لحسابي. بقيت لأنني ظننت أن بوسعي إحداث فارق أكبر عبر بقائي. لأنني آمنت في مهمة الشركة (كانت تفعل الخير في العالم). لأنني لم أكن مثل الآخرين أو مثله. كان هذا صحيحاً إلى درجة معيّنة. ولكن يسعنا دوماً إيجاد تبريراتٍ كي لا نفعل الشيء الصعب وإنما الصحيح. في تلك السن، أرخى الابتعاد عن المال، وعن أهم وظيفة حظيت بها في حياتي، وإفشال الخطط التي رسمتها لحياتي، بوطأته الشديدة عليّ.

للمفارقة، وبعد التفكّر في الأمر، كنت أخطّط للقيام بشيءٍ مخيفٍ أكثر: للانتقال بعيداً عن عالم المؤسسات لكي أصبح مؤلفاً. أظنني كنت أخشى ما ستكون عليه تبعات توقّف مورد رزقي. تردّدت في التخلّي عن راتبي. ردعني عدم اليقين، والقفزُ في الظلام. ولكنني عبر التردّد، أعطيت نفسي وسلامتي أهميةً تفوق أهمية فعل الصواب، لكأنني أهمّ من الأشخاص الآخرين.

طيلة ثلاث سنوات أخرى، ظللت أعمل في الشركة كمستشار وواضع استراتيجياتٍ، تألّفت بمعظمها من خطواتٍ تدخلية لأجل الموظّفين الذين يسعني مساعدتهم ودرء العربة من التحطّم وسط الخندق. مَنَعتُ اتّخاذَ قرارات سيئة. وجّهت القرارات نحو منحى أخلاقيّ أكثر. حاولت لجم دوف. حافظت على سير العمل بطريقتي الصغيرة، حيث ساعدت آلافاً من عمال الملابس على الحفاظ على رواتب معيشتهم. بقيت أتلقّى أجراً، وبالنتيجة لا يسعني التهرّب تماماً من مشاركتي في السوء الذي وقع.

لم أكن مثالاً أعلى في الشجاعة.

عام 2014، بعد أن كرّست نفسي كمؤلف لثلاثة كتب، أخذت الأحداث منحى مفاجئاً. تدهور وضع دوف بعد أن كان مسيطراً على الأمور من قبل، وأمسى يعيش في كوخ في المستودع. ضرب موظفاً. كان يتشدق كالمجنون. ودفع سعر السهم إلى أدنى مستوى له على الإطلاق. وتواصلت الدعاوى القضائية بحقه لأنه عجز عن لجم نفسه.

خلال سقوط دوف في هوّة الجنون، تناقشت مراراً مع بعض أعضاء مجلس إدارة أميركان أباريل حول الأوضاع داخل الشركة. بعد تفاقم سوء التقارير، قرر مجلس الإدارة أخيراً تغيير المدير التنفيذي. فبدأت أحاجج بأن دوف يحتاج إلى المساعدة كما احتاج نيرون إلى المساعدة، أن تغييره هي الطريقة الوحيدة لفعل ذلك. أخذني وقت طويل حتى توصلت إلى هذا القرار، ولكن بمجرد أن اتخذته، لم يساورني شك بأنه المسار الصحيح. في اليوم الذي

ختمت فيه جولة كتابي «العقبات طريق النجاح» (The Obstacle is the Way)، تلقيت اتصالاً من دوف ثم من مساعده الثاني. لقد فصله مجلس الإدارة أخيراً.

هل كان في إمكاني صنع فارقٍ لو أنني أيّدت ذلك سابقاً؟ أو هل كان ليتمّ طردي؟ لو أنني استقلت محتجاً عام 2011، هل كان ذلك ليبعث رسالةً أو كان ليمرّ دون أن يلاحظه أحد؟ لو أنني لم ألجم نفسي، لما تواجدت في الشركة في تلك اللحظة المحورية. أو... هذا ما أقوله لنفسي.

حاول دوف، الذي لا يعي جهودي، شراء ولائي في تلك اللحظات اليائسة. قال لي إنه سيشتري لي بصمة ناشر. هل كان لِيَفِيَ بذاك الوعد؟ على الأرجح لا. لم يكن ذلك مهماً لأنني لم أكن مهتماً. فقد حسمت أمري. سافرت إلى لوس أنجلوس وبدأت بدوري الجديد المتمثّل في إعادة بناء الشركة وإنقاذها من دوف، الذي قرّر عِوضاً عن الابتعاد آخذاً ملايين الدولارات أنه يفضّل مهاجمة الشركة التي قضى حياته في تأسيسها إن كان سيُحرم من تولّي السلطة فيها. خضتُ سباقاً لردعه عن إحراق المكان بالكامل.

حدث استحواذٌ عدائيٌّ من قِبل وول ستريت، ثم تجرّعنا حبة سمٍّ من مجلس الإدارة. لم يكن الوضع أشبه بنزاع في منطقة حرب، وإنما كانت فوضى لم أشهد مثيلاً لها من قبل. تعيّن عليّ تحمُّلُ النقد والتآمر وكل أنواع الترهات الأخرى. كانت جلسات التحقيق والتدقيق في الأمور معي متتالية. كشفتُ لهم الأسرار وأريتهم مكامن هدر الأموال. أقنعت أشخاصاً آخرين بمشاطرة قصصهم وحميتهم من العقاب. نظّفت مصائب طويلة الأمد وألغيت سياساتٍ ما وجب رسمها من الأصل. واسيت أشخاصاً. حاولتُ فعل الصواب. عملتُ لساعات طويلة، بعيداً عن منزلي، بينما انتظرتني زوجتي بكلّ صبرٍ وحدها، فيما حاولنا إنقاذ ما تبقّى من الشركة. كان هذا منهكاً.

ولكن ليست كلُّ معركةٍ قابلةً للفوز بها. ترددت القيادة الجديدة للشركة في لحظة حساسة. كان ثمة موظفون يجدر طردهم، تعرضوا للإفساد على مر السنوات. حينما تم الإبقاء عليهم في وظائفهم، خشية إزعاج أحد، تمكن دوف من تخريب الشركة عبرهم. ثم لان الصندوق الاستثماري الذي اشترى الشركة تحت وطأة ضغطه وأعاد دوف جزئياً إلى المكان. لطالما حذّرتُ من مغبّة حدوث ذلك، لذا استقلت فوراً، متخلّياً عن بقية عقدي.

كان قد تعرض للطرد لأسبابٍ تم نكرانها وتبريرها لوقت طويل. آنذاك بدت لي فكرة عكس المسار غير مقبولة. ولكن خبراء التحويل كانوا واثقين أنهم أدرى.

وانتهى المطاف بأن تقدمت الشركة مرّتين بطلب إشهار إفلاسها. وفقد أكثر من 10 آلاف شخص وظائفهم[31].

تلقّيت تهديداتٍ بالقتل على خلفية كتاباتي من قبل، ولكن لم يزعزعني أيٌّ منها كما فعل أحد أزلام دوف المهرجين عبر اتصال هاتفي ذاك الصيف. تنتقل من العمل لحساب شخص ما وإعجابك به -ظناً منك أنكما تؤمنان بالأشياء عينها- إلى الإدراك أنك أعميت نفسك. تدرك أنك حططت من قدر نفسك. تدرك أن أغلب ما عشته كان كذبة. وفجأة تخشى على سلامتك، فتقوم بأعمالك وكأنما سيارتك ومكتبك مراقبان.

كان ثمة حزنٌ وخوف، ولكن كان هنالك أيضاً قدرٌ مفاجئٌ من اليقين. ارتحت للاستقالة ولاتخاذ الخيار الصعب أكثر بكثير مما شعرت به خلال السنوات التي تضاربت فيها خياراتي الأخلاقية، بالرغم من أن تلك السنوات كانت بجزءٍ منها ملفتة وممتعة. وبدا خياري مجزياً أكثر بكثير أيضاً.

خلال انفجار قضية أميركان أباريل، قرأتُ أعمالاً كثيرة لسينيكا. إنه شخصية مذهلة لأنه مع كلّ كتاباته الجميلة حول الرواقية -الشجاعة والعدالة تحديداً- كان يعمل أيضاً لحساب نيرون. هل كنت رديفاً صغيراً له من القرن الحادي والعشرين؟ كاتباً لم يرضخ لكلامهم؟ بمعنى معين، نعم. دون شك، تعثّرت. وساومت. ووجب عليّ أن أكونَ أعلم. كان بإمكاني التحلّي بشجاعةٍ أكبر.

أعتقد أن بطء سير الأمور قبل وصولها إلى حالة الغليان يشكّل عاملاً أساسياً. إذ تبدأ من مجموعةٍ من الافتراضات المستنِدة إلى فهمك للوقائع أو حتى إلى مساوماتٍ أنت مستعدٌّ لفعلها. كان نيرون مراهقاً حينما التقى به سينيكا. أنا التقيت بدوف حينما كنت مراهقاً. تتغيّر الأوضاع. وتتعلّم أكثر. وتقع الأحداث. ولكن إن لم تكن مستعداً لاتخاذ قرارات-صعبة- خلال مسيرتك وعند تغيّر الأوضاع، فإنك تُعّدُّ جباناً عندها.

انعدام الفاعلية والوكالة معدٍ. كنّا في أميركان أباريل نحكي عن «عرض دوف» الذي نشاهده جميعاً. لم ينبس أحد ببنت شفة حول الإتيان بفعلٍ ما حيال ذلك. وكأننا كنا جميعاً مراقِبين صامتين لحياتنا السريالية، وصولاً إلى الساعات الطويلة التي أُجبرنا فيها على الجلوس ومشاهدته يتشدّق ويهذي. كان أحياناً ذكياً. وبدا أحياناً أخرى خبيثاً على نحوٍ منفّر. لم يخطر لأيٍّ منّا على ما يبدو أن في وسعه فعل شيءٍ حيال ذلك. لعلّنا توقّعنا أن ثمة من سيستطيع شيئاً سوانا، أو أن البالغين سينقذوننا. وحينما كبرنا في السن -حينما ازداد سينيكا قوّةً- فاتنا على نحوٍ يلائمنا بأننا من عليه أن يقوم بالإنقاذ.

اتفاقيات السرية، تعويضات إنهاء الخدمة، إيجارات السيارات، الصداقات... التقسيم الفئوي، مشاكلنا مع آبائنا. كان توقيع ربّ العمل مُدرجٌ على شيكاتنا. تربطك به علاقة خاصة وهذا يعميك. لم ينادِنا أي شخص نعرفه للانسحاب. لو أنهم فعلوا، هل كنا لنصغي؟ أو كان هذا ليدفعنا أكثر نحو التنافر الفكري؟ الخوف، بأشكاله المتعدّدة، رادعٌ مفحِم. لقد تفوّق على الشجاعة. على الأقلّ بوسعي قول ذلك في حالتي.

يذكّر سينيكا نفسَه بأن الفضيلة تنقسم إلى قسمين: دراسة الحقيقة، ويتبعها السلوك. ويتابع القول إنه إن كان ثمة جزءٌ ثالث، فسيكون الإخطار والتذكيرات، عملية المراجعة، التفكّر، وإرساء القواعد بالاستناد إلى تجاربنا. بالطبع السلوك هو الأهمّ من بين كل الأجزاء. قِصّتي الخاصة خيرُ دليلٍ على ذلك. ولكنما بالفشل أيضاً -والنظر في المرآة بعدها- نتمكّن من النموّ والتعلم، لنصبح أفضل في المرة القادمة، كما نأمل. هكذا حدث مع سينيكا. ففي النهاية، انفصل عن نيرون، وخرج كالبطل.

بانتهاء عام 2016، كنت أنا أيضاً قد تعلّمت من تجاربي. كنت أكتب عموداً في صحيفة نيويورك أوبزيرفير، التي يملكها جاريد كوشنر، المعروف آنذاك كمطوّرٍ عقاريٍّ وكصهر شخص يعمل في برامج الواقع. ذاك الصيف، كتبت مقالاً صرّحت فيه بعدم ملاءمة ترامب لتولّي المنصب. لم يكن ثمة حاجة إلى موافقة قسم التحرير على كتاباتي حتى تلك المرحلة، ولكن فجأة منعت الصحيفة نشر مقالي. قبل بضع سنوات، كنت لأخشى إثارة الجلبة، أو فقدان المال الذي قد أحصّله من عمل ما. واليوم لم يخطر لي حتى أن أمتنع عن نشر مقالٍ أجده مهمّاً.

أيقنت أيضاً أنني لم أكن مخطئاً، مما يعني أن قول ذاك الكلام هو الصواب.

نشرتُ مقالي في مكانٍ آخر، فحقّق فوراً انتشاراً واسعاً. أدركت أن هذا يعني بأن أيام كتابتي في صحيفة أوبزيرفير باتت معدودة. بُعيد ذلك، كتبت مقالاً حساساً آخر ركّز أيضاً على موقع برايتبارت الإلكتروني اليميني المتطرّف. ومجدداً، لم يُنشر لذا نشرته بنفسي. ثم بعدها بفترة وجيزة، تم إطلاعي بأن شخصاً على صلة بالحملة قد اتصل ليقدم مزاعم جدية تفيد بأن أحد كتبي منتحل لأفكار الغير. كان الاتهام محالاً، ولكن لم تكن تلك الفكرة: فالاتصال يُفترض أن يكون تنبيهاً. أرادوا إعلامي إنهم قد يحاولون تدميري إن لم أخرس.

لم يجدِ ذلك نفعاً.

ماذا لو خسرت عمودي في الصحيفة بسبب مقال عن ترامب؟ إن تم إجباري على مكافحة اتهامات باطلة؟ إن سعى أحدهم خلفي؟ كنت سأتعامل مع ذلك بالطريقة عينها التي تعاملت فيها مع خسارة ذاك الراتب بالأدوات التي لطالما توفّرت لديّ، كما قال ماركوس أوريليوس. الاستسلام للخوف يعني إنكار المواهب والمهارات التي أوصلتك إلى حيث أنت في المقام الأول. هذا يعني حرمان نفسك من القدرة التي حُبيت بها لدى ولادتك.

بمعنىً معيّن، أشعر بالامتنان لخوضي تلك التجارب في أميركان أباريل، لأنها علّمتني-متأخّراً- أهمية الإصغاء إلى الصوت الكامن في داخلي. وسط الفوضى والفساد، قد يصعبُ سماعُ نداء الشجاعة. أحياناً لن تفهم مخاطر التردّد، ومخاطر عدم قول الحقيقة في وجه السلطة، إلا بعد أن تشهد على ما سيحدث لك وللآخرين إن لم تفعل.

ستجد أن التهويل التام الذي كنت أتحدّث عنه تواً أمرٌ نادر. حوافز الحياة العادية هي أكثر فاعلية منه. قل للناس ما يودون سماعه وستحظى بجمهور أوسع. لا تخض في السياسة. امتنع عن تحدي هوية أي شخص. يمكن لأيّ كاتب معاصر النظر إلى نسب عدم الاشتراك في صفحته وعدم متابعته وسيعلم سريعاً جداً أن تقديم الحقيقة القاسية يؤدّي غالباً إلى أذية جيبته. ما عليك سوى قراءة رسائل البريد الواردة من معجبيك لدى التوغل في مواضيع جدلية: لماذا قلت هذا الكلام؟ لن أقرأ أعمالك مجدداً.

لستُ مثالياً. من الجليّ أنني لم أتمتع دوماً بقدر الشجاعة التي لطالما تمنيتها. ولكن مع تقدّمي في السن كمؤلف، راح يتجلّى لي شيءٌ واحد أكثر فأكثر: واجبنا هو تجاه الحقيقة، سواء أعجبت الناس أم لم تعجبهم. كحال هيلفيديوس، قد يعاقبونك عليها. قد «يلغونك» أو حتى يقتلونك جرّاء ذلك. ولكن لطالما أقول للقرّاء الغاضبين إنني لم أنشئ منصتي حتى أمتنع عن استخدامها في سبيل قول ما أؤمن به.

ادّخرت هذه القصة لأدرجها في خاتمة هذا الكتاب لأنها معقّدة لكنها اعتيادية. عمل 12 ألف شخص في شركة أميركان أباريل على مرّ السنوات. من حمل الذنب الأكبر؟ لا يمكن لأحد أن يجيب. إن قرأتم القصص حول تلك الصور المسرّبة، ستلاحظون كم كان الوضع ضبابياً. لعلّكم ستقرأون عمودي حول ترامب وستجدون أنني كنت خاطئاً تماماً وما وجب نشره.

هدفي من هذه القصص أن أُظهِر كيف على كلّ منّا أن يعمل في سبيل التحلّي بالشجاعة، بطريقته الخاصة، وفي حياته الخاصة، وأغلب حيواتنا عادية جداً.

قال صامويل جونسون ممازحاً: إن كلّ رجل ينتقص من قيمة نفسه لأنه لم يكن جندياً. أفهم ذلك. تصارعتُ مع هذه الفكرة حتى لدى تأليفي لهذا الكتاب: هل أنا مؤهّل؟ هل يحقّ لي الكتابة عن الشجاعة علماً أنني لم أنقذ قطّ حياةَ أيّ شخصٍ باستثناء اتصالي بقسم الطوارئ وتقديم الإسعافات الأولية لشخصٍ على الرصيف خارج حانة؟

لم أتحلّ دوماً بالشجاعة. لست شجاعاً على الدوام. حتى إنني تردّدت في كتابة هذا الفصل وطلب إليّ أحدهم عدم إدراجه في الكتاب... ولكنني سرعان ما تذكّرت أن التردّد يسلبنا عزيمتنا. بوسعي القول إن أدائي يتحسّن لناحية هذا التحدي الأبدي المتمثّل في اعتماد الشجاعة في الحياة الواقعية. لم يعُد رأيُ الناس يهمّني اليوم بقدر ما كان يهمّني البارحة. أتقدّم إلى الأمام أكثر مما أتراجع إلى الخلف. تأليف هذا الكتاب ونشره كانا مثالاً على ذلك. ولكنني أود لأصداء حياتي الخاصة وأفعالي الخاصة أن تكون أقوى من صدى كلماتي.

علينا الكفّ عن التفكير في الشجاعة كشيءٍ لا يحدث إلا في ميادين المعارك أو على متن حافلةٍ من حافلات ركّاب الحرية. كما أنها لا تقتصر على عدم الخوف من رب عملك... أو من الحقيقة. إنها القرار الذي تتّخذه بأن تتبع مسارك الإبداعي الخاص. إنها تعني رسم خطٍّ أخلاقي. إنها تعني أن تكون غريب الأطوار إن كانت هذه حقيقتك. إنها تعني أن توصل صوتَ ضميرك، وليس ما يريده الحشود. أو ما يريده والداك.

لا تعني الشجاعة أن تقوم بهذه الأمور فقط حينما يناديك القدر إلى مسرح العالم. بل تعني أيضاً، وكما ذكرنا، أن تجعل منها عادةً، وشيئاً نلجأ إليه في الشؤون الكبيرة والصغيرة، ويومياً، بحيث تبدو طبيعية جداً في كل لحظة، وبغضّ النظر عمّن يراقبنا، وعن المخاطر التي قد تواجهنا.

الشجاعة تنادي كلّ شخصٍ منا.

هل سنستجيب لها؟

أو لعلّ هذا كثير. هل يمكننا أن نحسّن استجابتنا؟ هل يسعنا أن نتقدّم أكثر مما نتراجع؟

لنبدأ من هنا.

راين هوليداي

مكتبة «ذا باينتت بورش» (The Painted Porch)

باستروب، تكساس

2021

ماذا أقرأ الآن؟

بالنسبة إلى غالبية الأشخاص، المراجع مملّة. ولكن بالنسبة إلى محبي القراءة، فهي تُعتبر الجزء الأفضل. في حالة هذا الكتاب، الذي اعتمد على أفكار الكثير من المؤلفين والمفكرين الرائعين، لم يسعني إدراج كل المصادر هنا. عوضاً عن ذلك، حضّرت قائمةً كاملة بكلّ الكتب الممتازة التي أثرت على الأفكار التي قرأتموها تواً، وليس هذا فحسب وإنما أدرجت فيها أيضاً ما أخذته منها والسبب الذي قد يجعلك ترغب في قراءتها. للاستحصال على هذه القائمة، ابعث رسالة إلكترونية إلى هذا العنوان الإلكتروني:
books@courageiscalling.com

أو ادخل إلى الموقع courageiscalling.com/books

سأرسل لك أيضاً قائمةً ببعض الاقتباسات الممتازة حول الشجاعة.

هل من توصياتٍ بعناوين كتبٍ جديرةٍ بالقراءة؟

نعم. يمكنك أيضاً الاشتراك في قائمتي التي أدرج فيها توصياتٍ شهريّةً بعناوين كتبٍ جديرةٍ بالقراءة (أصبحت القائمة في عقدها الثاني الآن). كبرت القائمة فباتت تَشمَل أكثرَ من 200 ألف شخصٍ من كلّ أنحاء العالم وتتضمّن آلاف الكتب القادرة على تغيير حياة الإنسان.

ryanholiday.net/reading-newsletter

ستجد هناك بدايةً عشرة عناوين رائعة أوقن أنها ستنال إعجابك.

شكر

تمّ تأليف هذا الكتاب في خضمّ انتشار جائحة كوفيد 19، وبالتالي ما أمكن فعل ذلك لولا الأطباء الشجعان والعلماء وعمال الجبهة الأمامية، وسائقو التوصيلات وموظفو متاجر البقالة الذين حضروا إلى مقار أعمالهم يومياً، فقام كلٌّ منهم بدوره الخاص حتى يتسنّى لنا نحن البقية النجاة. حينما أتكلّم عن الشجاعة، فلست أقصد الجنود فقط، بل أيّ شخص يثابر في مواجهة الخوف، أو الصعاب، أو الشك. ندين كلّنا بالامتنان لأبطال عامَي 2020 و2021، ويجدر بنا استخدام أحداث السنة الماضية لإجراء جردةٍ ذاتيّة ولمساهماتنا الخاصة في الصالح العام.

أودّ أيضاً توجيه الشكر إلى زوجتي سامانثا، التي دعمتني دون كللٍ وحمت عائلتنا بينما كنت أؤلف هذا الكتاب. كما أدين لحمويّ اللذين سمحا لي بركن عربة استجمام في المدخل الخارجي لمنزلهما خلال الصيف وقاما برعاية أولادنا خلال تأليفي للقسم الثاني من الكتاب. ثم أودّ أن أشكر الباحثين بيلي أوبنهايمر وهريستو فاسيليف، ومحرّرَي نيلز باركر، ووكيلي ستيفن هانسلمان، والفريق في بورتفوليو (أدريان زاكهايم، نيكي بابادوبولوس، ستيفاني برودي، تارا غيلبرايد، ميغان ماك كورماك). والشكر موصولٌ للجنرال ماتيس، والجنرال لاسيكا، وبرادلي سنايدر، وماثيو ماك كونوهي، ومعلمي الدؤوب روبرت غرين، وستيفن بريسفيلد على نصائحهم وملاحظاتهم. وكذلك أشكر فريقي القديم في أميركان أباريل على مساعدتهم لي في خاتمة الكتاب وعلى بقائهم إلى جانبي، حتى لو لم أكن دوماً شجاعاً بقدر الممكن.

مجدّداً، ما كان هذا الكتاب -وكذلك كل الفنون والأعمال الأدبية والتكنولوجية- ليصدر لولا تضحيات الأجيال التي خلت وشجاعتها. لا يسعنا أبداً مكافأتهم على كل هذه الجهود. جُلُّ ما يسعنا فعله هو محاولة السير على خطاهم وتكريمهم عبر الاستلهام منهم في أفعالنا الخاصة. أياً تكن درجة نجاحي في ذلك هنا أو في أي مكانٍ آخر، أظلّ مديناً جداً بكل امتنان.

1. المِحكُّ: الحجرُ الذي يستعمل لكشف المعادن الثمينة وعيارها. (م)

↥

2. هذا الكتاب الأول من السلسلة.

↥

3. أي معركة ترموبيل. وقعت عام 480 ق.م. وهزمَ فيها الفرسُ اليونان بفارقٍ عملاق في العدد لمصلحة الفرس. (م)

↥

4. (Lives of Eminent Victorians) ↥

5. إن لم ترغب بأمثلة من الكتاب المقدس، فإنك تجد نفس المعنى متكرراً من نوع «كن شجاعاً» و«تشجّع» و«لا تخف» أكثر من اثنتي عشرة مرة في الأوديسّة.

↥

6. كما سنرى لاحقاً، ليت هذا السياسيّ استطاع أن يتّبع نصيحته هذه ذاتها.

↥

7. القانون القائل: إن الأحداث القادمة دائماً ما تسعى في اتجاهٍ يقلّصُ الفارق بين الأحداث الماضية وبين المتوسط الاحتماليّ المتوقع. (م)

↥

8. على نحو مشين لا عذر فيه، وفي عام 2021، ما زال تمثال السناتور تيلمان منصوباً أمام مقر حكومة كارولينا الجنوبية.

↥

9. ا لشعور غير العقلاني الذي يصيب الإنسان بإحساسٍ بأنه أقل قيمة مما يمنحه مجتمعه، وأنه لذلك مجرد «محتالٌ».

↥

10. يرتجف المرء لمجرّد التفكير في ما كان سيحدث لابنة ديغول ذات الاحتياجات الخاصة، آن، لو أنها بقيت في فرنسا.

↥

11. طرد لينكولن الجنرالَ جورج بي. ماكليلان وسلّم موقعه لأوليسيس جرانت لهذا السبب. قال لينكولن: «إنه يحارب».

↥

12. باللاتينية: النردُ قد رُمِيَ. وهي عبارةٌ منسوبة لقيصر عند عبوره نهر روبيكون مع جنوده المسلحين، وكان ذلك، فعلياً، يعني إعلان الحرب. (م)

↥

13. في الحرب الأهلية، كانت الألغام البحرية تسمى توربيدات. وهذا التعبير المشهور لم يكن يعني «جهِّزْ أسلحتك» كما يظن البعض، بل كان يعني: «انسَ العقبات، فلننطلق!»

↥

14. يقصدُ مقتلَ سيسيرو على يد أولئك الأعداء، وهي حادثةٌ درامية مشهورة في العالم الغربي ، حيث قُطِعَت يداه وثُبتتا بالمساميرعلى منصة مجلس السناتورات. (م)

↥

15. إلا أنه يجدر بنا الانتباه إلى أنه لم يصل إلى هذا الموقع إلا بفضل أجيال من الناشطات المطالبات بحق التصويت وشجاعتهن العظيمة وعملهن المنسق.

↥

16. السيدة توماس كات هو الاسم الذي استعملته قائدة رابطة الناشطات المطالبات بحق التصويت: كاري كات. ووالدةُ برنز تتلاعبُ في رسالتها بالكلمات مختصرةً مساعي السيدة توماس كات للمصادقات على الحق

(Ratifications) إلى الجزء الأول من الكلمة (Rats) والذي يعني الجرذان. وعبر هذا التشبيه، فإنها تطالبُ ابنها بمساعدة السيدة توماس كات في مساعي المصادقة على حقّ التصويت بطريقة أمومية... أي كما تطلب الأمُ من ابنها مساعدة جارةٍ في التخلص من الجرذان. (م)

↥

17. إشارةٌ إلى ممارسة الرواقيين الاستحمامَ بالماء البارد من باب الزهد، وباب تحصين النفس ضد الشقاء المتوقع في الحياة، وهي ممارسةٌ اشتهر بها سينيكا على الرغم من ثروته الطائلة. (م)

↥

18. إن اسم السجن الرسمي (Hỏa Lò Prison)، ولكنَّ سجناء الحرب الأمريكيين، ومن منطلق السخرية المريرة، صاروا يسمونه: (Hanoi Hilton)، وذلك تشبيهاً بسلسلة فنادق ’هيلتون‘ الفخمة. (م)

↥

19. من المفترض بالجنود أن يطيعوا الأوامر، ولكنهم اليوم يملكون شيئاً من السلطة، فإذا شكّوا في أمان الأوامر أو أخلاقيتها فإن لهم حقّ التوجّه نحو ضابطهم المسؤول والمطالبة بمناقشة تلك الأوامر حتى يتم الأمر الصحيح.

↥

20. شرحت حكاية هذه المعركة القضائية بشكلٍ مُطوّلٍ أكثر في كتابي «مؤامرة» (Conspiracy).

↥

21. المترجم: يشير الكاتب هنا إلى مقولةٍ للرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب وردت في خطابه في 14 يونيو 2015، وتتعلقُ بسياسته المُعادية للاجئين من أميركا الجنوبية، حيث برَّرَ موقفه باستعمال هذه العبارة بحرفيَّتها، وتحوّلت العبارةُ إلى موضع جدلٍ بين الطرفين. فيما يلي القسمُ من الخطاب الذي وردت فيه الجملة:

When Mexico sends its people, they’re not sending their best. [...]) They’re sending people that have lots of problems, and they’re bringing those problems with us. They’re bringing drugs. They’re bringing crime. They’re rapists). ↥

22. من الجدير بالذكر أن ماكآرثر طُرِد بشكلٍ غير مُشرِّف بعد ستة أشهر من ذلك الانتصار، لأن النجاح قد ملأ رأسه بالكبرياء. تذكّرْ: الجرأةُ ليست هي ذاتها التهوّر. ليس من الجرأة أن تقامر بحياة الآخرين.

↥

23. يتلاعب المؤلف بكلمة (mean) والتي تعني المتوسط الحسابي، وتعني في الوقت نفسه (لئيم). (م)

↥

24. يُعرّبُ اسمها أحياناً «بورشيا». (م)

↥

25. الديفوتيو هو عهدٌ يتّخذُه الجنرالُ على نفسه بأنْ يُقدِّم حياتَه، وحياةَ أعدائه، في المعركة قرباناً للآلهة كي تمنحه النصر. (م) ↥

26. Freedom is not free.

↥

27. من الجدير بنا أيضاً أن نشيد بألبرت، أمير إنجلترا، الذي اجتهد في أيام حياته الأخيرة لإبقاء بريطانيا خارج مشكلة الحرب الأهلية الأمريكية (ولولا ذلك، لكان من السهولة بمكان أن تتحوّل الحرب الأهليةُ إلى حربٍ عالميةٍ).

↥

28. تحويلُ الدائرة إلى مربعٍ يساويها في المساحة مشكلةٌ قديمةٌ في علم الرياضيات صارتْ مَضرَبَ المثل في الآداب للشيء المُستحيل. (م)

↥

29. رأى الحواريون المسيحَ يتبع نصيحته الخاصة، بألم، عبر التضحية بحياته من أجل الجميع. يُعتقد أن واحداً أو اثنين فقط من الرّسُل الإثني عشر ماتوا ميتةً طبيعيّة.

↥

30. من المضحك أن العدميّين يبدون دائماً محبطين للغاية من الناس، على الرغم من أن سقف توقّعاتهم منخفضٌ للغاية أساساً.

↥

31. كانت تجربة أثرَت كتابي (إيغو إز ذا إينيمي)

↥

Table of Contents

- نداءُ الشجاعة
- المحتويات
- الفضائلُ الأربع
- المقدّمة
- الجزء الأول الخوف
  - النداء الذي نخافُه...
  - المهمُّ ألا يصيبنا الخوف
  - نهزم الخوف بالمنطق
  - هذا هو العدوّ
  - يبدون دائماً أكثر عدداً قبل أن تَعُدَّهم
  - ماذا لو؟
  - لا تدع الصعوبات تردعك
  - ركِّزْ على ما هو أمامك
  - لا تشكِّك أبداً في شجاعة الآخر
  - وكالَتُكَ على حياتك حقيقةٌ فعليّةٌ
  - خائفون من أن نؤمن
  - لا تدعهم يرعبونك أبداً!
  - النموّ قفزة
  - لا تَخَف من الخيارات
  - لا يمكنك إعطاء الأولوية للسلامة
  - الخوف يربك شيئاً
  - لا شيء يخيف أكثر من أن تكون نفسك
  - الحياة تحدث في العلن. اعتد على ذلك.
  - أيُّ تقليدٍ ستختار؟
  - لا يمكنك أن تخاف من السؤال
  - عندما نرتقي إلى أعلى...
- الجزء الثاني الشجاعة
  - النداءُ الذي نلبّيه...
  - العالمُ يريدُ أن يَعرِف
  - إن لم يكن أنت فمن إذاً؟
  - الاستعداد يجعلك قوياً

ابدأ من مكانٍ ما. افعل شيئاً ما وحسب
انطلق!
قل الحقيقةَ للسلطة
كُنْ صاحب القرار
من الجيّد أن تكون «صعباً»
بضعُ ثوانٍ من الشجاعة فقط
اجعَلها عادةً
بادر بالهجوم
لا تتقهقر
الشجاعة مُعدية
عليك أنْ تتحمَّل المسؤولية
يمكنك دائماً أن تقاوم
الأقدارُ حليفةُ الشجعان
شجاعة الالتزام
أحبَّ جارك
الجرأة لا تعني التسرّع
الوكالةُ تؤخذُ ولا تُعطى
حين يكونُ العنفُ هو الحلّ
أنْ تنهضَ وتَرحَل
قُم بِعملك
يُمكِنُكَ أن تهزم الفُرَصَ الضئيلة
اجعلهم يفتخرون بك
عندما نتفوّق على أنفسنا...
الجزء الثالث العمل البطوليّ
ما هو أبعدُ من النداء...
الهدفُ هو كلّ شيء
مِنَ الأشجعِ ألا تقاتِل
عليك أن تختبرَ حياة البرية
الإيثارُ في الحبّ
اجعل الناس من حولك عظماء
لا وقتَ للتردّد
نحن نصنع حظّنا
ألهِم الآخرين الشجاعةَ المطلَقة
ما الثمن الذي أنت مستعدّ لدفعه؟
السببُ المهمّ
العودة إلى الوادي

الصمتُ عنف
جرأة الأمل
أحرِق الراية البيضاء
لا أحد عصيّ على الانكسار
الشجاعةُ فضيلةٌ والفضيلةُ شجاعة
الخاتمة
ماذا أقرأ الآن؟
شكر